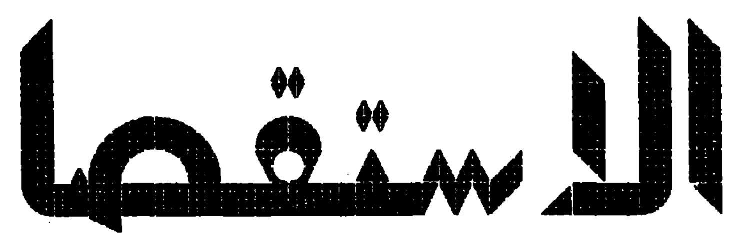
الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة العلوية

القسم الثالث

الجزء التاسع

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :
الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٦

الدولة العلوية

القسم الثالث

الخبر عن دولة امير المومنين المولى عبد الرحمن بن هشام وأوليته ونشأته

كان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله منذ نشأ وهو متمسك بالتقوى والعفاف متصف بالصيانة وجميل الاوصاف من الانقباض عن الخلق وملازمة العبادة والصوم وقيام الليل وترك مالا يعنى والجد فى الامور كلها حتى عرفت له هذه الشنشنة وتطابقت على حبه ومدحه القلوب والالسنة ولما نشأ هذه النشأة الطيبة أقبل عليه عمه السلطان المولى سليمان رحمه الله وضمه اليه واعتنى بشأنه ورفع منزلته حتى علا أولاده ولما بعث أولاده الى الحرمين الشريفين بقصد أداء فريضة الحج بعثه فى جملتهم فظهر له فى تلك السفرة من الورع والدين والتمسك باسباب اليقين ما رفع قدره وأشاع بالصلاح ذكره وكان السلطان رحمه الله قد أعطاه بضاعة ينفقها فى سفرته تلك ويستعين بها على حجه فلما آب من سفره أتى بالبضاعة الى عمه وقال له : ياسيدى: «هذه البضاعة التى أعطيتنى انما أخذتها لانفق منها اذا نفدما عندى، وكانت معى بضاعة جمعتها بقصد انفاقها فى هذه الوجهة، ولم أرد أن أخلطها بغيرها، وقد حصلت الكفاية بها والحمد لله.» فعجب عمه من شأنه وازداد محبة وغبطة فيه ورد له البضاعة وطيبها له ودعا له بخير. وكان فى أول أمره مقيما بتافيلالت ثم استقدمه السلطان المولى سليمان فى آخر عمره وولاه بثغر الصويرة وأعمالها فقام بذلك أحسن قيام ثم استقدمه منها فى فتنة ابنى يزيد كما مر واستخلفه على حاضرة المغرب وأم أمصاره مدينة فاس فقرت بولايته العيون وطابت الانفاس كل ذلك فعله به ترشيحا للامر وتقديما له فيه على زيد وعمرو

بيعة أمير المومنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى سليمان لما حضرته الوفاة جدد العهد لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام وبعث به الى فاس ثم كانت وفاة السلطان عقب ذلك فوصل خبر وفاته الى فاس في السادس والعشرين من ربيع الاول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف فحضر القاضي الشريف المولى أحمد بن عبد الملك والعلامة المفتي أبو عبد الله محمد بن ابراهيم والتاجر الامين الحاج الطالب ابن جلون وسائر أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم وحضر أعيان الوداية وقوادهم ولما قرىء العهد ترحموا على السلطان المولى سليمان وبايعوا للسلطان المولى عبد الرحمن وسلموا عليه بالخلافة وتم أمره وسر الناس بذلك خاصة وعامة ثم ترادفت على حضرته بيعة أهل الديوان وسائر الجنود وحل من الملك العزيز في فلك السعود وكتبت البشائر بذلك الى البلدان فوفدت بيعات أهل الأمصار وهداياهم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم واستبشر أهل المغرب بولايته وبان لهم مصداق يمنه وسعادته بتوالي الامطار ورخص الاسعار والعافية آناء الليل وأطراف النهار ، ولما تمت هذه البيعة المباركة وحصل ما ذكرنا من الامن والعافية وحسن الحال والرفاهية ، استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الاديب أبا عبد الله محمد بن ادريس الفاسي فقال :

مولاي بشراك بالتأييد بشراكا ... قد أكمل الله بالتوفيق سراكا

الفتح والنصر قد وافاك جيشهما ... والسعد واليمن قد حيا محياكا

الله ألبسك الاقبال تكرمة ... وبالتقى والنهى والعلم حلاكا

فراسة الملك المرحوم قد صدقت ... لما تفرس فيك حين ولاكا

أعدت للدين والدنيا جمالهما ... فأصبحا في حلى من حسن معناكا

وزادك الغيث غوثا في سحائبه ... فجاد بالقطر قطرا فيه مأواكا

ثم وردت على السلطان تهنئة عالم افريقية ومفتيها وأديبها الشيخ أبي

اسحاق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي بقصيدة يقول فيها :

نصر من الرحمن جل لعبده — أيروم خلق نقض مبرم عقده
وعدت به الاقدار وهي نوافذ — لا تحسبن الله مخلف وعده
والله أعلم حيث يجعل نصره — في الشاكرين له سوابغ رفده
فلتبسم ثغر الهنا مستبشرا — فالوقت ينطق عن سعادة جده
أن يمض مولانا سليمان الرضا — وعليه تبكي الباكيات لفقده
العلم والتقوى وكل فضيلة — منشورة طويت به في لحده
فلقد أقام لنا أبا زيد هدى — نورا مبينا يستضاء برشده
لو لم يكن كفئا لما أوصى به — وبنوه ترفل في ملابس مجده
سعدت به الايام ثم أراد أن — تبقى السعادة للورى من بعده
أعظم به نصرا يدوم سروره — للخافقين سرى تضوع رنده
أهدى الى الاعداء أقتل غصة — والاوليا متنعمون بشهده
فاستبشروا باليمن من مرضاته — واستمطروا نيل المنى من وده
ما هو الا ابن الرسول وهل فتى — في الناس يعدل عن مكارم جده
وتناسقت أسلافه كرما كما — راق النواظر لؤلؤ في عقده
لا غرو أن جمع المحاسن كلها — منهم فارث الجمع حق لفرده
لا يأفك الخراص حيث يقول قد — ذهب الزمان بعمره وبزيده
فبسيف ما تنسخ يقد أديمه — حتى ولو وفي العيان برده
فلكم وكم من آخر زمنا له — فضل عظيم لا يحاط بسرده
يا أهل فاس والمغارب كلها — والشرق من مصر لغاية حده
يهنيكم هذا الزمان فان في — أيامه للدين مطلع سعده
والعلم والتقوى وكل معظم — عند الشريعة فهو بالغ قصده
النور أوقد منهم أتراهم — يرضون الا باستدامة وقده
الله يبقي نوره متوقدا — يفنى الزمان ولا فناء لخلده
ويخص مولانا الامير بنعمة — لا تنقضي وعناية من عنده
ويديمه ظلا وريفا كلما — حمي الورى هرعوا لجنة برده

وحسام فتح كلمـــا نهضت بـــه   عزماته فالنصر شاحذ حـــده
وتمام بدر كلمـــا اقتعـد السرى   لم يسر الا فـــى منازل سعـده
وعليه تسليــــم تأرج نـــده   لكنه فـــى الفضل عادم نده
ثـم الصلاة عـلى النبى وآله   والحمد فـــى بدء الكلام وعـوده

اجتماع البربر على بيعة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام والسبب في ذلك

قد تقدم لنا أن البربر بعد وقعة ظيان اتفقـوا عـــلى مناوأة السلطان ومنابذته ، وانهم صاروا يدا واحدة عليه ، وعلى كـل من يتكلـــم بالعربية بالمغرب . فلما توفى السلطان المولى سليمان وبويع السلطان المولى عبد الرحمن زاد البربر ذلك الحلف توكيدا وشدة ، وأعدوا لعصيانهم واعوجاجهم أكمل عدة ، لا سيما رئيسهم الحاج محمد بن الغازى الزمورى فانه لما فعل فعلته فى وقعة ظيان من جره الهزيمة على المولى سليمان ثم عززها بأختها من بيعته للمولى ابراهيم بن يزيد ، والاجلاب فيها بالقريب والبعيد ، خاف أن يأخذه بذلـك من يأتى بعده من بنى أبيه وعشيرته ، فجد فى صرف وجوه البربر عـن السلطان واستعان فى ذلك بأبى بكر مهاوش فروض له رؤساء البربر حتى اجتمعت كلمتهم على أن لا يتركوا بأرض المغرب ذكـرا للسلطـان وحزبه ، وربما شايعهم على ذلك بعض غواة العرب مثل الصفافعة والتوازيط من بنـى حسن وزعير وجل عرب تادلا ، فلما أراد الله سبحانه نقض مـــا أبرمـوا ونثر ما جمعوا من ذلك ونظموا ، جعل لذلك سببا وهو أن الشيخ أبـا عبد الله الدرقاوى كان مسجونا عند الودايا كما تقدم فى أخبار فتنة ابنى يزيـد واستمر فى السجن الى أن بويع المولى عبد الرحمن ، وكان ابن الغازى من أصحاب الشيخ المذكور وممن له فيه اعتقاد كبير فوفد عليـه أولاد الشيـــخ

ونزلوا عليه لكي يسعى في تسريح والدهم وألحوا عليه فلم يجد بدا من اظهار الطاعة للسلطان والدخول في الجماعة ، فوفد على السلطان في جمع من وجوه قومه بهديتهم وبيعتهم ، فلما رأى باقي البربر الذين حالفوه من آيت ادراسن وجروان أنه قدم على السلطان ظهر لهم خيانته فنبذوا ذلك العهد وسارعوا الى بيعة السلطان وخدمته بأموالهم وأنفسهم ، فقدم عليه الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت ادراسن في وجوه قومه وأدى الطاعة ، ودخل في حزب الجماعة ، وعليه وعلى ابن الغازي كان يدور أمر البربر في ذلك الوقت ، فخذل الله فيما بينهم وجمع كلمتهم على السلطان من غير ضرب ولا طعن ولا ايجاف بخيل ولا رجل ، فقابلهم السلطان بغاية الاحسان لاسيما ابن الغازي فانه استخلصه وجعله عمدة رأيه وعيبة سيره حتى كان لا يقطع أمرا دونه بعد أن سرح له الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي رحمه الله

ثم ان السلطان زوج ابن الغازي باحدى حظايا عمه السلطان المرحوم وهي ابنة القائد عمر بن أبي ستة ، فعلا قدر ابن الغازي في الدولة بذلك واطمأن الى السلطان بعد أن كان يسايره على أوفاز ، وذهب معه الى مراكش مرتين حسبما نذكره بعد ان شاء الله

نهوض السلطان المولى عبد الرحمن لتفقد احوال الرعية ووصوله الى رباط الفتح

لما فرغ السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله من أمر الوفود والتهاني بحضرة فاس التفت الى النظر في أحوال الرعية وتثقيف أطراف المملكة ، فولى على فاس وصيفه أبا جمعة بن سالم الذي كان بوابا على الدار الكبرى بفاس الجديد ، ثم لما عزم على السفر عزله وولى مكانه ابن عمه سيدي محمد ابن الطيب ، ثم نهض من فاس الجديد بقصد تفقد الممالك فجعل طريقه على

بلاد سفيان ، وسار حتى وصل الى قصر كتامة وعسكر هنالك بالكدية الاسماعيلية ، وبها وفد عليه المولى عبد السلام ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله في جماعة من الاشراف والكتاب فيهم أبو عبد الله اكنسوس ، وكان المولى عبد السلام المذكور قد قدم من تافيلالت الى مراكش عقب وفاة والده بقصد أخذ البيعة على أهل مراكش لاخيه المولى عبد الواحد بن سليمان وكان قد بويع بتافيلالت وأعطوه صفقة أيمانهم ، فلما صادف المولى عبد السلام الامر قد تم للسلطان المولى عبد الرحمن واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه سقط في يده فأعرض عما جاء لاجله وتدارك أمره عند السلطان بالوفادة عليه والدخول في بيعته

قال أكنسوس : لما قدمنا على السلطان المولى عبد الرحمن من مراكش الى قصر كتامة أمر بادخالى عليه لشدة تشوفه الى أخبار السلطان المرحوم المولى سليمان : فدخلت عليه وجلست بين يديه نحو ساعتين ، وسألني عن كل شاذة وفاذة قال : ثم دخلت عليه بعد صلاة المغرب وسألني عن بقية الاخبار ثم ذكر أولاد عمه السلطان المرحوم وقال : والله لا يرون مني الا الخير ، ثم بعد يومين أو ثلاثة نهض الى رباط الفتح فاستقر بها ثم وفدت عليه قبائل الحوز ورؤساؤها فعيد هنالك عيد الفطر من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف ، ثم رجع الى فاس ومعه اعيان قبائل الحوز الذين وفدوا عليه ولما احتل بفاس قدم عليه عمه المولى موسى بن محمد مع جماعة من أهل مراكش وفيهم المولى عبد الواحد بن سليمان المبايع بسجلماسة فأكرمهم وأجلهم ولم يلم أحدا من شيعة المولى عبد الواحد ولكن عفا وصفح وقابل بالإحسان ، ثم ولى على مراكش ابن عمه المولى مبارك بن علي بن محمد وبعثه في صحبتهم فقدمها وتصرف في أمرها الى أن كان منه ما نذكره ، ثم أمر السلطان رحمه الله بشراء دار ابي محمد عبد السلام شقشاق الفاسي وكانت مجاورة لقبة المولى ادريس رضي الله عنه بينها وبين القيسارية ، ثم أمر بهدمها وزيادتها في مسجد المولى ادريس رضي الله عنه وجمع الصناع والعملة على ذلك فتأنقوا فيه ما شاءوا حتى جاء أحسن من المسجد

القديم ، وكان الذى تولى القيام على ذلك الشريف المولى الهاشمى بن ملوك البلغيثى فكمل ذلك فى مدة يسيرة على غاية من الابداع والاتقان ، وكتب الله أجر ذلك فى صحيفة السلطان ، وفى هذه المدة توفى الشيخ الاكبر العارف الاشهر أبو عبد الله سيدى محمد العربى بن احمد الدرقاوى رضى الله عنه ، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف ، ودفن يوم الثلاثاء بابى بريح من بلاد غمارة وقبره شهير ، وكان رضى الله عنه عجيب الحال كبير الشأن ورسائله موجودة فى أيدى الناس وله فيها نفس مبارك نفعنا الله به وبأمثاله

خروج السلطان المولى عبد الرحمن الى مكناسة ونقله آيت يمور الى الحوز ومسيره الى مراكش

لما سافر السلطان المولى عبد الرحمن السفرة الاولى الى رباط الفتح كان قصده أن ينظر فى أحوال الرعايا وماهى عليه حتى يكون على بصيرة فيما يأتى ويذر من أمرها ، ثم لما عاد الى فاس استعد الاستعداد التام بقصد تدويخ المغرب وتمهيد أقطاره ولمشعثه وتدارك رمقه اذ كانت الفتنة أيام الفترة قد أحالت حاله وكسفت باله ، وكان المولى مبارك بن على صاحب مراكش قد استولت عليه بطانة السوء وكثرت به الشكايات الى السلطان ، فعزم السلطان رحمه الله على اعمال السفر الى مراكش فخرج من فاس وقصد أولا مكناسة فلما دنا منها خرج العبيد الى لقائه بالاعلام مرفوعة على العصى وكانوا جماعة يسيرة فقال لهم السلطان رحمه الله : أين جند عبيد البخارى فقالوا : هذه البركة التى أسأرتها الفتنة وعلى الله ثم عليك الخلف ، فدخل السلطان رحمه الله مكناسة وتفقد بيت مالها فألفاه أنقى من الراحة ووجد العبيد على غاية من القلة والخصاصة حتى لقد باعوا الخيل والسلاح وأكلوا أثمانها ، فأنعشهم

وجدد رسمهم وقواهم بالخيل والسلاح والجرايات حتى صلح أمرهم وذهب فقرهم

قال صاحب الجيش : وحاصل الامر أن هذا السلطان رحمه الله وجد الدولة قد ترادفت عليها الهزاهز ، وصارت بعد حسن الشبيبة الى قبح العجائز ، قد تفانت رجالها وضاق مجالها ، وذلك من وقعة ظيان الى موت السلطان المولى سليمان ، فلما جاء الله بهذا السلطان المؤيد لم يجد بها الا رمقا قليلا وخيالا عليلا قد وهت دعائمها ، وأشرفت على الانهدام المفضى الى حالة الانعدام ، فأمده الله بضروب السعادة الخارقة للعادة ، فقام بأعبائها بلا مال ولا رجال والعناية من الله تساعده ، والفشل يباعده ، حتى أقام بناء الملك الاسماعيلى على أساسه ، ورد روحه ا لىالجسد بعد خمود أنفاسه ، ولما قضى رحمه الله أربه من مكناسة صرف عزمه الى آيت يمور وكانوا نازلين بجبل سلفات وبالولجة الطويلة من عهد السلطان سيدى محمد رحمه الله فعفوا وكثروا وأطغاهم نزولهم بتلك الارض العجيبة ، ذات المزارع الخصبة ، فأضروا بجيرانهم من أهل زرهون وأهل الغرب وغيرهم ، فأمر السلطان رحمه الله القائد أبا عبد الله محمد بن يشو المالكى العروى أن يحتال فى كيادهم والايقاع بهم ففعل وقبض على نحو الاربعمائة منهم وبعث بهم الى السلطان ، ثم نقلهم السلطان الى حوز مراكش وسار الى رباط الفتح فاحتل به وعقد لاخيه المولى المأمون بن هشام على مراكش وولاه عليها مكان المولى مبارك بن على

ثم خرج السلطان من رباط الفتح قاصدا مراكش فمر بقبائل الشاوية وساس أمرهم بما اقتضاه الحال ، وقتل الهاشمى بن العباس الزيانى ، وكان هذا قد قتل قائد الشاوية أبا اسحاق ابراهيم الوراوى احتال عليه بأن دعاه للاصطياد فلما خلا به رماه برصاصة فقتله بالموضع المعروف بتادارت قرب مديونة ، فأمر السلطان رحمه الله بالهاشمى أن تضرب عنقه بذلك الموضع وذلك بعد أن ولاه على قبيلته مدة ، ثم مر بقبائل دكالة فأوقع بالعونات وتقدم الى مراكش ، فلما دخلها بعث من جاء بمحمد بن سليمان الفاسى موقد

نار فتنة ابراهيم بن يزيد ، فأتى به من سجن الجزيرة فضربت عنقه ونصب رأسه على باب الخميس من مراكش ، وكان مسجونا معه أبوعبد الله محمد الطيب البياز الفاسى فأخرجه السلطان من السجن ومن عليه اذ لم يكن على مذهب ابن سليمان بل كان صاحب مروءة وجد فى الامور ولذلك استخدمه السلطان رحمه الله فجعله أمينا على مرسى طنجة أولا ، ثم ولاه على فاس ثانيا والله تعالى أعلم

نكبة ابن الغازى الزمورى وما آل اليه أمره

قد قدمنا أن الحاج محمد بن الغازى الزمورى كان قد بايع السلطان المولى عبد الرحمن وسعى فى سراح الشيخ أبى عبد الله الدرقاوى رضى الله عنه وان السلطان استخلصه وصاهره باحدى حظايا عمه المولى سليمان رحمه الله لما وصل معه الى مراكش ، ثم اضطرب كلام اكنسوس فى أن السلطان قبض على ابن الغازى فى أول قدمة قدمها معه الى مراكش أو بعدها ، وكان السبب فى ذلك ان ابن الغازى المذكور كانت له دالة على السلطان قد جاوزت الحد الذى ينبغى أن تسير به الرعية مع الملوك ، وكانت عادته أن يحضر بالغداة والعشى الى باب السلطان كغيره من كبار الدولة ووجوهها على العادة فى ذلك فلما كان فى بعض الليالى وهو راجع الى منزله رصده بعض العبيد بالطريق فرماه برصاصة فأخطأه فوصل الى منزله وقد ارتاب بالسلطان فمن دونه من أهل الدولة وحملته دالته على أن أطلق لسانه وأبرق وأرعد وتألى وأوعد ، وبلغ ذلك السلطان فأغضى له عنها ثم أفضى به التهور الى أن انقطع عن الحضور بباب السلطان غضبا على الدولة ، فأطال له السلطان الرسن كى يرجع فلم يرجع ، وبلغ السلطان أنه يحتال فى الفرار فعاجله بالقبض عليه وبعث به الى جزيرة الصويرة التى هى سجن أهل الجرائم العظام فسجن بها مدة ، ثم أصبح ذات يوم ميتا وذلك فى سنة أربعين ومائتين وألف على ما قيل

وفى هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان رحمه الله وبين جنس الصاردو وهى ثمانية وعشرون شرطا كلها ترجع الى تمام الصلح ودوام الامن والمجاملة فى التجارات وسائر أنواع المخالطات ، والثالث عشر منها يتضمن لزوم مراكب المسلمين أن تعمل الكرنتينة ان تعين موجبها عند دخول مرسى من مراسى الصاردو وكذلك هم أيضا

ولاية الشريف سيدي محمد بن الطيب على تامسنا ودكالة واعمالها

كان السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قد ولى ابن عمه الشريف سيدى محمد بن الطيب بن محمد بن عبد الله على فاس فأقام بها مدة ثم ولاه على قبائل تامسنا ودكالة بأسرها وفوض اليه النظر فى أمرها ، وكان سيدى محمد هذا ذا شدة وشكيمة على العصاة دوسرى البطش حجاجى السيف ، وكان قد اتخذ كلابا ضخاما تسميها العامة القناجر يوهم الناس أنه اذا عضب على أحد ألقاه اليها فتفترسه ، وكان ربما جيء اليه بالجانى فيقوم اليه ويباشر ذبحه بيده حتى لقد حز أصبعه فى ذبحه لبعض الجناة فقدم سيدى محمد هذا تامسنا وأوقع بأولاد حريز وقعة شنعاء ، فقبض على جماعة كبيرة منهم وضرب منهم نحو مائتى رقبة وهدم قصبة كريران الحريزى المسماة بمرجانة فتسامعت القبائل بسطوته فذعروا واقشعرت جلودهم لهيبته ، ثم زحف الى دكالة ومعه بعض مساجين أهل تامسنا فلما وصل الى شاطىء وادى آزمور أحضر أولئك المساجين فقطع البعض وقتل البعض ، ثم عبر الوادى ونزل بآزمور فازداد الناس رعبا منه وخشعت له قبائل دكالة بأسرها ، ثم تقدم الى الجديدة فاحتل بها وكانت يومئذ خربة لا زالت على الهيئة التى فتحت عليها أيام السلطان سيدى محمد رحمه الله وكانت تسمى قبل الفتح بالبريجة فلما فتحت وتهدم سورها بالمينى صار الناس يسمونها المهدومة فأمر سيدى محمد بن الطيب ببناء سورها وترميم ما تلثم منها وسماها الجديدة ، وتهدد

من يسميها بغير ذلك فسميت الجديدة من يومئذ ، وهو الذى بنى القبية الصغرى المقابلة لباب المسجد الجامع بها

ثم لما صفا للسلطان أمر هذه البلاد بسبب ابن الطيب وبسبب ما حدث في المغرب من الجوع الذى أهلك الناس وكاد يأتى عليهم بعثه الى الصحراء لتدويخ أهلها وجباية زكواتها وأعشارها ، فذهب اليها وعاد مخففا فولاه السلطان على وجدة فأقام بها يسيرا ورجع بلا طائل

شروع السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله فى غرس أجدال بحضرة مراكش

لما صفا للسلطان رحمه الله أمر المغرب شرع فى غرس آجدال غربى مراكش ، وهو بستان عظيم جدا يشتمل على جنات كثيرة معروفة بحدودها وأسمائها وأكرتها ، وتشتمل كل واحدة منها على نوع أو أنواع من الاشجار المثمرة النفاعة من زيتون ورمان وتفاح وليمون وعنب وتين وجوز ولوز وغير ذلك ، وكل نوع منها يغل ألوفا فى السنة بحيث أن غلة الليمون وحده تباع بخمسين ألفا وأكثر اذا كانت صالحة ، وفى خلال هذه الجنات من قطع الازهار والرياحين والبقول المختلفة اللون والطعم والرائحة والخاصية ما لا يأتى عليه الحصر حتى أن منها ما لا يعرفه جل أهل المغرب ولا رأوه قط لكونه جلب من أقطار أخرى ، وفى وسطه برك عظام تسير فيها القوارب والفلك وتصب فيه العيون كأمثال الانهار لسقى تلك الجنات وعليه من الارحاء شىء كثير وتلك البرك منها ما ضلعها الواحد يكون مائتين خطوة وأقل وأكثر ، وفى داخله أيضا من المتنزهات الكسروية والقباب القيصرية والمقاعد المروانية ما يستوقف الطرف ويستغرق الوصف مثل دار الهناء ، والدار البيضاء ، والصالحة ، والزاهرة وغير ذلك . ويتصل به جنان

رضوان الفائق بحسنه وقبابه ومقاعده البهية على ذلك كله ، والحاصل أن هذا البستان جنة من جنان الدنيا يزرى بشعب بوان وينسى ذكر غمدان الى جنة المنارة والعافية وغير ذلك من منتزهات مراكش العجيبة التى أنشأتها هذه الدولة فى ابان الاقبال والشبيبة .

ولما شرع السلطان رحمه الله فى غرس هذا البستان جلب له العين الاتية من بلاد مسفيوة المسماة بتاسلطانت وهى من أعذب العيون ماء وأخفها وأنفعها للبدن ، وكانت مسفيوة متغلبة على هذه العين من لدن دولة السلطان سيدى محمد بن عبد الله يعمدون اليها بالليل فيفرقونها سواقى على جناتهم ومزارعهم فكان ذلك دأبهم الى أن جاء السلطان المولى سليمان فأعياه أمرهم فيها فأقطعهم اياها على ألف مثقال يؤدونه كل سنة فلما جاء السلطان المولى عبد الرحمن انتزعها منهم رغما عليهم وجاء بها تشق الوهاد والربى حتى ألقت جرانها بأجدال السعيد ، وعم نفعها وريها القريب منه والبعيد ، وفى ذلك يقول الوزير أبو عبد الله محمد بن ادريس رحمه الله :

وردت وكان لها السعود مواجها ... والحسن مقصورا على مواجها
وبدت طلائع بشرها من قبلها ... كالشمس طالعة لدى أبراجها
وتسير ما بين الاباطح والربى ... ترمى فريد الدر من أمواجها
وتصوغ من صافى النضار سبائكا ... حلت بها الاعطاف من أثباجها
هبطت اليك من الجبال وطالما ... تعبت ملوك الارض فى اخراجها
وأتتك راغبة تجر ذيولها ... وتفيض غمر النيل من أفواجها
تنساب مثل الافعوان وتنثنى ... كالغصن بين وهادها وفجاجها
خطب الملوك نكاحها فتمنعت ... وأتتك واهبة حلال زواجها
فلتهنك الخود الرفيع فخارها ... وليهنها أن صرت من أزواجها
حمراء عباسية بدوية ... نشرت ذوائبها على ديباجها
وافتك وافدة وقد صبغ الحيا ... وجناتها وجرى على أدراجها
فكأنها بلقيس جاءت صرحها ... لكنه صرح بغير زجاجها
عرفت أناملك الشريفة أبحرا ... غرقت بحار الارض فى عجاجها

فأتتك طالبــة الامان لنفسها لتنال بعض الطيب مـن ثجاجهـا
لبتــك اذ سمعت نداك وأقبلـت مرهوبة تستن مـــن ازعاجها
ونزعتهـا بالقهر مـن غصابها والسابقون رضوا ببعض خراجهـا

واعلم أن هذه الاخبار التى سردناها مـــن أول هذه الدولـة السعيدة الى هنا تبعنا فى جلها أبا عبد الله أكنسوس ، وقد ساقها رحمه الله مجــردة عن التاريخ الذى هو المقصود بالذات من الفن ، ونحن لما لم نعثـر فـــى الوقت على ما يحقق لنا تواريخها رتبناها بحسب ما أدى اليه الفكر والروية، وأثبتناها لئلا تذهب فائدتها بالكلية ، وعلى كل حال فهى فى حدود الاربعين من مائة التاريخ والله أعلم .

ولاية القائد ابى العلاء ادريس بن حمان الجرارى على وجدة واعمالها

قد قدمنا ان السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله كان قد ولى ابــن عمه سيدى محمد بن الطيب على وجدة ورجع عنها بلا طائل ، وكانت ولاية هذا الثغر عند السلطان من أهم الولايات وأخصها بمزيد الاعتناء لبعدها عن دار الملك ومتاخمتها لمملكة الترك ، فكانت ثغرا من الثغــور ، ولكثرة قبائلها واختلاف آراء أهلها وتعدد عصبياتهم فى العرب والبربر ، ففكر السلطـــان رحمه الله فيمن يكفيه هذا المهم ويسد له هذا المسد فوقـع اختياره عـــلى القائد الانجد أبـى العلاء ادريس بن حمان بـــن العربى الوديـــى الجرارى فرماها به وجعل أمرها اليه وعول فى شأنها عليه ، وكان هـــذا الرجـــل نسيج وحده وقريع دهره فى جودة الرأى وادارة الامور عـــلى وجههـــا واجرائها على مقتضى صوابها ومحبة السلطان ونصحه فولاه عليها فى أوائـــل سنة ثلاث وأربعين ومائتين والف ، فقام بأمرها أحسن قيـام ، واستوفـى جباية أهل المداشر منها والخيام ، ثم حمله نصحه وصـدق خدمتـــه على أن يستأذن السلطان فى أن يكون يكاتبه بجميع ما يحدث فى تلك البلاد مـــن

الامور الداخلة في الدولة والخارجة عنها ليكون السلطان على بال من ذلك الثغر ، فاستأذن في ذلك بواسطة الوزير أبي عبد الله بن ادريس فكان من جواب الوزير له أن قال حسبما وقفت عليه بخطه : انى أخبرت سيدنا المنصور بالله بما كنبت في شأنه فأعجبه ذلك وقال : لا بأس به وليكن خفيا من غير شعور أحد ليطلع سيدنا على الامور ويكون على بصيرة فيها فلا تقصر في ذلك واجتهد في اصلاح ما ولاك وأعظم ذلك وأهمه أمان الطريق ، وخمود الفتنة ، حتى لا يصل من تلك الناحية الا الخير فأنت من فضل الله ذو رأى وبصيرة بالامور وخصوصا تلك النواحي والله يوفقك ويسددك ، وهذه النواحي بخير وعافية وفي نعم من الله وافية قد نزل فيها المطر الغزير وكثر الخصب وحرث الناس الحرث الكثير ، وسيدنا بمكناسة الزيتون ولا ما يشوش البال غير أن والدته المقدسة صارت الى عفو الله ورحمته وذلك قبل تاريخه بشهر ونحن على المحبة والسلام ، في الخامس والعشرين من جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف ، محمد بن ادريس لطف الله به انتهى لفظ الكتاب المذكور .

وفي هذه المدة كان السلطان رحمه الله قد استعمل الشيخ أبا زيان ابن الشاوى الاحلافى على تازا وأعمالها وأوصاه بالتعاون على أمر الخدمة السلطانية بالقائد ادريس فكانا في ادارة الامور بتلك النواحي كفرسى رهان ، ولكن التبريز انما هو للقائد ادريس ، ولما دخل رمضان من السنة المذكورة عزم السلطان رحمه الله على المسير الى بلاد الشرق وجدة وأعمالها للوقوف على تلك التخوم بنفسه والنظر في أمورها برأيه اذ لم يكن وطئها قبل ذلك ، فاستنفر القبائل لحضور عيد الفطر والنهوض اليها ، ولما حضر العيد وفد على السلطان جماعة من بنى يزناسن وعرب آنقاد فباحثهم رحمه الله عن حال بلادهم ، فشكوا قلة الخصب فصده ذلك عن المسير اليهم ووعدهم بأنه سيطأ أرضهم من العام القابل في أول يناير ، ثم صرف رحمه الله وجهته تلك الى التطواف على مراسى المغرب والنظر في أمورها واحياء مراسم الجهاد بها ، فخرج من مكناسة منتصف شوال من السنة أعنى سنة

ثلاث وأربعين ومائتين وألف ، فمر بأرضات من أعمال وازان وصار الى تطاوين ثم الى طنجة ثم آصيلا وزار وليها أبا عبد الله محمد بن مرزوق وتبرك به ثم مر بالعرائش وهكذا تتبع الثغور ثغرا ثغرا الى آسفى ، وفى أثناء ذلك ورد عليه الخبر بانتقاض الشراردة على المولى المأمون صاحب مراكش وخروجهم عن الطاعة وافسادهم السابلة ونهبهم الرفاق ، وأبدأوا فى ذلك وأعادوا حتى كانوا يصلون الى جنات مراكش ، فسدد السلطان رحمه الله قصده نحوهم وكان من أمره معهم ما نذكره .

فتح زاوية الشرادى والسبب الداعى الى غزوها

قد قدمنا ما كان من أمر المهدى بن محمد الشرادى الزرارى مع السلطان المولى سليمان رحمه الله بما فيه كفاية ، ثم لما بويع السلطان المولى عبد الرحمن بايعه المهدى فى جملة الناس ، ولما قدم السلطان مراكش قدمته الاولى لقيه الشراردة فى خمسمائة فارس بمشرع ابن حمى مؤدين الطاعة ففرح السلطان بهم وأكرم وفادتهم ، ولما عزموا على الرجوع كان فى جملة ما قال لهم السلطان رحمه الله : «ان ما فات قد مات ، وما نهب فى أيام الفتنة فهو هدر ، ومن الآن من فعل شيئا يخاف على نفسه.» فرجع الشراردة الى بلادهم وعيد السلطان بمراكش عيد المولد فحضرت الوفود وحضر الشراردة فى جملتهم وساقوا للسلطان خمسة عشر جملا من الكتان وخمسة أحمال من الملف وأربعة آلاف مثقال عينا مما كانوا نهبوه من صاكة الصويرة قبيل وفاة السلطان المولى سليمان رحمه الله حسبما أشرنا اليه قبل ، فكان من تمام احسان السلطان اليهم وتألفه اياهم أن قال لهم : «افرضوا لى مائتى فارس منكم تذهب الى درعة ، وهذا الكتان والملف هو كسوتهم والمال صائرهم.» ففعلوا ، وكساهم السلطان وأنعم عليهم ، ثم لما ولى أخاه المولى المأمون على مراكش مرضوا فى طاعته ودعا المهدى تهوره الى أن شكاه الى

السلطان وهو بمكناسة يومئذ ، ويعتد عليه بأنه يأخذ منهم الزكوات والاعشار على غير وجهها الشرعى ، وأنه ولى عليهم أربعة عمال أو خمسة عوض عامل واحد كان يتولى عليهم ، فأغضى السلطان عن ذلك وبالغ فى الانة القول له فى كتابه ووعده بأنه اذا وصل الى مراكش يشكيه من أخيه ، وفى أثنـاء ذلك وقبل وصول كتاب السلطان اليه أغرى اخوانه بالخروج عـن طاعـة السلطان ، والاشتغال بما يسخط الله ويرضى الشيطان ، فانبثت خيولهم فى الطرقات ومخروها مخرا وانتسفوها نسفا ، وعمدوا الى قوادهم الذين ولاهم المولى المأمون عليهم فقبضوا عليهـم وأودعوهم السجن وانتهبوا دورهم ، ووصل المسافرون والتجار الى باب السلطان مجردين عراة يشكون ما دهمهم من أمر الشراردة ، وتكاثر عليه شذاذهم ، فحينئذ استأنف السلطان جده وأرهف حده وكتب الى أخيه المولى المأمون باستنفار قبائل الحوز وجمعها عليه حتى يقدم عليه ، وسار السلطان فى جيش العبيد والودايا وآيت ادراسن وزمور وعرب بنى حسن وبنى مالك وسفيان ، وكتب الى الشاوية ودكالـة أن تكون خيلهم معدة حين يمر بهم ، وكان المهدى قد عظـم ناموسه وتمكن من جهلة قومه وكاد يتجاوزهم الى غيرهم حتى صار يعرض أو يصرح بأنـه المهدى المنتظر ، وكان السبب الاقوى فى طغيانه وطغيان قومه ما اتفق لـه فى هزيمة السلطان المولى سليمان رحمه الله فظن المهدى وشراردته أن لا غالب لهم من الله ، ولما برز السلطان رحمه الله من رباط الفتح لقيه ركب الحجاج الذين انتهبهم هشتوكة والشياظمة الذين بأحواز آزمور ، وكانت العادة يومئذ بالمغرب أن ركاب الحاج تاتى من آفـاق المغرب فتجتمع بفاس ومنها يخرج الركب على الهيئة المعهودة فى ذلك الزمان ، فلما وصل هؤلاء الحجاج من أهل السوس وغيرهم الى الشياظمـة وهشتوكـة انتهبوهم وجردوهم من المخيط والمحيط ، فسمع السلطان رحمه الله شكواهم وامتعض لانتهاك حرمتهم وزحف الى هؤلاء المفسدين فأوقع بهم وقعة شنعاء بالموضع المعروف بفرقالة من أعمال آزمور حتى كانوا يلقون أنفسهم فى البحر طلبا للنجاة بعد أن أثروا فى المحلة أول النهار ، ثم كانت الكـرة عليهم وحكم

السلطان السيف في رقابهم وامتلأت أيدي العسكر من أثاثهم وماشيتهم ؛ وكانت هذه الوقعة طليعة الفتح ومقدمة الظفر ، ثم عبر الى آزمور ومنها الى الجديدة ، ثم سار مع الساحل حتى وصل الى آسفي فزار الشيخ أبا محمد صالح رضي الله عنه وعطف الى الزاوية الشرادية فبغتها وطلعت عليها راياته المنصورة بالله مع الصباح ولم يعرج على مراكش وقبل نزول الجيش وضرب الاخبية أنشبت الحرب معهم فتقاتلوا وتحاجزوا مع الظهر وكان الزمان زمان مصيف ودامت الحرب سبعة أيام ، ونصب عليهم السلطان المدافع والمهاريس العظام ، وفي اليوم الخامس من تلك الايام كان عيد المولد الكريم يوم الاربعاء من سنة أربع وأربعين ومائتين وألف فأراد السلطان رحمه الله أن يعفي الناس من الحرب ذلك اليوم فحمل الشراردة طغيانهم وبغيهم على أن تقدموا للجيش وأنشبوا الحرب فأمر السلطان بالزحف اليهم والنكاية فيهم ، وكان المعلم الاكبر أبو عبد الله محمد بن عبد الله ملاح السلاوي حاضرا في هذه الوقعة فتقدم اليه السلطان بالوصاة بالجد والاجتهاد في الرمي فرمى عليهم في ذلك اليوم مائتين وثمانين بنبة كلها في وسط الزاوية تتفرقع عند نزولها فتأتي على ما جاورها من جدار وغيره حتى شاهدوا في ذلك اليوم الموت الاحمر وكانوا هم أيضا يرمون بالكور والبنب من المدافع والمهاريس التي استولوا عليها في محلة السلطان المولى سليمان ، ثم لما كان عشي الجمعة السابع من أيام الحرب افترقت كلمتهم وعزم المهدي على الفرار فقال له أصحابه : كيف تفر وتتركنا وأين ما كنت تعدنا ؟! فقال لهم : أما أنتم فالذي أورثكم أسلافكم هو الخدمة مع السلطان فلا تستنكفوا منها ، وأما أنا فالذي عندي وسمعته من آبائي أن الحرب تدوم على هذه القرية سبعة أيام ثم يستولي عليها السلطان الذي يجيء من ناحية البحر وهو هذا ، في كلام آخر تكهن لهم فيه واعتقد الجهلة صدقه بعد أن أتلفوا عليه نفوسهم وأموالهم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولما جن الليل ركب فيما قيل على حمار وركب معه شرذمة من أصحابه نحو العشرين فارسا فشيعوه الى الموضع المعروف بتيزكي فودعهم وذهب الى السوس بعد

أن سفك الدم الحرام وانتهب المال الحرام وملا صحيفته من الآثام ، نسأل الله العفو والعافية ، ولما فر المهدى عنهم تفرقوا شذر مذر وباتوا يتحملون بنسائهم وأولادهم الى منجاتهم والذين صعب عليهم الخروج اجتمعوا وساروا الى القواد الاربعة فسرحوهم ورغبوا اليهم فى الوساطة عند السلطان ، فأصبحوا على أطراف المحلة يستأذنون على المولى المأمون ، فأذن لهم ودخلوا عليه وشفعو فيمن بقى منهم وطلبوا الامان فأمنهم ، ثم تقدموا الى السلطان فاستأذنوا فأذن لهم ودخلوا وأخبروا بما عقد لهم المولى المأمون من الامان فأمضاه لهم ، ثم أمر السلطان بجمع الشراردة الذين بقوا بالقصبة فجمع له منهم نحو الالفين وعاثت الجيوش فى بيوتهم وأمتعتهم .

وقيل ان السلطان رحمه الله لم يؤمنهم ولما قبض عليهم عزم على تحكيم السيف فى رقابهم فاستفتى العلماء فيهم فتحاموا الافتاء باراقة الدم حتى أن منهم من أفتى وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن المرابط المراكشى بأنهم تابوا قبل القدرة عليهم ، فتوقف السلطان رحمه الله عن قتلهم ، وكان وقافا عند الحق دائرا مع الشرع حيث دار ، ثم أمر رحمه الله بالاحتياط على عيال المهدى وأولاده فاحتيط عليهم فجىء بهم اليه وبعثهم الى مكناسة فأنزلوا بدار القائد محمد بن الشاهد البخارى الذى هلك فى وقعة آعليل مع السلطان المولى سليمان ، وأمر السلطان بسور القصبة فهدم ابرارا لقسمه وحيزت المدافع والمهاريس التى كانت منصوبة عليه ، ولما انقضى أمر الحرب وتم الفتح هلك المعلم محمد ملاح نفطت فيه بنبة فقتلته وقتلت جماعة معه ، فوقف السلطان عليه بنفسه حتى أقبر وأحسن الى أولاده بعد ذلك . ورأيت بخط الوزير ابن ادريس في بعض مكاتيبه ما نصه : «واعلم ان الله سبحانه قد فتح علينا الزاوية الشرادية وأهلك أهلها الظالمين ، ولم تبق لهم باقية ولا زالت العساكر مقيمة على هدمها وتخريبها ، وقد قبض منهم على أكثر من ستمائة رجل وربحت الناس بما وجدت فيها من الاثاث والذخائر والانعام » اه .

ثم أن السلطان رحمه الله فرق مساجين الشراردة فسجن بعضهم برباط

الفتح ، وبعضهم بمكناسة ، وبعضهم بفاس ، ثم بعد مضى نحو السنة سرحهم ونقلهم الى بسيط آزغار وجمع اخوانهم من القبائل فضمهم اليهم ولا زالوا موطنين به الى الآن ، وأما المهدى فانه ذهب الى السوس وانتهى الى آيت باعمران من ولتيتة فنزل على مرابطها أبى عبد الله محمد آعجلى الباعمرانى واستمر عنده ثلاث سنين وضاقت عليه الارض بما رحبت ، ثم بعث من شفع له عندأمير المؤمنين فقبل السلطان شفاعته وجاء المهدى فى قيده الى أن دخل على السلطان بمراكش وبكى أمامه وتضرع فسامحه السلطان ، ثم بعثه الى مكناسة فاجتمع باولاده وبعد مدة يسيرة ولاه السلطان على اخوانه

قال اكنسوس : عاملهم بالاساءة فعادت محبتهم له عداوة وضجوا الى السلطان منه فعزله ، ثم حج المهدى باذن السلطان ورجع فولاه أيضا فلم يقبلوه ، ثم سجن ثم سرح وتقلبت به الاحوال وتأخرت وفاته الى أوائل شوال من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فى أول دولة سلطان العصر وامام النصر أمير المؤمنين المولى الحسن بن محمد رضى الله عنه ، ولما تم فتح الزاوية المذكورة قال شعراء العصر فى ذلك فمنهم الفقيه الاديب أبو عبد الله اكنسوس قال :

بشائر لا تحيط بها الشروح ... كأن سميعها فنن مروح
سقى ربع البشير بها غمام ... يباكرها هتون أو يروح
تفديه المحافل وهو يشدو ... فتوح فى مضمنها فتوح
وتأمل أن تقبله الغوانى ... تذيل له المباسم أو تبيح
بشائر كاد يسمعها دفين ... ويسرى فى الجماد بهن روح
شفى المولى المؤيد كل صدر ... به من قبل وقعتها جروح
وأدرك ثار عصبته وأضحى ... لعزة قدره شرف صريح
لقد حسم الفساد بكل أرض ... فساد به لنا الدين السميح
وزر على زرارة كل خزى ... تشق له المجاسد اذ تنوح
وقد كانت تصر على ازورار ... وكانت لا ينهنهها قبيح
ومن كانت مراكبه جماحا ... فحقا حين تصرعه الجموح

أتيح لهم لحينهم جهول ... غوى للضلال له جنوح
يقودهم الى العصيان سرا ... ويظهر انه البر النصوح
يحدثهم اذا ما حم خطب ... حديثا كان مصدره سطيح
هو الدجال فى سمت وفعل ... فمن يدعوه مهديا وقوح
فأهلكه الامام فكان عيسى ... كذا الدجال يهلكه المسيح
فصير دار منعته فلاتا ... على أطلالها البوم السنيح
وفر عن الذمار على حمار ... عليل العرض جؤجؤه صحيح
فيالؤم الذليل فلا وهين ... فيعذر بالفرار ولا جريح
وخير من جباة فى هوان ... يبوء به الفتى موت مريح
أيطمع فى النجاة فلا نجاة ... سيدركه الهزبر المستبيح
اذا كان الشراب له بحارا ... تخوض اليه سلهبة سبوح
ستدركه العزائم من امام ... تدك له المعاقل والصروح
امام قد أعاد لنا سرورا ... وجاد لنا به الزمن الشحيح
أعز الله ملك بنى على ... بصولته وتم له الوضوح
وجرد من حلالته حساما ... يزيل به الضلالة أو يزيح
وقد كان الخلائق فى ظلام ... فلاح على الخلائق منه بوح
وأصبحت الاباطح باسمات ... وكان على مناظرها كلوح
أعز معود للنصر ساع ... الى العلياء مسعاه نجيح
يخاطر فى منال العز دأبا ... برأى كل مدركه رجيح
فرايات السعود عليه نشر ... وساحات الفخار لديه جوح
أبا زيد فأنت لنا ملاذ ... وجاهك فى المهم لنا فسيح
فقد زانت مآثرك الليالى ... ولاح لعدلك الوجه المليح
وهذا الدهر كالطوفان موجا ... وطاعتك السفين وأنت نوح
وأنت خليفة الرحمن من لا ... تؤمنه فمشربه نشوح
كما أن الشبانة حين زاغت ... وهب لها من الطغيان ريح
عصفت عليهم بالبأس تزجى ... كتائب كالسحاب اذا تلوح

فألقيت الجران على ذراهم　　بجيش كلهم بطل مشيح
فجاء العفو منك وهم ثلاث　　أسير أو كسير أو ذبيح
وقد قسمت بلادهم بعدل　　ودورهم كما قسم الوطيح
وقد نظمت مكايدهم قديما　　بني سعد وزيدان نطيح
فظنوا آل اسماعيل يرنو　　لغير الحزم طرفهم الطموح
وما علموا بأنكم سيوف　　لحدكم نجيعهم سفوح
أبا زيد اذا تبقى عليهم　　بصفح ربما ندم الصفوح
فلا تحلم فان الجرح يكوى　　طريا بالمحاور أو يقيح
فلا زالت بك الدنيا عروسا　　ومجدك من مفارقها يفوح

ومن ذلك قول بعضهم ولعله الفقيه أبو محمد عبد الله الديماني قال :

بشرى تقر بأعين الايمان　　كالوصل ينسخ دولة الهجران
جاد الزمان بها على مقداركم　　فتقا صرت عنها خطا الاذهان
أين المفر لمن عنا عن أمركم　　أترى البغاث تفوت ما لعقبان
الامر أمر الله غير منازع　　لاح الصباح لمن له عينان
يامن يطالب أمرهم بدلائل　　أتطالب البرهان بالبرهان
ان كنت تجهل فالحسام معلم　　يشفى البرىء به ويشقى الجانى
كم من غوى قد عتا عن أمرهم　　كزرارة فمضى الى الخسران
أين المفر لمن عتا عن أمركم　　يوم الكفاح اذا التقى الجمعان
لم يمنع الاعداء منهم معقل　　لو أنهم صعدوا الى كيوان
لكنهم باءوا بأخسر صفقة　　فكأنهم غصبوا أبا غبشان
جيش تسد وفوده مسرى الصبا　　وتهد وطأته ذرى ثهلان
يامالكا ملأ الوجود محاسنا　　لا تختفى عن أعين العميان
أجريت بين المعتفين مكارما　　يسلو الغريب بها عن الاوطان
لو قيل للغيث اعترف لم يعترف　　الا بفضل نداكم الهتان
انسان عين الدهر أنت وانما　　تكميل شكل العين بالانسان
ذكراك بالافواه تعذب كالما　　وتخف كالبشرى على الآذان

أيقظت جفن الحق من اغفائـه ... وأقمت ميلـة عطفه الكسلان
ألقى لـك الزمن العصى زمـامه ... وعنا لطاعة أمـرك الثقـلان
فالدهر دونك دافع ومدافـع ... وصروفه لكم من العبـدان
فاذا أشرتم فى الزمان لمقصـد ... كان القضاء لكم مـن الاعوان
أخلصت للرحمن فى طاعاتـه ... فلذا دعيت بعابـد الرحمـن
ألقيت رحلى فى ذراك مخيما ... فجريت فى الامال طوع عنان
وتركت أوطانى وجئت وانما ... من فرط حبك غبت عن أوطانى
ياليت قومـى يعلمون بأننـى ... من جودكم أرد الفرات الثانى
لازلتـم فى أسعد مبسوطـة ... مقبوضـة عنهـا يـد الحدثـان

واستمر السلطان مقيما بمراكش مدة طويلـة وبعث أخـاه المولى المأمون بن هشام لقطر السوس فجباه

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ففـى شعبان منها عقد السلطان الصلح مع جنس النابريال ويقال له استرياك وهى اثنا عشر شرطا مضمنها المخالطة بالبيع والشراء وغير ذلك مع الامان والاحترام من الجانبين والآخر منها مضمنه الصلح الدائم على هذه الشروط لا يفسده أمر يحدث بعده ولا يقع فيه زيادة ولا نقصان ، ثم حدثت الفتنة عقب هذا بيسير علـى ما نذكـره

هجوم جنس النابريال على ثغر العرائش والسبب فى ذلك

قد قدمنا ان السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قـد طاف فى آخر سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف على ثغـور المغرب ومراسيه وانـه أراد احياء سنة الجهاد فى البحر التى كان أغفلها السلطان المـولى سليمان رحمه الله ، وأمر أعنى المولى عبد الرحمن بانشاء أساطيل تضم الى ما كان قد بقى من آثار جده سيدى محمد بن عبد الله وأذن لرؤساء البحر من أهـل

العدوتين سلا ورباط الفتح أن يخرجوا فى القراصين الجهادية للتطواف بسواحل المغرب وما جاورها ، فخرج الرئيسان الحاج عبد الرحمن باركاش والحاج عبد الرحمن بريطل ، فصادفوا بعض مراكب النابريال فاستاقوها غنيمة اذ لم يجدوا معها ورقة الباصبورط المعهودة عندهم ، وعثروا فيها على شيء كثير من الزيت وغيرها ، وكان بعضها قد جيء به الى مرسى العدوتين وبعضها الى مرسى العرائش ، فهجم النابريال على مرسى العرائش بستة قراصين يوم الاربعاء الثالث من ذى القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ، ورمى عليها من الكور شيئا كثيرا من الضحى الى الاصفرار ، وعمد في أثناء ذلك الى سبعة قوارب فشحنها بنحو خمسمائة من العسكر ونزلوا الى البر من جهة الموضع المعروف بالمقصرة وتقدموا صفوفا قد انتشب بعضهم فى بعض بمخاطيف من حديد لئلا يفروا ومشوا الى مراكب السلطان التى كانت مرساة بداخل الوادى وهم يقرعون طنابيرهم ويصفرون ومراكبهم التى فى البحر ترمى بالضوبلى مع امتداد الوادى لتمنع من يريد العبور اليهم فانتهوا الى المراكب وأوقدوا فيها النار وقصدوا بذلك أخذ ثارهم فيما انتزع منهم فلم يكن الا كلا ولا حتى انثال عليهم المسلمون من كل جهة من أهل الساحل وغيرهم وعبر اليهم أهل العرائش وأحوازها سبحا فى الوادى وعلى ظهر الفلك الى أن خالطوهم وفتكوا فيهم فتكة بكرا ، وكان هنالك جملة من الحصادة يحصدون الزروع فى الفدن فشهدوا الوقعة وأبلوا بلاء حسنا حتى كانوا يحتزون رؤوس النابريال بمناجلهم ، وقد ذكر منويل هذه الوقعة وبسطها وقال : ان النابريال قتل منهم ثلاثة وأربعون سوى الاسرى وتركوا مدفعا واحدا وشيئا كثيرا من العدة وأفلت الباقى منهم الى مراكبهم وذهبوا يلتفتون وراءهم .

واعلم أن هذه الوقعة هى التى كانت سببا فى اعراض السلطان المولى عبد الرحمن عن الغزو فى البحر والاعتناء بشأنه ، فانه رحمه الله لما أراد احياء هذه السنة صادف ابان قيام شوكة الفرنج ووفور عددهم وأدواتهم البحرية وصار الغزو فى البحر يثير الخصومة والدفاع والتجادل والنزاع

ويهيج الضغن بين الدولة العلية ودول الاجناس الموالية لهـا حتى كـاد عقد المهادنة ينفصم ، وأكد ذلك اتفـاق استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وهو ما هو فوجم السلطان رحمه الله وأعمل فكره ورويته فظهر لـــه التوقف عن أمر البحر رعيا للمصلحة الوقتية ولقلة المنفعة العائدة من غـزو المراكب الاسلامية ، وانضم الى ذلك اعلان الدول الكبار من الفرنج مثل النجلـيز والفرنسيس بأن لا تكون المراكب الا لمن يقوم بضبط قوانين البحر التـى يستقيم بها أمره وتحمد معها العاقبة وتدوم بحفظها المودة عـلى مقتضـى الشروط ، ومن مهمات ذلك ترتيب القناصل بالمراسى التى تريـد الـدولة دخول مراكبها اليها وتجارتها فيها أى دولة كانت ، ومن هذه المهمات ما قد لا يساعد عليه الشرع أو الطبع مثل الكرنتينات وما يترتب عليها الى غـير ذلك مما فيه هوس كبير ، فاشتد عزم السلطان رحمه الله على ترك ما يفضى الى ذلك وتأكد لديه اهماله لتوفر هـذه الاسباب ، ولعمرى أن تركه لمصلحة كبيرة لمن أمعن النظر فيها ، وما يعقلها الا العالمون ، وأمـا فتـنة النابريال هذه فانها تفاصلت بواسطة النجليـز حيث وجـه باشدوره مـع باشدور النابريال فقدما على السلطان رحمه الله مكناسة فى شـهر ربيـع الاول سـنة سـت وأربعين ومائتيـن وألف

استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وما ترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان فى بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله

كان استيلاء طاغية الفرنسيس على ثغر الجزائر فى آخر المحرم فاتح سنة ست وأربعين ومائتين وألف ، وكان السبب فى ذلك أن أتراك الجزائر كانوا يومئذ مع الفرنسيس على طرفى نقيض قد تعددت بينهم الوقعات بـرا وبحرا وكثرت بينهم الذحول والترات ، وكان الترك يؤذونهم أشد الاذاية

وأمير الجزائر يومئذ واسمه أحمد باشا قد أمر أمره وأراد الاستبداد على الدولة العثمانية ، وربما شكا طاغية الفرنسيس الى السلطان محمود العثمانى فقال له : شأنك واياه فهجم الفرنسيس فى العدد والعدد على ثغر الجزائر فاستولى عليه بعد مقاتلات ومجاولات فى التاريخ المتقدم ، وكان السلطان المولى عبد الرحمن يومئذ بمراكش فاتصل به خبر الجزائر فى أوائل صفر فنهض الى مكناسة فى التاريخ المذكور ، ولما وقع بأهل الجزائر ما وقع اجتمع أهل تلمسان وتفاوضوا فى شأنهم واتفقوا على أن يدخلوا فى بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله فجاءوا الى عامله بوجدة القائد أبى العلاء ادريس بن حمان الجوارى وعرضوا عليه أن يتوسط لهم عند السلطان فى قبول بيعتهم والنظر لهم بما يصلح شأنهم ويحفظ من العدو جانبهم ، ثم عينوا جماعة منهم للوفادة على السلطان تأكيدا للطلب واستعجالا لحصول هذا الارب ، فقدموا على السلطان بمكناسة غرة ربيع الاول من السنة المذكورة فأكرم السلطان وفادتهم وأجل مقدمهم ، ولما صرحوا له عن مرادهم توقف فى ذلك رحمه الله وكان هواه الى قبولهم أميل الا أنه أراد أن يبنى ذلك على صريح الشرع كما هى عادته فاستفتى علماء فاس فأفتى جلهم بنقيض المقصود ورخص له بعضهم فى ذلك ، فأخذ السلطان رحمه الله بقول المرخص ، مع أن أهل تلمسان لما بلغهم فتوى أهل فاس كتبوا الى السلطان فى الرد عليهم ما نصه :

ليعلم سيدنا قطب المجد ومركزه ، ومحل الفخر ومحرزه ، أساس الشرف الباذخ ومنبعه ، وبساط الفضل الشامخ ومجمعه ، السلطان الاعظم الامجد الافخم ، نجل الملوك العظام سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن هشام أبقى الله سدنا للمسلمين ذخرا ، ومنحه مودة وأجرا ، أن فتوى ساداتنا علماء فاس مبنية على غير أساس ، لانهم اعتقدوا أن فى عنقنا للامام العثمانى بيعة ، وهذا لو صح لكان علينا حجة ، وليس الامر كذلك وانما له مجرد الاسم هنالك ، وعامل الجزائر انما كان متغلبا ، وبالدين متلاعبا ، فأهلكه الله بظلمه وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه ، ان الله يمهل على الظالم

حتى يأخذه فاذا أخذه لم يفلته ، ويدل على تغلبه واستقلاله ، عدم وقوفه عند أمر العثمانى وامتثاله ، بل لا يكترث به أصلا ، ولا يتبع له قولا ولا فعلا ، كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارى صلحا فلم يقبل له قولا ولا نصحا ، وطلب منه بعض الاموال ليستعين بها على ما حل به مع النصارى من الاهوال ، فامتنع غاية الامتناع ، ولم يمكنه من شبر منها فضلا عن الباع، حتى أخذها العدو الكافر ، وهذا جزاء كل فاسق فاجر ، مال جمع من حرام ، سلط الله عليه الاعداء اللئام ، وهذا كله من هذا المتغلب متواتر مشاهد بالعيان ، مستغن عن اقامة الدليل والبرهان ، الناس كلهم عبيد الله واماؤه والسلطان واحد منهم ملكه الله أمرهم ابتلاء وامتحانا ، فان قام فيهم بالعدل والرحمة والانصاف والصلاح مثل سيدنا نصره الله فهو خليفة الله فى أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة عند الله تعالى ، وان قام فيهم بالجور والعسف والطغيان والفساد مثل هذا المتغلب فهو متجاسر على الله فى مملكته ومتسلط ومتكبر فى الارض بغير الحق ومتعرض لعقوبة الله الشديدة وسخطه ، هذا وعلى فرض تسليم أن للعثمانى فى عنقنا بيعة ، فلا تكون علينا حجة ، لانه تباعد علينا قطره ، فلم يغن عنا شيئا ملكه ، لما بيننا وبينه من المفاوز والقفار والبحار ، والقرى والمدن والامصار ، وربما قرب محله من جهة البحر لكن منعه الان من ركوبه الكفار ، على أنه ثبت بتواتر الاخبار البالغة حد الكثرة والانتشار أنه مشتغل لنفسه ومقره ، عاجز عن الدفع عن ايالته القريبة من محله حتى أنه هادن النصارى خمس سنين على عدد كثير من المئين ، وأعطى فيه منهم ضامنا ، ليكون فى المدة المذكورة على نفسه وحشمه آمنا ، فكيف يمكنه مع هذا الدفاع عن قطرنا وناحيتنا وبلدنا ، وأدل دليل على بعده عن هذا المرام خبر مصر ونواحى الشام ، فقد استولى عليها أعداء الدين ، مدة تزيد على الخمس سنين فلم يجد لهم نفعا ولا ملك عنهم دفعا حتى استعان بالعدو الكافر ، والله تعالى قد يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، هذا ونص الابى فى شرح مسلم مفصح عن مثل قضيتنا ومعلم ، على أن الامام اذا لم ينفذ فى ناحية أمره جاز اقامة غيره

فيها ونصره ، فانتظار نصرته يؤدى الى الهلاك ، كيف وقد تطاولت اليهـــا الاعناق ، وتشوفت اليها من كل جانب العيون والاحداق ، فأعرضنا عن الكل صفحا ، وطوينا عنه الجوانب كشحا ، مقبلين الى عتبة باب سيدنا نصره الله وسعده ، داخلين تحت طاعته ، ملتزمين لخدمته متوافقين مع القبائل والامصار وأهل الرأى والاستبصار ، لعلمنا أن سيدنا نصره الله المتأهـل فى هذا الامر العريق ، الجدير بالامامة الحقيق ، كيف وقد ورثها كابرا عن كابر واليهـم انتهت المآثر والمفاخر ، فنطلب من سيدنا نصره الله أن يلتزم لنا بفضله من هذه البيعة القبول ، مستشفعين بجاه جده الرسول ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، وصحابته المنتخبين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين اه .

ولما وقف السلطان رحمه الله على هذا الكلام قبـل بيعتهم والتزمها وعقد عليهم لابن عمه المولى على بن سليمان وأضاف اليه كتيبة من الجند من أعيان الودايا والعبيد ووجه الجميع مع أهل تلمسان بعد اكرامهم وتمـام الاحسان اليهم ، وكتب الى عامله القائد ادريس يستوصيه بالجميع خيرا ويكون بصيرة عليهم وأشركه فى النظر والرأى مع المولى على بل الاعتماد فى الحقيقة انما كان عليه ؛ وقد وقفت على كتاب الوزير أبى عبد الله بن ادريس بخط يده للقائد المذكور فى هذه القضية يقول فيه ما نصه : الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله محبنا وخال سيدنا الارضى السيد ادريس بـن حمان الجرارى سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير سيدنا أيده الله وبعد ، فقد وصلنا كتابك صحبة أعيان تلمسان وقبائل أحوازها فوقفنـا معهم كل الوقوف وبذلنا المجهود فوق الطاقة وقبلهـم مولانـا وقابلهـم بالاحسان والاكرام كما هو شأنه ذهابا وايابا ، وهاهم وجههم مولانا مكرمين ورشح ابن عمه مولاى عليا للخلافة عليهم لما يعلم مـن عقله ودرايتـه وسياسته ، وأنه ذو نفس أبية لكون تلك النواحى لا يصلح لها الا من اتصف بهذه الاوصاف ليميزوا حالة الساعة مع ما كانوا فيـه ، وكما رشح مولانا ابن عمه المذكور رشحك لتكون واسطة بينهم وبينه لكون الاوصاف المذكورة موجودة فيك فكن عند الظن بك ، واياك والطمع ، وازهدوا فيما فى أيدى

الناس وكل ما تحتاجون اليه مما لا بد منه أخبرونا به يصلكم ، ولا تكتموا عنا شاذة ولا فاذة ، واعلم أن مولانا انتخبك من وسط أبناء جنسك وقربك منه ولا زلت لديه فى الترقى فالله الله فكن عند الظن بك بارك الله فيك آمين ، وقد أكرم سيدنا كل واحد بما يناسبه من الكسوة وصنع لهم فى كل بلد دخلوه مهرجانا وأدخلهم سيدنا لوسط داره وجميع جناته وأماكن المملكة التى لا يدخلها الا الخاصة ، غايته أنهم نالوا من العناية فوق الظن ، ووقفنا معهم فوق ما تحب وفيهم الكفاية ، ولم يبق الا ما عندك فكن عند الظن بك فان سيدنا نصره الله جرب غيرك وطرحه ، وهذا معيارك نسأل الله أن يكون معيار التبر الخالص ، وما وعدك به سيدنا سيرد عليك حين تستقر بالبلد ويحسن تصرفك على عين الحاضر والبادى ، وفى وصية سيدنا فى كتابه الشريف مقنع وعلى المحبة والسلام ، فى ثالث عشر ربيع الثانى عام ستة وأربعين ومائتين وألف ، محمد بن ادريس لطف الله به اه نص الكتاب بحروفه .

ولما وصل المولى على الى تلمسان وجه السلطان فى اثره خمسمائة فارس ومائة رام وجماعة وافرة من حذاق الطبجية من أهل سلا ورباط الفتح فيهم ولد عامل سلا محمد ابن الحاج محمد أبى جميعة وكان من النجباء ، ثم لما دخل المولى على تلمسان واستقر بها فرح به الحضر من أهل تلمسان واغتبطوا به وقدمت عليه الوفود من كل ناحية وأخذ عليهم البيعة للسلطان هو والقائد ادريس ، وانحرف عنه الكرغلية من الترك الذين كانوا ادالة بقصبة تلمسان من لدن قديم وحاصرهم المولى على وقاتلهم مدة الى أن ظفر بهم واستولى على ما فى أيديهم ، وانحرف عنه أيضا قبيلتا الدوائر والزمالة من عرب تلك الناحية ، ويقال ان أصلهم من جند كان للمولى اسمعيل رحمه الله بعثه ادالة بتلك الناحية واستمروا هنالك وتناسلوا الى هذا التاريخ فأظفر الله المولى عليا بهم وانتهب الجيش متاعهم ومتاع الكرغلية من قبلهم ، ونشأ عن ذلك من الفساد ما نذكره بعد هذا ان شاء الله .

وفى أوائل رمضان من السنة المذكورة خرج القائد ادريس من

تلمسان فى جماعة من الجيش الذين معه بقصد تدويخ القبائل الذين هنالك وأخذ البيعة على من لم يكن بايع منهم وكان الذين بايعوا هم أهل معسكر والحشم والمشاشيل منهم وبنو شقران والمرابطون أهل غريس وورغية وتحليت وحميان وغير هؤلاء ، ونص بيعتهم : الحمد لله الذى أنار الخلافة وجه الزمان،وأطلع فى صحيفة غرته طوالع السعد واليمن والامان،وهدى من ارتضاه من الانام للدخول تحت ظل راية مولانا الامام والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيبين وبعد ، فلما وفد على حضرة مولانا الخليفة أبى الحسن على ابن أمير المؤمنين مولانا سليمان أعلى الله ثراه فى عليين جميع القبائل المسطرة يمنته وقرأ عليهم كتاب مولانا المنصور ذى اللواء المنشور والسيف المشهور أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن ابن مولانا هشام أدام الله رعيه وجعل فيما يرضيه سعيه ، بمحضر خليفته الطالب الارشد الماجد الاسعد القائد السيد ادريس الجرارى وتلقوه بالاجلال والتعظيم والتبجيل والتكريم ، أشهدوا على أنفسهم أنهم عقدوا البيعة لمولانا الامام أيده الله وأدام عزه وعلاه ، والتزموها بالسمع والطاعة وفى جيدهم انتظموها ، بيعة تامة مستوفية الشروط وافية العهود وثيقة الربوط قبلها الكل وارتضاها ، وأوجب العمل بمقتضاها ، فمن سمع ما ذكر ممن ذكر قيده فى مهل جمادى الثانية عام ستة وأربعين ومائتين وألف وبعده علامة العدلين المتلقين من رؤساء القبائل المذكورة ، فهؤلاء الذين بايعوا ومن لم يكن بايع بعد فهم الذين خرج القائد ادريس المذكور لاخذ البيعة عليهم كما قلنا .

والحاصل أن السلطان رحمه الله كان قد اعتنى بأمر هذه الناحية غاية الاعتناء وبذل المجهود فى امدادها بالعدد والعدد والمال مرة بعد اخرى ، وبعث الشريف البركة سيدى الحاج العربى بن على الوزانى الى أهل تلك البلاد يدعوهم الى الطاعة ، ويحضهم على الدخول فى أمر الجماعة لكونهم كان لهم فيه وفى سلفه اعتقاد كبير ، وبعث الشريف الاخير أبا محمد عبد السلام البوعنانى فولاه خطة الحسبة بتلمسان وبعث من الكسى والرايات

والاعلام والمدافع والمهاريس والبارود والرصاص شيئا كثيرا لكن لم يكن الا ما أراده الله تعالى فافترقت كلمة العرب الذين هنالك لضعف ايمانهم وقلة همتهم فجلهم مال الى الدخول فى حزب النصارى عندما استولوا على مدينة وهران فى هذه الايام ، ثم سرى ذلك الاختلاف فى قواد جيش السلطان فتنافسوا وتحاسدوا وكثر القيل والقال منهم على السلطان ثم ختموا عملهم بانتهاب أثاث الكرغلية وتقاعدهم عليه ، ثم بانتهاب مال الزمالة والدوائر وماشيتهم فى جوار الشريف سيدى الحاج العربى بن على الوزانى وفسد العمل وخاب الامل ، فحينئذ رأى السلطان رحمه الله استرجاع تلك الجيوش التى لم يبق طمع فى صلاحها بعد أن أمر بالقبض على القائد ادريس لكونه سعى به عنده وأنه شارك فى نهب الكرغلية والزمالة والدوائر وتقاعد على النفيس من أثاثهم فرجعت المحلة ، وكان رجوعها فى آخر رمضان من السنة المذكورة ، وفى هذه السنة منتصف جمادى الثانية منها حدثت زلزلة بقرية من قرى تلمسان تسمى البليدة فجعلت عاليها سافلها وهلك أهلها ، والامر لله كيف شاء فعل .

خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن والسبب فى ذلك

كان خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله فى المحرم فاتح سنة سبع وأربعين ومائتين وألف ، وكان السبب فى ذلك أن الطاهر بن مسعود المغفرى الحسانى ، والحاج محمد بن الطاهر المغفرى العقيلى ، والحاج محمد بن فرحون الجرارى كانوا من كبار قواد هذا الجيش وأعيانه ، وكان السلطان رحمه الله يبعثهم فى المهمات ، ويستكفى بهم فى الاقطار النائية والجهات ، وكانوا هم يظهرون للسلطان الطاعة وهم فى الباطن منحرفون عنه بسبب أن الدالة التى كانوا يدلون بها على السلطان المولى سليمان رحمه الله انقطعت عنهم مع السلطان المولى عبد الرحمن

وزالت من أيديهم فكانوا يمرضون فى الطاعة بعض الاحيان والسلطان يطويهم على غرهم ويلبسهم على عرهم الى أن كان البعث الى تلمسان فوجههم اليه فيمن وجه من أعيان الجيش ورؤسائه ، فكانت قوارصهم لا تنقطع عن الدولة ، وشغبهم لايفتر من التطاول والصولة، ثم كان نهب الزمالة والدوائر فأبدأوا فى ذلك وأعادوا وشايعهم على فعلهم القائد أحمد بن المحجوب البخارى وأظهروا عدم المبالاة بالسلطان وخليفته وعامله وكانت بينهم وبين القائد ادريس الجرارى منافسة باطنية فخاف من الاعتراض عليهم فيما ارتكبوه من النهب أن يسدوا برأسه هذا الخرق فأسعفهم وانتهب معهم ، وكان ما قدمناه من استرجاع السلطان لذلك الجيش وبعث من قبض على القائد ادريس بوجدة وجيء به الى تازا فسجن بها ، ولما وصل جيش تلمسان الى عنق الجمل قرب فاس خرج اليهم القائد الطيب الودينى البخارى وكان واليا على فاس فقيل أراد أن يقبض عليهم باذن من السلطان وقيل أراد أن يحوز منهم أرحلهم وحقائبهم التى ملأوها من النهب وكان الودايا والعبيد لما فعلوا فعلتهم تحالفوا وتعاهدوا على أن يكونوا يدا واحدة على من أرادهم بسوء كائنا من كان ، فلما خرج اليهم الطيب الودينى تجهموه وهموا به فرجع أدراجه وأنهى ذلك الى السلطان فاغضى عنهم ، ثم بعد أيام عزم السلطان على القبض على الحاج محمد بن الطاهر العقيلى فأحس هو بذلك فذهب الى الطاهر بن مسعود وتطارح عليه وقال له : انى مقبوض لا محالة فان ولاك السلطان من أمرى شيئا فأحسن ولا تؤاخذنى بما كان منى اليك ، وقد كان الطاهر بن مسعود قبل هذه المدة عاملا بتارودانت فعزله السلطان بابن الطاهر فأساء اليه فلهذا قال له ما قال ، فقال الطاهر بن مسعود : وأنت مقبوض قال نعم ، قال : على وعلى لا جرى عليك أمر تكرهه ما دمت حيا ، ثم ان السلطان أحضر الحاج محمد بن الطاهر وأحمد ابن المحجوب فقرعهما وأمر بالقبض عليهما فقبض أعوان الودايا على أخيهم وقبض أعوان العبيد على أخيهم وخرجوا بهما الى السجن مع العشى ، وكان الطاهر بن مسعود قد ترصد بباب دار السلطان للحاج محمد بن الطاهر

ليفتكه وصاحبه ، فلما خرجا قام الطاهر بن مسعود الى الاعوان فراودهم على اطلاق المسجونين فأبوا وقالوا : انهما مسجونان عن أمر السلطان فتصامم عن ذلك واستل خنجره وضرب ادريس البواب الوديي على ترقوته فخدشه وانتزع منه المسجون وتقدم لافتكاك أحمد بن المحجوب فأبى وانتهره . وقال : لا أخالف أمر السلطان ، وكان الودايا يظنون قيام العبيد معهم لحلفهم السابق فخذل الله فيما بينهم ، ثم أسرع الطاهر وابن الطاهر الى فرسيهما فركباهما ونجوا الى ناحية دار الدبيغ وثارت المغافرة بباب دار السلطان وحملوا السلاح وأخرجوا البارود والرصاص ، وقامت شيعة السلطان لمدافعتهم فكثرهم الودايا وهزموهم حتى أغلقوا عليهم باب المشور ، وسأل السلطان عن الهيعة فأعلم بالخبر وكان معه الحسن بن حمو واعزيز فقال له : يامولانا ان هؤلاء ما جسروا على هذا الفعل ببابك حتى عزموا على ما هو أكثر ، فدعا السلطان بفرسه وركبه مع الغروب وخرج من باب البجاة ومعه ابن واعزيز وبعض أصحابه خيلا ورجلا ، ولما علم الودايا بخروج السلطان ركبوا بقضهم وقضيضهم من فاس الجديد ومن قصبة شراقة فأدركوا السلطان عند قنطرة عياد فنزلوا الى الارض يقبلون حوافر فرسه ويتشفعون له ويتبرأون من فعل أولئك السفهاء ، وكان الحال اذ ذاك حال مطر خفيف والشمس قد غربت أو كادت تغرب ، فساعدهم رحمه الله على الرجوع وأشار عليه الحاج محمد بن فرحون بأن يذهب معه الى قصبة شراقة وكانت يومئذ لاهل السوس فذهب معه الى داره من غير أن يطمئن اليه ، ولكن ذلك الذى اقتضاه الحال في تلك الساعة ، ولما استقر بدار ابن فرحون اجتمع عليه المغافرة والودايا وأهل السوس وأساء عليه المغافرة الادب بل عزموا على الفتك به ولكن الله تعالى وقاه شرهم ، فاختلفت كلمتهم وتذامر أهل السوس فيما بينهم وقالوا : لا يبيتن السلطان الليلة الا بداره واستنهضوه فنهض رحمه الله وركب فرسه وصحبوه الى داره في ذلك الليل فاستقر بها ، وبعد ذلك بأيام انتقل السلطان الى بستان أبى الجلود خارج فاس الجديد على حين غفلة من الودايا وانحاز شيعة السلطان اليه

من العبيد وغيرهم ونزل جلهم بفاس القديم وبقـــى الودايا وحدهم بفاس الجديد ، ثم استدعى السلطان عبيد مكناسة فقدموا عليه ولما علم الودايا بعزم السلطان على الخروج من بين أظهرهم ساءهم ذلك وعلموا أنـــه ان خرج من بين أظهرهم لا يتركهم حتى يوقع بهم فراودوه على المقـــام وتنصلـــوا وأظهروا التوبة وتقدم سفهاؤهم الى العبيد فأنشبوا معهم الحرب وهلك مـن الفريقين عدد ، ثم تدارك السلطان أمرهم وتلطف وطيب أنفسهم وأجمـع على الخروج الى مكناسة فخرج بثقله وأثاثه وأمواله وسلك طريـــق قبقب وعقبة المساجين كأنه يريد بلاد الغرب وخرج لتشييعه جماعة وافـرة مـــن أعيان الودايا ثم انهم ندموا ونكسوا على رؤوسهم وربما سمعوا مـن العبيد بعض كلام فحميت أنوفهم وتحزبوا وأوقعوا بالعبيد فانهزموا عن السلطان وانتهب الودايا خيرته وأثاثه ، وقام عقالهم دون العيال حتى ردوه الى الدار محفوظا مصونا ولم يفعلوا أحسن منها ، وأما المال والاثاث فقـد أتى عليـــه النهب وكان شيئا كثيرا ، وتقدم السلطان رحمه الله لطيته وتبعه سفيه مـــن سفهاء الودايا كان أراد الفتك فيه فحماه الله منه ، ووصل السلطان رحمـه الله الى مكناسة فاستقر بها ، واتصل خبر هذه الفتنـة بالقائد ادريس بـــن حمان الجرارى وهو مسجون بتازا فاحتال على سراح نفسه بأن افتعل كتابا على لسان السلطان وبعث به الى عامل تازا فسرحه ، وكان السلطان رحمه الله قد بعث الى القائد ادريس المذكور وهو بتلمسان أربع ورقات مختوما عليها بالخاتم السلطانى الكبير وأمره السلطان رحمه الله أن يحتفظ بتلـــك الورقات ولا يستعمل واحدة منهن الا فى أهـــم المهمات ممـا يتوقف عليه غرض السلطان والدولة ولا تمكن مشاورته فيـــه لبعد المسافـــة بين فاس وتلمسان ، فعمد القائد ادريس الى واحدة من تلـك الورقات فكتب فيهـــا بتسريحه فسرح وجاء يجـــد السير الى فاس ، وبنفس وصولـــه كتب الى السلطان يعلمه بما صنع ، وأنه لا زال على ما يعهد مولانا مـن بذل النصح والسعى فى صلاح السلطان والجيش ، فأجابه السلطان رحمه الله بما نصه :

وبعد ، فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه والحمد لله على سلامتك ، وما

وجهنا اليك الا بقصد أن نسرحك لانا تحققنا أنك كنت مغلوبا عليك فلا عهدة عليك بل من تمام عقلك مساعدتك لمن نهب ولو منعتهم من ذلك لتفاقم الامر هنالك وأنت عليك الامان ظاهرا وباطنا في الحال والاستقبال ، فلا تخش من شيء أبدا فانك ممن نتهمه بالدين والعقل والصدق ، وقد عاينت وسمعت ما صدر من اخواننا من النزعة الشيطانية ولا ينبغي أن نقابلهم بمثل ما قابلنا به من لا عقل له منهم وان قابلناهم به لا نلتقي أبدا ، وأنت اسع في الخير والصلاح ما أمكنك وتحمل لهم عنا بالامن من كل ما يخافونه من جانبنا ، فجسارتهم أولى من صلاح القبائل فقف على ساق الجد «لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس» والسلام ، في السابع عشر من المحرم فاتح عام سبعة وأربعين ومائتين وألف انتهى لفظ الكتاب الشريف .

ثم ان القائد ادريس أحسن القيام على عيال السلطان الذين بقوا بفاس الجديد وكان فيهم حظيته المولاة فاطمة بنت المولى سليمان وتقدم القائد ادريس الى أمين الصائر من قبل وقال له : ما كنت تدفع الى دار السلطان كل يوم من دقيق ولحم وادام وغير ذلك فاكتب لي بقدره وابعث الي به ، فأحصاه الامين المذكور وبعث اليه به فصار يبعث بذلك القدر الى دار السلطان كل يوم ، وانقطع الماء ذات يوم عن دار السلطان فكان القائد ادريس يحمل قرب الماء اليها كل يوم وأصلح القنوات وجد في ذلك حتى رجع الماء الى مجراه ، ثم ان السلطان رحمه الله استنفر قبائل الغرب كلها حوزا وغربا وثغورا فقدموا مكناسة على بكرة أبيهم وسمع الودايا بذلك فاستدعوا الشريف سيدي محمد بن الطيب من بعض الاعمال والتفوا عليه وبايعوه ، فحينئذ تبرأت منهم القبائل التي كانت تعدهم بالقيام معهم من مجاوريهم لان سيدي محمد بن الطيب كانت قبائل المغرب قد تناذرته منذ أيام ولايته على تامسنا ودكالة وفعله بأهلها الافاعيل فكان مبغضا عند العامة ، وزحف السلطان الى فاس الجديد فحاصرهم بها ونصب عليهم المدافع والمهاريس وتعاقب عليهم الرمي بها من محلة السلطان بعين قادوس ومن

بستيون أبى الجلود وبستيون باب الجيسة وبستيون باب الفتوح ودام الحصار أربعين يوما والحرب لا تنقطع فى كل وقت ، وكان الوادايا يرمون أيضا بالكور والبنب وأبلى بنو حسن فى تلك الايام البلاء الحسن ، ثم ان السلطان عزم على البناء عليهم وجلب اللواحين فشرعوا فى العمل وسئم الوادايا الحرب وملوها فأذعنوا الى الصلح وسعى فى الوساطة بينهم وبين السلطان الامين الحاج الطالب ابن جلون الفاسى ، فأمنهم السلطان على شرط الخروج من فاس الجديد فأذعنوا ثم بعثوا شفاعاتهم بالمشايخ والصبيان والالواح على رؤوسها ومعهم سلطانهم ابن الطيب فسامح رحمه الله الجميع وقال لهم فى جملة ما قال : الحمد لله اذ لم أغلبكم ولم تغلبونى لانى لو غلبتكم لذبحت هذه الجيوش أولادكم ولم أقدر أن أردها عنكم ، ولو غلبتمونى لفعلتم كل ما تقدرون عليه . فهذا من لطف الله بى وبكم

قلت وهذا كلام دال على وفور عقل السلطان رحمه الله وكمال شفقته ورحمته ، ثم لما عزم السلطان على النهوض الى مكناسة ولى على جيش الوادايا كله القائد ادريس بن حمان الجرارى وذلك فى الحادى والعشرين من جمادى الثانية سنة سبع وأربعين ومائتين وألف ، ثم نهض الى مكناسة فاحتل بها ، ولما حضر عيد الفطر قدمت الوفود على السلطان بمكناسة واستقامت الاحوال وكتب رحمه الله الى القائد ادريس أن يحضر العيد فى جماعة وافرة من اخوانه نحو الخمسمائة فحضروا ودخلوا على السلطان ذات عشية بالمشور فوبخهم حتى ظن الناس أنه يقبض عليهم ثم سرحهم فعادوا الى فاس الجديد ، ولما عزم السلطان رحمه الله على النهوض الى مراكش قدم أولا فاسا ونزل خارج البلد ونظر فى شأنه وشأن الجيش والرعية ، ثم ارتحل يريد مراكش فلما انفصل عن فاس بيوم أو يومين كتب الى القائد ادريس يأمره أن يبعث اليه بالطاهر بن مسعود والحاج محمد ابن الطاهر يذهبان معه الى مراكش بقصد الخدمة بها مع ولده وخليفته سيدى محمد بن عبد الرحمن فذهبا على فرسيهما مسرحين الا أنهما كانا بحذرين من السلطان لما قدما من الفعل الشنيع الذى كان سبب هذه الفتنة

العظيمة فقدما مراكش وترتبا فى الخدمة مع الخليفة المذكور وانسلخت هذه السنة وفيها عزل السلطان وزيره الفقيه أبا عبد الله محمد بن ادريس وامتحنه ، وبقي عاطلا مدة ثم رده الى خطته ، وكان السلطان فى مدة تأخيره اياه قد استوزر مكانه الفقيه العلامة الاديب السيد المختار بن عبد الملك الجامعى فقام بأعباء الخطة وبرز فيها رحمه الله ، وفيها بنى السلطان رحمه الله المارستان الكبير على ضريح ولى الله تعالى أبى العباس أحمد بن عاشر بسلا وكان على ضريح الولى المذكور القبة والمسجد فقط ، فأدار السلطان رحمه الله على ذلك كله مارستانا كبيرا وبنى به مسجدا آخر وبيوتا للمرضى تنيف على العشرين وأجرى اليه الماء وجعل ميضاة بازاء المسجد للرجال وأخرى شرقيها للنساء ، فجاء ذلك من أحسن الاعمال وكتب الله أجره فى صحيفة السلطان .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف ، ففى صفر منها ورد على القائد ادريس كتاب من عند السلطان وهو يومئذ لا زال برباط الفتح يأمره أن يبعث اليه بالحاج محمد بن فرحون الجرارى فوصل اليه مسرحا فقبض عليه وبعثه الى الصويرة ، وباثر ذلك ورد على السلطان كتاب من عند ولده سيدى محمد يعلمه بأنه قبض على الطاهر بن مسعود ، والحاج محمد ابن الطاهر لكونهما لم يقلعا عن ضلالهما وشيطنتهما حتى أنهما عزما على اغتياله بمصلى عيد الاضحى من السنة الفارطة فحماه الله منهما ، ولما وصل السلطان الى مراكش صار يكتب الى القائد ادريس برؤوس الفتنة والقبض عليهم واحدا بعد واحد الى أن استوفى جلهم ، وكان القائد ادريس فى هذه المدة قد أحس بأن باطن السلطان لا زا لمتغيرا على الودايا فألح عليه في البحث والاستكشاف عما هو مضمره لهم وما يريد بهم وما الذى يجلب رضاه عنهم ويصفى باطنه عليهم ، فكتب اليه السلطان رحمه الله كتابا أفصح فيه عن مراده يقول فيه بعد الافتتاح والطابع الشريف بينه وبين الخطاب ما نصه : خالنا الارضى القائد ادريس الجرارى سلام عليك ورحمة الله تعالى وبعد ، فاعلم بأنك طلبت منا مشافهة وكتابة أن نعرب لك عن مرادنا

ونطالعك بغاية قصدنا وأمنيتنا فى الجيش وما يجلب رضانا عنهم وكنا نجيبك عن ذلك جوابا اقناعيا لعدم وثوقنا وقتئذ بصدق لهجتك، وكان يخيل لنا انك تباحثنا على جهة الاطلاع على خبيئة أمرنا والآن اتضح ما أنت عليه من الصدق ووفور المحبة وخلوص النية حتى صرت به كاحد أولادنا .

وليس يصح فى الاذهان شىء   اذا احتاج النهار الى دليل

وعليه فأنت أولى من نبثه سرنا ولا ندخر عنه شيئا من دخيلة أمرنا ، فاعلم أرشدك الله أن من بارزنا بالسوء قولا وفعلا من ذلك الجيش هم المغافرة كافة واستوى فى ذلك كبيرهم وصغيرهم قويهم وضعيفهم ، ولم يلف منهم رجل رشيد ولو ساعدهم الودايا وأهل السوس وخلوا بينهم وبين هواهم لكان ما أرادوه من تلف مهجتنا ولكن الله سلم ، ولا يخفى على أحد ما استوجبوه لذلك شرعا وطبعا ولسالف خدمتهم وكظم الغيظ المرغب فيه ارتكبنا فى جانبهم أخف ما أوجبه الله تعالى على أمثالهم ، قال جل علاه : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا) الآية ، وقد آليت على نفسى وأشهدت الله وملائكته أن لا يضمنى سور فاس الجديد والمغافرة به فهذا هو محض الصدق والآن بين لنا كيف يكون العمل فى ذلك وما نقدم وما نؤخر لان المراد قضاء الغرض من غير مشقة ولا فضيحة للجيش ، وهل تفشى هذا أو تكتمه ؟ وعلى تقدير امتثالهم عين لنا أى محل ينتقلون اليه من ثغور ايالتنا كالرباط وغيره أو قصبة مراكش فان النفس لم تسمح بهم بالكلية بل المراد زجرهم واقامة بعض حق الله فيهم ، ويحصل لنا الاطمئنان والسكينة ونبر قسمنا فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وما ذكرت من أنا عاهدناك ووعدناك بالاحسان والتنويه بشأنك فانه وعد صدق لا مرية فيه ان شاء الله ، وكيف وقد استوجبت منا كل جميل وقدمك لمعالى الامور عقلك وصدقك ، ولو ألفينا فى الجيش مثلك لضمنا عليه البراجم والرواجب وفعلنا فى جانبه ما هو الواجب ، وقد اقتصرت حيث طلبت أن تكون بمنزلة القائد قدور بن الخضر عند سيدى الكبير رحمهما الله ، فأنت عندنا بمنزلة أعظم من منزلته واليد التى اتخذت

عندنا أعظم وأجل مما اتخذ هو عنـــد سيدى الكبير قدس الله سره ، فقـد جازاه على الصدق فقط أما أنت فقد شاركته فى هذه المرتبة وفقته بما هـــو أعظم وهو احسانك لعيالنا وأولادنا ولولا أنت لهلكوا جوعا فلا يكفر هـذه الصنيعة الا لئيم ، وحاشانا الله من ذلك فطب نفسا وقر عينا فلك عندنا مـن المكانة والحظوة ما لو اطلعت عـلى حقيقته لطربت سرورا ونشاطا ، وسترى اذا انجلى الغبار ولا زال أهلنا يتذكرون احسانك اليهم بحضرتنا ، ويلتمسون لك الدعاء الصالح من جانبنا ، وفى الحديث مـا معناه أن امرأة من بنـــى اسرائيل أبصرت كلبا يلعق الحمئة من شدة العطش فسقته فغفر الله لهـا ، فكيف بمن أسدى معروفا لجماعة انقطع رجاؤهم الا مـن الله ، والله لـــن يخزيك الله أبدا والسلام ، فى ثامن عشر رمضان المعظم عام ثمانيـة وأربعين ومائتين وألف اه نص الكتاب ، ثم ان الله تعالى هيـأ للسلطان أمـــره فى الودايا وألهمه رشده فيهم فأمر أولا بنقل رحى المغافرة الى قصبـة الشرادى من أعمال مراكش وظن الناس أنه يقتصر على ذلك لانـه رحمه الله لـــم يكن يظهر الا أنه يريد نقل المغافرة فقط ، ثم نقل رحى الودايا الى العرائش وأحوازها ثم ردهم الى جبل سلفات ، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة نقـــل رحى أهل السوس الى رباط الفتـح فأنزل حلتهم بالمنصورية عـــلى شاطىء وادى النفيفيخ وقوادهم ووجوههم بقصبة رباط الفتح ، ثم رد الحلة بعد مضى ست سنين الى قصبة تمارة قرب رباط الفتح وكانت متلاشية فأمر السلطان بعـــد سنتين أو ثلاث بترميمها واصلاحها ، وكان رحمه الله قد أسقط هـذا الجند الوديى من الجندية وأعرض عنه بالكلية سنين ثم استردهم فى حدود الستين كما سيأتى ، ولما أخلى السلطان فاسا الجديد من جيش الودايا بأسره وكـان بمراكش بعث بالطاهر بن مسعود ، وبالحـاج محمد بـــن الطاهر ، فسجنا به مدة ، ثم قدمت عريفة الدار الحاجة زويدة بكتاب مـــن عنـد السلطان على ولده سيدى محمد بفاس يتضمن الامر بقتل الطاهر وابن الطاهر بالمحل الذى افتك فيه الاول الثانى ، فأخرجا الى المحـل المذكور وحضر الوصيف القائد فرجى وقدم الطاهر بن مسعود فأخرجت فيـــه عمارة وحز رأسه ،

ثم قدم الحاج محمد بن الطاهر ففعل به مثل صاحبه فيقال انـه زهقت نفسه قبل القتل لانه لم يسل منه دم ، واما الطاهر بن مسعود فسال منه دم كثير وأمر سيدى محمد ولد السلطان بمواراته فووري ، وأما ابن الطاهر فانـه رمى على المزبلة ووكل به الحرس الى أن أكلته الكلاب ولم يبق الا رجلاه بالقيد ، وكان ذلك في حدود خمسين ومائتين والف ، وأما ابـن فرحون وأصحابه فانهم استمروا فى سجن الجزيرة الى أن هلكوا .

واعلم أن هذه الوقعة الهائلة دالة على كمال عقل السلطان ووفور حلمه وفضله حتى أنه ما عامل هؤلاء القوم الذين آذوه أشد الاذاية الا ببعض البعض مما استوجبوه كما قال وكما رأيت وعلمت ، ونسألـه سبحانـه وتعالى أن يتغمدنا والمسلمين برحمته ، ويقينا واياهم مصارع السوء وينيلنا الامن فـى الدنيا والفوز فى الاخرة بجنته ، انه على ذلك قدير ، وبالاجابة جدير .

ظهور الحاج عبد القادر بن محيى الدين المختار بالمغرب الاوسط وبعض اخباره

لما رجع جيش السلطان من تلمسان مع المولى على بن سليمان حسبما مر بقى أهل تلمسان فوضى ، ورجعت الحرب بين الحضر من أهلها والكرغلية جذعة وهاجت الفتن بين قبائل العرب الذين هنالك واختلط الحابل بالنابل ، وكان الفقيه المرابط محيى الدين عبد القادر المختارى نسبة الى أحد أجداده المشهورين بتلك الناحية نازلا وسط حلة الحشم عنـد المشاشيل منهم وكـان متظاهرا بالخير وتدريس العلم واتخذ زاوية لطلبة العلم وقراء القرآن فاشتهر عند أولئك القبائل واعتقدوه ، فلما دهم العدو أهل تلـك البلاد وجاشت فيما بينهم الفتن اجتمع الحشم وبعض بنـى عامر وتفاوضوا فيما نزل بهـم ، فأجمع رأيهم على بيعة الشيخ محيى الدين المذكور فذهبوا اليه وعرضوا عليه

ما في أنفسهم فتجافا عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بانه قد شاخ وذهب منه الاطيبان وانما هو هامة اليوم أو غد ، فسدكوا بـه وتطارحوا عليه فأشار عليهم بولده الحاج عبد القادر بـن محيي الدين ، وكـان لـه يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبد القادر أكبرهم ولا أعلمهم ولا أصلحهم وانما كان فيه مضاء واقدام فأسعفوه بشرط أن يكون نظره منسحبا عليه ، ومشيرا بمـا تدعو الضرورة اليه ، ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمـع كتيبة من بنى عامر والحشم وزحف الى وهران وكانت يومئـذ فى ملكـة النصارى قد استولوا عليها منذ ستة أشهر أو سبعة فأوقع بهم وقعة شنعاء، قتـل فيها وأسر وأبلغ فى النكاية ورجع مظفرا منصورا ، فتيمنوا به وأحبوه وتمكن منهم ناموسه واتخذ عسكرا من الحشم وبنى عامر لا بأس به، ولما سمع بهأهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا الى من يقوم بأمرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولى عبد الرحمن صاحب مراكش وفاس وانهم يبايعونه على بيعته والاعلان بدعوته ، فأجابهم الحاج عبد القـادر الى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعـة والانقياد للسلطـان المولى عبـد الرحمن وخطب به على منابر تلمسان وغيرها ، وولى على تلمسان وأعمالها بوزيره أبا عبد الله محمد البوحميدى الولهاصى ، وكتب الى السلطان يعلمه بأنه بعض خدمه وقائد من قواد جنده واستقام أمر الحاج عبد القادر وثبتت قدمه فى تلـك الايالة التلمسانية ، ثـم ان قبيلتى الزمالة والدوائر الذين قدمنا ذكرهم انحرفوا عن الحاج عبد القادر لاسباب ، منهـا أنهم كـانوا معادين للحشم ولما قرب الحاج عبد القادر الحشم وجعلهم جنـده ازدادت عداوتهم ونفرتهم عن الحاج عبد القادر وساروا الى وهران وأعلنوا بدعوة الفرنسيس فقبلهم وحماهم وحدثت بينه وبين الحاج عبد القـادر بسببهـم حروب صعبة

حدثنى الامين السيد الحاج عبد الكريم ابن الحاج أحمد الـرزينى التطاونى قال : ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألـف الى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال : وكنت يومئـذ

فى سن الشباب حين بقل عذارى فأقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر ابن محيى الدين اذ ذاك مهادنا لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر قد أنزل كل واحد منهما ببلد الآخر قنصله وتجاره على العادة فى ذلك أيام الهدنة ، فلما كان ذات يوم ورد الخبر بأن قبيلتى الزمالة والدوائر من ايالة الحاج عبد القادر وهم نحو الالفين كانوا قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا سنجقه وأعلنوا بأنهم تحت حكمه ومن جملة رعيته فبعث اليهم الفرنسيس يعلمهم بأنه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه ، فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر المعسكرى كتابا الى الفرنسيس يقول فيه : «انك قد علمت أن هؤلاء القوم الذين فروا اليك هم رعيتى ومن ايالتى وعليه فلا بد أن تردهم على والا فالحرب بينى وبينك » فامتنع الفرنسيس من ردهم وأجاب الى الحرب واتفقوا أن يخرج كل منهما الى الآخر تجاره الذين فى أرضه وأن من بقى منهم بعد ثلاث فهو هدر ، واتفقوا أيضا على أن يكون القنصلان آخر من يخرج وأن يكون خروجهما فى ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على المحدة التى بين أرض المسلمين وأرض النصارى ففعلوا وخلص كل الى مأمنه .

ولما انقضى الاجل تزاحفوا للقتال فى يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد ، ولما كا نعشى النهار سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وبارودا كثيرا واذا بالحاج عبد القادر هزم الكفار هزيمة شنعاء حتى ألجأهم الى سور البلد وازدحموا على أبوابه وركب بعضهم بعضا وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبوهم أيضا ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم ، فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو أربعة آلاف دون الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح ، واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخبية وأثاث ، وكانت فتكة بكرا . قال الحاج عبد الكريم المذكور : وكنت فى تلك المدة مساكنا لبعض كبراء عسكر الفرنسيس فى دار واحدة ، فلما انقضت الوقعة

بيوم أو يومين سألته كم تراه يكو نهلك من عسكر الفرنسيس فى هـذه الوقعة ؟ قال : أقرب لك أم أبعد ؟ قلت : بل قرب قال : أنا كبير مـن كبراء العسكر وتحت نظرى ثمان عشرة مائة بقى منهـا فى هذه الوقعـة ثمانية عشر عسكريا انتهى كلام هذا المخبر .

ثم ان الزمالة والدوائر لجوا فى موالاة الفرنسيس وأحكموا أمرهـم معه وولوا عليهم رجلا منهم يقال له المصطفى بن اسمعيل كان هـو السبب الاكبر فى تملك الفرنسيس بلاد المغرب الاوسط وجل الحروب التى كانت تكون بين المسلمين والنصارى فى تلك المدة عـلى يده الى أن قتـل منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف ضاعف الله عليه غضبـه ونقمته ، ولمـا اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين ، وحماية بيضة المسلمين ، أعجبه حالـه وحسنت منزلتـه عنده لانه رأى انه قد قام بنصرة الاسلام عـلى حين لا ناصر له ، فصـار السلطان رحمه الله يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة عـلى يـد الامين الحاج الطالب ابن جلون الفاسى وغيره ، وطالت الحرب بينه وبـين الفرنسيس واستولى الفرنسيس فى بعض الكرات على تلمسان وضايقه الحاج عبد القادر فيها حتى أخرجه منها ثـم استردها الفرنسيس بعـد معارك شديدة ومواقف صعبة الا أن ضرر الحاج عبد القـادر للفرنسيس كـان مقصورا على قتل النفوس واستلاب الاموال ، وأما الفرنسيس فكـان ضرره بالمسلمين عائدا على تملك بلادهم وتنقصها من أطرافها ، ودام ذلك مدة مـن ست عشرة سنة .

وبالجملة فلقد كان الحاج عبد القادر هذا فى أول أمره عـلى ما ينبغى من المثابرة على الجهاد والدرء فى نحر العدو ولولا أنه انعكس حاله فـى آخر الامر وخلصت الارض للفرنسيس والله غالب على أمره .

وفى سنة خمسين ومائتين وألف ولد مؤلف هذا الكتاب أحمد بـن خالد الناصرى السلاوى . أخبرتنى والدتى الست فاطمة بنت الفقيه السيد محمد بن محمد بن قاسم بن زروق الحسنى الادريسى الجبارى أنـى ولدت

بعد طلوع الفجر صبيحة يوم السبت الثانى والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة . وفى محرم فاتح سنة احدى وخمسين ومائتين وألف توفى الوزير الشهير السيد المختار بن عبد الملك الجامعى بمراكش واستوزر السلطان بعده الفقيه أبا عبد الله محمد بن على الحاجى النكنافى مدة يسيرة ثم أخره ورد وزيره الاقدم أبا عبد الله محمد بن ادريس رحم الله الجميع. وفى هذه السنة كان الوباء بالمغرب بالاسهال والقيء وغور العينين وبرودة الاطراف .

وفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف ورد سؤال من عند الحاج عبد القادر بن محيى الدين الى علماء فاس يقول فيه ما نصه :

«الحمد لله سادتنا الاعلام أئمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الادريسية ، ومرمى المطالب ومحط الرحال العيسية ، أطباء أدواء الدين ومحققين حقه ومبطلين باطله ، ومنتجين قضاياه المتخيلة عقيمة وباطله ، جوابكم أبقاكم الله فيما عظم به الخطب ، واشتد به الكرب ، بوطن الجزائر الذى صار لغربال الكفر جزائر ، وذلك أن العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم بالسيف وتارة بحيل سياسته ومن المسلمين من يداخلهم ويبايعهم ويجلب الخيل اليهم ولا يخلو من دلالتهم على عورات المسلمين ويطالعهم ، ومن أحياء العرب المجاورين لهم من يفعل ذلك ويتمالأون على الجحود والانكار فاذا طلبوا بتعيينه جعجعوا والحال أنهم يعلمون منهم الاعين والآثار ، فما حكم الله فى الفريقين فى أنفسهم وأموالهم ؟ فهل لهم من عقاب أم يتركون على حالهم ؟ وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة عن الحريم والاولاد ، اذا استنفره نائب الامام للدفاع والجلاد ؟ فهل يعاقبون وكيف عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم ؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم ؟ وكيف العمل فيمن يمنع الزكاة أو يمنع بعضها مع التحقق بعمارة ذمته فى الحال ؟ فهل يصدق مع قلة الدين فى هذا الزمان أم يكون للاجتهاد فيه مجال ؟ ومن أين يرزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد ثغورهم عن المغيرين ولا بيت مال وما يجمع من الزكاة لا يفى بشبعهم فضلا عن كسوتهم وسلاحهم

وخيلهم ومؤنتهم وزيهم ؟ فهل تترك فيستبيح الكافر الوطن أم يكون مـــا يلزمهم على جماعة المسلمين ؟ واذا كان فهل على العموم أم على الاغنياء فقط ولا يمكن اختصاص الاغنياء لجفـــوة الاعراب وجهلهم ؟ وهل يعد مانـــع المعونة باغيا أم لا وما حكم أموال البغاة وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا ؟ أجيبوا عما ذكرنا وعما يناسب المقـــام والحال مما لم يحضرنا داووا عللنا أبقاكم الله فقد ضاق من هذه الامور الذرع ، وكاد القائم بأمـر المسلمين لضيق الاسباب أن يتخلى عن الامر ويطرح ثوب الامارة والدرع ، مأجورين والسلام ، فى تاسع عشر من ذى الحجة مـــن السنـة المذكورة صدزه عن اذن الحاج عبد القادر بن محيى الدين لطف الله به .»

وقد أجاب عن هذا السؤال باشارة السلطان الفقيه العلامة أبو الحسن على بن عبد السلام مديدش التسولى بجواب طويـــل يشتمل عـلى خمس كـراريس وزيادة ، وهـــو موجود بأيدى الناس ، ولاجل ما كان يصل من هذه الامور من جانب الحاج عبد القادر كـــان السلطان رحمه الله يبـــذل مجهوده فى امداده بالخيل والسلاح والمال وغير ذلك ، ثـم لـم يكـن الا ما أراده الله .

وفى سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألـــف بعـد ظهر يـــوم السبت العشرين من ربيع الاول منها توفى الفقيه العلامة المتفنن المحدث أبو العباس أحمد بن الحاج المكى السدراتى السلاوى ودفن صبيحـــة يوم الاحد فـى الجبانة التى قرب ضريح ولى الله تعالى سيدى الحاج أحمد بن عاشر ، وشهد جنازته خلق كثير ، وأمهم الفقيـــه العلامة القاضى أبـــو عبد الله محمـد الهاشمى طوبى ، وللفقيه أبى العباس المذكور شرح حفيل على موطأ الامام مالك رضى الله عنه وهو موجود بأيدى الناس .

وفى سنة أربع وخمسين بعدها وذلك صبيحة يـــوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان منها توفى الفقيه العلامة القاضى أبـــو عبد الله طوبى المذكور آنفا ، وكان رحمه الله من قضاة العدل وأهل العلم بالنوازل والاحكام محمود السيرة ذا سكينة ووقار .

وفي سنة ست وخمسين ومائتين وألف وذلك في سابع جمادى الاولى منها كمل بناء المنار بالمسجد الاعظم من سلا ، وكان المنار الذى قبله قد أصابته صاعقة تداعت لها أركانه فأمر السلطان رحمه الله بنقضه واعادته جديدا فأعيد على هيئة متقنة أحسن مما كان وأعظم وصير عليه بواسطة أمناء مرسى العدوتين ثلاثة آلاف مثقال واربعمائة مثقال وأربعة وعشرون مثقالا وست أواق وثلث الاوقية ، والريال الكبير يومئذ من سعر ست عشرة أوقية، وكان جل الصائر من بيت المال وأقله من مال الحبس ، وكان الذى يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء عامل سلا الابر الاخير السيد الحاج أحمد ابن محمد بن الهاشمى عواد .

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة المحقق البارع أبو الحسن على بن عبد السلام التسولى المدعو مديدش صاحب الشرح الكبير على تحفة ابن عاصم في الاحكام ، وشرح الشامل وحاشية الزقاقية وغير ذلك من التآليف الحسان رحمه الله ونفعنا به .

وفي منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف غزا السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قبيلة زمور الشلح وكانوا قد تجاوزوا الحد في الافساد واخافة العباد والبلاد فأوقع بهم وقعة شنعاء كسرت من حدهم وفلت من غربهم ، وكتب السلطان رحمه الله فيذلك الى ولده وخليفته سيدى محمد كتابا من انشاء وزيره أبىعبد الله بن ادريس يقول فيما نصه : «ولدنا الارضى الابر الارشد سيدى محمد أصلحكالله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ، فقد كنا أردنا الابقاء على قبيلة زمور رحمة واشفاقا ، وحملهم على الاستقامة بالارهاب من الشدة في بعض الامور هداية وارفاقا ، فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيتهم وخبث طويتهم واتكالهم على حولهم وقوتهم ، فما رأوا منا لينا وسدادا الا ازدادوا شدة وفسادا ، ولا أظهرنا لهم عظة وارشادا الا أظهروا تطاولا وعنادا ، وما أخرنا المحلة المنصورة عن الركوب اليهم ابقاء والفا الا ظنوا ذلك عجزا وضعفا ، قد طمس الاعجاب منهم بصرا وسمعا ، ولم يروا أن الله قد أهلك من قبلهم من

القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا .

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندا فى موضع السيف بالعلى مضربه كوضع السيف فى موضع الندا

فلما رأينا لجاجهم فى عماهم وعدم رجوعهم عن هواهم ، وأنهم لم يعتبروا بجلائهم عن بلادهم ولا بما أصابهم من الفتنة فى أنفسهم وأولادهم، ولم يراعوا ما نهب من زرعهم القائم والحصيد ولا ما استخرج من مخزونهم الكثير العتيد ، رأينا قتالهم شرعا وجهادهم ذبا عن الدين ودفعا ، فاعتمدنا على حول الله وقوته وأمرنا بالزيادة عليهم فى الاخذ والتضيق ، والمبالغة فى النهب والتحريق ، وتركهم محصورين فى أوعارهم ومقهورين فى أوكارهم ، اذ رب مطاولة أبلغ من مصاولة ، فتوالت عليهم الغارات وتتابعت عليهم النكبات لا يجدون الى الراحة سبيلا ، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، ففى كل يوم تثمر العوالى رؤوس رؤسائهم ، وتتخطف أيدى المنايا أهل بأسائهم ، وكلما زادوهم اقداما وطلبا ازدادوا توغلا فى الجبال وهربا حتى نهكتهم الحرب ، وضرستهم موالاة الطعن والضرب ، وضاع بالحصار الكسب والمال ولحق الضرر الاولاد والعيال ، فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم طالبين لحلفهم وجوارهم ، وبلغ البؤس فيهم غايته وأظهر الله فيهم آيته ، وهم فى خلال هذا كل حين يتشفعون ويتذللون فى قبول توبتهم ويتضرعون ، ونحن نظهر لهم التمنع والاباية لنبنى أمرهم على أساس الجد، ونجازيهم على ما ارتكبوه من خلف الوعد ، فلما انجزت القهرية فيهم وعدها ، وبلغت العقوبة فيهم حدها ، قابلنا اساءتهم بالاحسان ، وراعينا فيهم وجه المساكين والنساء والصبيان ، فولينا عليهم منهم ثلاثة عمال ووظفنا عليهم خمسين ألف مثقال ، وشرطنا عليهم تقويم مائتين من الحراك مثل قبائل الطاعة والتزام الصلاح والخدمة جهد الاستطاعة ، فقاموا بذلك أحسن قيام، وأعطوا المراهين فى أداء المال بعد أيام ، وكان أخذهم بعد تقديم الاعذار وتكرير الانذار ، وعفونا عنهم عفو غلب واقتدار ، ورب عقاب أنتج حسن طاعة ، وتوبة نصوح تداركت ما سلف من التفريط والاضاعة ، وفى الناس

من لا يصلح الا مع التشديد ، وربك يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد .

وما عن رضى منها عطية أسلمت ولكنها قد قادها للهدى القهر
أردنا بها الابقاء فازداد عجبها وأدبها التشديد والفتك والاسر

ولو قيدوا النعمة بالشكر لامنوا الزوال ، (واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) ، والسلام ، فى فاتح رجب الفرد الحرام عام تسعة وخمسين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف .

انتقاض الهدنة مع الفرنسيس وتمحيص المسلمين بإيسلى قرب وجدة والسبب في ذلك

كانت الهدنة معقودة بين هذه الدولة الشريفة وبين جنس الفرنسيس من لدن دولة السلطان الاعظم سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله ، ولما حدث الشنآن بين ترك الجزائر والفرنسيس واستولى الفرنسيس على ثغورهم جاء أهل تلمسان الى السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله راغبين فى بيعته والدخول فى طاعته فقبلهم بعد التوقف والمشاورة كما مر ، ولما أعرى جيش السلطان تلمسان واجتمع أهل ذلك القطر على الحاج عبد القادر بن محيى الدين تحت كلمة السلطان بر به وأحسن اليه وقاوم الفرنسيس بتلك البلاد أشد المقاومة الا أن فائدة حربه كانت تظهر فى قتل النفوس واستلاب الاموال ، وفائدة حرب الفرنسيس كانت تظهر فى انتقاص الارض والاستيلاء عليها وشتان ما بينهما .

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين وألف تم استيلاء الفرنسيس على جميع بلاد المغرب الاوسط وصار الحاج عبد القادر يتنقل فى أطرافها ، فتارة بالصحراء وتارة ببنى يزناسن وتارة بوجدة والريف وغير ذلك ، وربما استكثر فى هذه التنقلات بمن هو من رعية السلطان أو جنده ، فمد الفرنسيس يده الى ايالة السلطان رحمه الله فشن الغارة على بنى يزناسن

وعلى وجدة وأعمالها المرة بعد المرة ، ثم اقتحم وجدة على حين غفلة مـن أهلها وانتهبها وكثر عيثه في الحدود فكلم من جانب السلطان رحمه الله فيما ارتكبه من اياالته فتعلل بأن الهدنة قد انتقضت بامداد الحاج عبد القادر بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة ، وبمحاربة جيش السلطان المرابط عـلى الحدود له وبمحاربة بني يزناسن له مع الحاج عبد القادر وغير ذلـك ممـا اعتد به ، وكان الحاج عبد القادر في هذه المدة قد فسدت نيتـه أيضا فـي السلطان وفي الجهاد مع انه ما كان لجهاده ثمـرة ، ورام الاستقلال وأخذ في استفساد القبائل الذين هنالك وتحقـق السلطان بأمـره وشرى الشر وتفاقم الامر فعمد السلطان رحمه الله على حرب الفرنسيس وتقدم الى أهل الثغور بالاستعداد والحراسة وارهاف الحد لما عسى أن يحدث ، ثم عقد لابن عمه المولى المأمون بن الشريف على كتيبة من الجند ووجهها الى ناحية وجدة وعززه بالفقيه أبي الحسن علي بن الجناوي من أعيان رباط الفتح فكانت لهم مناوشة مع رابطة الفرنسيس التي هنالك ، ثـم أخـذ السلطان رحمه الله في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنـود واتخاذ الرايات والبنود واستنفار القبائل ، وقال فـي ذلك الوزير ابن ادريس أشعـارا يستنفر بهـا أهل المغرب ويحضهم على الجهاد وايقاظ العزائم له من ذلك قوله :

ياأهل مغربنا حـق النفير لكـم	الى الجهاد فما في الحق من غلـط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم	من بعد ما سام أهل الدين بالشطط
فـلا يغرنكم مـن لين جانبـه	ما عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت	عـن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو مـن خواتمـه	فعنـده المكر والمكروه فـي نمط
وأنتـم القصد لا تبقن في دعـة	ان السكون الى الاعدا من السقط
من جاور الشر لا يعدم بوائقـه	كيف الحياة مـع الحيات في سفط
قـد يغبط الحـر في عز يخلده	وليس حـي عـلى ذل بمغتبط

وفي هذا الشعر تضمين بيت ابن العسال وهـو مشـهور ، فاجتمـع للسلطان رحمه الله في هذا الاستنفار ثلاثون ألف فارس تزيد قليـلا أو

تنقص قليلا فيها الجند وحصص القبائل فى أكمل شكة وأحسن زى ولـم يشهدها من الودايا سوى نفر يسير لانهم كانوا فى زاوية الاهمـال عنـد السلطان ، ثم عقد رحمه الله على هذه الجنود لولده وخليفته سيدى محمد ابن عبد الرحمن وسار حتى نزل بوادى ايسلى مـن أعمال وجدة وكـان الحاج عبد القادر لا زال جائلا فى تلك الناحية ومعـه نحو خمسمائـة فارس ممن كان قد بقى معه من أهل المغرب الاوسط لان حاله كان قـد أخذ فى التراجع والانحطاط ، ولم تبق له هنالك كبير فائدة بـل انقلب نفعه ضررا وحزمه خورا بفساد نيته ، واستفساده لجند السلطان ورعيتـه ، ولما احتل الخليفة سيدى محمد بايسلى وعسكر بـه جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه فى الاجتماع به فأذن اه واجتمع به وهو على فرسه فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر : ان هـذه الفرش والاثاث والشارة التى جئتم بها حتى وضعتموها بباب جيش العدو ليس مـن الرأى فى شىء ، ومهما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو الا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الارض والا فان العدو متى رأى الاخبية مضروبة لم ينته دون الوصول اليها ولـو أفنى عليها عساكره ، وبين كيف كان هو يقاتله ، وكان هذا الكلام منه صوابا الا أنـه لم ينجـع فى القوم لانفساد البواطن ولا حول ولا قوة الا بالله ، وربما انتهره بعض حاشية الخليفة على التفصح بمحضره والاشارة عليه قبـل استيشاره ، فرجع الحاج عبد القادر عوده على بدئه وانتبذ ناحية فى جيشه ولسان حاله يقول : لم آمر بها ولم تسؤنى ، ولما كانت الليلة التى وقعت الحرب صبيحتها جـاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبوا الدخول على الحاجب وهـو الفقيه السيد الطيب ابن اليمانى المدعو بأبى عشرين فدخلا عليه وقـالا : ان العدو عازم على أن يصبحكم غدا ان شاء الله فاستعدوا له واعلموا الامير فيقال : ان الحاجب قال : ان الامير الآن نائم ولست بالذى أوقظه ، ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو فكان سبيلهم سبيل الاولين ، ولـما طلع الفجر وصلى الخليفة الصبح جاء عشرة من الخيل قيل من العرب وقيـل

من حرس الخليفة فأعلموا بمجيء العدو وانهم تركوه قد أخذ فى الرحيل، فأمر الخليفة رحمه الله الناس بالركوب والاستعداد وأن لا يبقى بالمحلة الا الرماة وكانوا دون الالف ، وبعث الى بنى يزناسن بالركوب فركبوا فى ألوف كادت تساوى جيش الخليفة وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر ، وراياتها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع ، وكان الخليفة سائرا فى وسطهم ناشرا المظلة على رأسه راكبا على فرس أبيض وعليه طيلسان أرجوانى قد تميز بزيه وشارته ، ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز من الصفوف كأنما تعجل القتال فأمر الخليفة رحمه الله بالسكينة والوقار والسير بسير الناس

ثم لما التقى الجمعان وانتشبت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمى مرات عديدة حتى سقطت بنبة أمام حامل المظلة وجمح فرسه به وكاد يسقط ، ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بأن أسقط المظلة ودعا بفرس كميت فركبه ولبس طيلسانا آخر فاختفى حينئذ ، وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة ، وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقحمونها اقحاما ، وثبتوا فى نحر العدو مقدار ساعة ولما التفتوا الى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون : ان الخليفة قد هلك فماج الناس بعضهم فى بعض وتسابق الشراردة الى المحلة فعمدوا الى الخباء الذى فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه ، وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل فى الجيش من كل جهة ، فتقدم بعض الحاشية الى الخليفة وقال له : يامولانا ان الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضا ويسلب بعضهم بعضا ، فقال : ياسبحان الله ! والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه ، وانهزم من كان قد بقى معه عن آخرهم وتبعهم العدو يرمى الكور والضوبلى من غير فترة ، وثبت الله بعض الطبجية بالمحلة ولكن سال الوادى فطم على القرى ونفذ أمر الله ولم يهزم المسلمين الا المسلمون كما رأيت ، ولما استولى العدو على المحلة فر النهاب الذين

كانوا بها وبقيت في يده بما فيها ، وكانت مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها ، وكان هذا الحادث العظيم في الساعة العاشرة من النهار منتصف شعبان سنة ستين ومائتين وألف ، ولما رجع المنهزمة تفرقوا شذر مذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتى كان نساء عرب آنكاد يستلبنهم كيف شئن ، وانتهى الخليفة الى تازا فأقام بها أربعة أيام ريثما اجتمع اليه الرماة وضعاف الجيش ثم قدم فاسا وكان السلطان رحمه الله قادما من مراكش الى فاس فاتصل به خبر الوقعة وهو برباط الفتح فنهض الى فاس مجدا واتصل به في أثناء طريقه خبر وقعتين اثنتين أخريين وهما هجوم الفرنسيس على طنجة والصويرة ، ورميه اياهما بألوف من الكور والبنب ووقع بالصويرة حادث عظيم بسبب الغوغاء الذين بالبلد والشياظمة المجاورين لهم فانهم لما رأوا العدو دخل الجزيرة ظنوا أنه سيدخل البلد فمدوا أيديهم للنهب ، وكان ذلك أولا في اليهود ثم عم غيرهم ، وكان ما كان مما لست أذكره ، فكان هذا مما زاد غيظ السلطان وكمده فعمد الى جماعة من قواد الجيش وحلق لحاهم تأديبا لهم .

وذكر منويل هذه الوقعة فزعم : أن عساكر الفرنسيس كانت يومئذ عشرة آلاف وانه كان غرضه محاربة الذين كانوا يحاربونه على أطراف البلاد حتى لقد أعطى خط يده للنجليز أنه اذا حارب وغلب لا يتملك من أرض المغرب شيئا ، قال : فلذلك لما وقعت الهزيمة بعث بأثرها رساله يطلب الصلح مع ان السلطان المولى عبد الرحمن لم يظهر عجزا ولا فل ذلك من غربه بل استأنف الجد وشرع في جمع العدد اه كلامه

ثم ان السلطان رحمه الله هادن الفرنسيس على يد الفقيه أبي سلهام بن على آزطوط عامل طنجة والعرائش على شروط ثمانية من جملتها نفي الحاج عبد القادر من تلك البلاد لما في بقائه هنالك من اثارة الفتنة بين الدولتين بلا فائدة ، ودعت المصلحة الوقتية السلطان رحمه الله الى أن أسقط عن جنس الدينمرك وجنس السويد ما كانا يؤديانه الى الدولة العلية كل سنة ، فالاول خمسة وعشرون ألف ريال ، والثاني عشرون ألف ريال ،

وكذلك أسقط عن غيرهم وظائف أخر والامور كلها بيد الله (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون)

وفي سنة احدى وستين ومائتين وألف أخذت السكة في الارتفاع وكان الريال الكبير ذو المدفع بست عشرة أوقية ، والريال الصغير الافرنك بخمس عشرة أوقية ، والبندقي بثلاثين أوقية ، والدرهم الصغير بأربع موزونات ، والكبير بست موزونات ، ولما أخذت السكة في الارتفاع أخذت الاسعار في الارتفاع أيضا وحاول السلطان رحمه الله حصرها فلم تنحصر وعلة ذلك والله أعلم أنه لما وقع مع الفرنسيس هذا الصلح وأسقط السلطان عن الاجناس ما كانت تؤديه كثر خطارهم وتجارهم بمراسي المغرب وازدادت مخالطتهم وممازجتهم لاهله ، وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها ، وانفتح لهم باب كان مسدودا عليهم من قبل فظهر أثر ذلك في السكة وفي السلع ، أما السكة فلان سكتهم كانت هي الغالبة وهي أكثر روجانا من سكة المغرب ، فلا بد أن يكون الحكم والتأثير لها والتجار يعتبرون فيها من الفضول والارباح الناشئة عن تغاير القطرين مالا يهتدي اليه غيرهم من العامة وتبعهم على ذلك تجار المسلمين ، وأما السلع فلان تجار النصارى يغالون في أثمانها أكثر من غيرهم كما هو مشاهد ثم ما دامت بلاد الفرنج مترقية في التمدن وحسن الترتيب واتساع الامن والعدل الا وسككنا وأسعارنا دائمة الترقي في الغلاء على نسبة كثرة المخالطة واتساع مادة البيع والشراء فتأمله والله الموفق

وفي هذه السنة ثار أهل رباط الفتح على عاملهم الحاج محمد ابن الحاج محمد السوسي ، وكان السبب في ذلك أن الحاج محمد ابن الحاج الطاهر الزبدي من أهل الوجاهة بالرباط ومتبوع العقب فيها وكان كثيرا ما يجالس العامل المذكور ويدلي عنده بالصداقة والمودة فيقال أنه تشفع عنده في بعض أهل البلد فرد شفاعته ، فغضب الزبدي وعظم عليه ذلك وكان أهل البلد قد سئموا ملكة السوسي ومرضوا في طاعته لاسباب تعدها الرعية على العمال فجاء الزبدي الى منزله وجمع جماعة من أعيان البلد ممن يعلم

انحرافهم عن العامل المذكور وأطمعهم وأطلعهم على خبيئة صدره فى أمــر العامل فوجدهم اليه سراعا فتحالفوا وتعاهدوا على أن لا يبقى متوليا عليهـم بحال ، ثم مشوا اليه وأنذروه وتقدموا اليه بأن يلزم بيته ثم أجمع رأيهـم على تقديم الزبدى مكانه فقدموه وضبط أمر البلد ، واتصل الخبر بالسلطـان رحمه الله وهو بفاس فقام وقعد وكتب اليهم بالوعظ والتقريع فصموا عـن سماعه وتمادوا على شأنهم ثم بعث اليهم القائد الطيب الودينى البخارى يتولى عليهم ويقبض على اهل الفساد منهم فأفحشوا عليه وطردوه من البلد مـــع العشى ، فعبر الى سلا فى مطر غزير ورجع الى السلطان فأعلمه الخبــر ، فاحتال السلطان رحمه الله بأن بعث الفقيه الكاتب أبا عبد الله محمد العربى ابن المختار الجامعى فقدم رباط الفتح وجمع أعيانها وخيرهم فيمن يتــولى عليهم فاختاروا الزبدى فولاه السلطان عليهم وحمدوا سيرته ، وبعد نحو ستة أشهر قدم السلطان رباط الفتح وتريث بهـا مدة حتى نقر عن رؤوس الفتنة فقبض عليهم وعلى قائدهم الزبدى وبعث بهـــم الى فاس فسجنوا بها ثم سرحوا بعد حين

وفى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف نهض السلطان من فاس ونهض الخلـيفة سيدى محمد من مراكش والتـقيا بمشرع أبى الاعوان من دكـالة وعيدا هنالك عيد المولد الكريم ثم سار السلطان الى مراكش وانحدر الخليفة الى فاس ، وفى هذا العيد بعث أبو عبد الله اكنسوس الى السلطان بالقصيدة

وفى سنة ثلاث وستين ومائتين وألف تم بنـاء البرج الكبــير بسلا المعروف بالصقالة الجديدة ؛ وكان السلطان رحمه الله شرع فى بنائه زمـان انتقاض الصلح مع الفرنسيس وتم فى هذه المـــدة على أكمل الاحوال وأحسنها

بقية اخبار الحاج عبد القادر وانقراض امره وما آل اليه حاله

قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وأنه رام الاستبداد بل والتمالك على المغرب ، فلما كانت الهزيمة بايسلى ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي الى مبايعته والدخول فى طاعته ، وكاتب الخواص من أهل فاس والدولة وكاتبوه على ما قيل ، ثم احتال بأن بعث جماعة وافرة من الحشم وبنى عامر شيعته الى السلطان قدمهم أمامه فى صورة هراب مستجيرين بالسلطان فقبلهم السلطان وأنزلهم على نهر سبو ، ثم تقدم الحاج عبد القادر حتى وصل الى القعدة الحمراء بين التسول والبرانس ، وكان قصده أن يجتمع بشيعته ويصل يدهم بيده ويتم له ما أراد ، فلما اطلع السلطان على دسيسته بعث الى أولئك الجماعة عسكرا من الشراردة عليهم القائد ابراهيم بن احمد الاكحل فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتال شديد من ذلك انهم اعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون على حريمهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة فى الارض ، فكانوا كلما توجهت اليهم طائفة من الجيش استاصلوها بالرصاص ، وكانوا يجمعون موتاهم وينصبونهم أشبارا يتترسون به ويقاتلون من خلفه ، ولما أعيا الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم فى معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم ونساءهم بأيديهم فرارا من السبى والعار ، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم فى قبضة الاسار ، وبعد هذا وجه السلطان ولده سيدى محمدا لحسم دائه فى جيش كثيف وكان رئيس الجيش وكبيره بعد الخليفة القائد محمد بن عبد الكريم الشرقى المدعو أبا محمد ، وكان له ذكر فى الشجاعة والرأى ، ولما وصل الخليفة الى سلوان بعث اليه الحاج عبد القادر جماعة فيهم وزيره أبو عبد الله البوحميدى يتنصل مما رمى به وأنه لا زال على الطاعة والخدمة للسلطان ، وقدموا الى الخليفة هدية ثم وقع الاتفاق على أن يقدموا على السلطان رحمه

الله فينهوا اليه الامر والعمل على ما قال توجه معهم الخليفة من يصحبهم الى أبيه بفاس ، وفى أثناء ذلك عمد الحاج عبد القادر ذات ليلة الى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل كلهم بطل مجرب انتقاهم انتقاء ، وكان جيش الخليفة منقسما قسمين بعضه معه وبعضه مع أخيه المولى أحمد فصمد الحاج عبد القادر اليهما

في ليلة من جمادى ذات أندية   لايبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

بتلك العصبة الذين هم فتيان الكريهة ومساعير الهيجاء وجمرات الحرب طالما شهد بهم الوقائع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيس وغيره ، فلم يقف بهم الا بين المحلتين وأطلقوا الرصاص مثل المطر وأرسلوا حراقيات على الجمال وتهاويل مفزعة فماج الناس في ذلك الظلام الغاسق ونزل بهم من الهول ما يقصر اللسان عن وصفه ، وقام الخليفة فجعل يسكن الناس بنفسه ويمنعهم من الركوب خوف الفرار ، وأمر العسكر والطبجية بالرمى بالكور والضوبلى فكانوا يرمون الى جهة محلة المولى أحمد ظنا منهم أن العدو لا زال مقابلهم ومحلة المولى احمد يرمون الى جهتهم كذلك فهلك من المحلتين بسبب ذلك بشر كثير ، وأما الحاج عبد القادر فانه فر فى أصحابه بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم ، وكان للقائد محمد فى تلك الليلة ذكر ، ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم وجدوا فيهم من الجرحى نحو الالف ومن القتلى ما يقرب ذلك ، وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر الذين أجهضهم القتال عن حملهم نحو الخمسين وأسروا نفرا أحياء فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب ، ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلى والحرير ونحو ذلك ، فلقد كان للرجل اعتناء بالجيش كما نرى ، ثم أن الخليفة رحمه الله أمر باتباع الحاج عبد القادر فتبعته الكتائب المختارة فكان اللقاء ثانيا بمشرع الرحائل من وادى ملوية قرب البحر عند مسقط ملوية في البحر ، فصدمته الجيوش صدمة أخرى فنى فيها كماته وكسرت شوكته ، وفل حده وخشعت نفسه وأيس من جبر حاله ، ففر الى الفرنسيس ولجأ اليه وترك محلته بما فيها فاستولى جيش الخليفة

عليهـــا .

حكى من حضر أن الخيل كانوا يطردون الجماعة من أصحاب الحـاج عبد القادر وهم راجلون ليأسروهم فمـا كانوا يدركونهـــم الا بعد المسافة البعيدة جدا ، والحاصل ان مقام هذا الرجل فى الشجاعة معروف وبصـارته بمكائد الحرب معلومة لولا ما ذكرناه من انعكاس حـــاله وورومه الاستبداد وخلعه طاعة الامام الحق الذى كانت بيعته فى عنقه .

واعلم أنه قد يقف بعض المنتقدين على ما حكيناه من أخبار هذا الرجل فينسبنا الى تعصب وسوء أدب ، والجواب أنا ما حكينا الا الواقع ، وأيضـــا فلقد قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله : حضرت يومـــا بين يـــدى السلطان أبى عنان فى بعض وفاداتى عليه لغرض الرسالة وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت ما أعتقد فى اطراء ذلك العدو وما عرفته من فضله ، فأنكر عـلى بعض الحاضرين ممن لا يحطب الا فى حبل السلطان ، فصرفت وجهى وقلت: أيدكم الله تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة فى شىء ، بـل غير ذلك أحق وأولى ، فان كان السلطان قد غلب عدوه كان قد غلب غـــير حقير وهو الاولى بفخره وجلالة قدره ، وان غلبه العدو لم يغلبه حقـــير فيكون أشد للحسرة وآكد للفضيحة ، فوافق رحمه الله على ذلك واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض اه

ولما كان هذا الفتح كتب السلطان الى البلاد وزينت الاسواق وأعملت المفرحات ، ونص ما كتب به السلطان بعد الافتتاح : وبعد، فان الفاسد الفتان وخليفة الشيطان ، أبعد فى الجسارة ، وامتطى مطى الخسارة ، واستوســـع سـبيل العناد ، واستظل سبيل الرشاد ، وقـال من أشد منه قوة ، وسـولت له نفسه الامارة الاتصاف بالامارة ، وأراد شق عصا الاسلام وصدع مهـــج الانام ، فأعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح ، واسـتبطن المكر والخداع ، وفاق فيه عابدى ود وسواع ، وشاع فى طرف الايالة ضرره ، وساء مخبره، وهو فى خلال ذلك يظهر مظاهر يستهوى بها أهل الجهالـــة ، والعمايـــة والضلالة ، فأيسنا من رشده ، وعرفنا مضمر قصده ، فجهزنا له محلة منصورة

ذات أعلام منشورة ، جعلنا في وسطها ولدنا الابر سيدى محمد أصلحه الله وأسندنا اليه أمرها ، وقلدناه تدبيرها ، وعهدنا اليه أن يسعى فى حقن الدماء جهد الامكان ، ويحتال على اقامة أود هذا الفتان ، وأن يعالج داءه بكل دواء ، وأن لا يتبع فيه الاغراض والاهواء ، وأن يجعل القتال آخر عمله ، وعدمه غاية أمله ، فلما رأى عدو نفسه احاطة الجيوش به ، وجه وفدا من قبله يدعى التوبة فيما مضى ، والكون على وفق المقتضى ، فأجباهم بأن أحب الحديث الى الله أصدقه ، ان صاحبكم هذا ان أراد الخير لنفسه ، واحتاط لدينه وعمل لرمسه ، يختار أحد أمرين : اما أن يدخل لايالتنا هو ومن معه آمنين على أنفسهم ومالهم ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا أو يصحر ، فطلبوا منا الامهال حتى يوجهوا بعضهم يخبرونه بالملاقاة ، ويستدركون الامر قبل الفوات ، فأجبناهم الى ذلك فما وصلوا حتى ضرب على المحلة ليلا فرده الله بالخيبة ، وأشوه أوبة ، وترك قتلاه صرعى بعد ما حمل منهم عددا وجعل يدفن منهم فى قفوله ، ويخفى ما حل به فى أفوله ، فتقدمت اليه المحلة الغالبة بالله وقاتلته قتالا اذاقته فيه الوبال والخبال ، فكانت الكرة عليه فأجفل اجفال النعام ، واستدبر المعركة وهام ، ومات من خاصته ورؤسائه وأهل شدته وذوى بأسائه عدد معتبر ، ومن هو أدهى وأمر ، وعادت جموعه جمع تكسير ، وجيوشه موزعة بين قتيل وأسير ، وسخر بهم بعد أن كانوا ساخرين ، وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، ومن الله أستمد التوفيق والهداية الى أرشد طريق والسلام ، فى الثانى والعشرين من محرم الحرام فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف وأما الحاج عبد القادر فانه فر الى الفرنسيس كما قلنا فبقى عنده مدة

قال صاحب قطف الزهور ما صورته : لما فر الحاج عبد القادر الى الفرنسيس بقى عندهم ست سنين ثم أعتقه نابليون الثالث وعين له مرتبا سنويا يدفع اليه من بيت مال الدولة فسكن دمشق الشام ولم يزل قاطنا بها الى هذا اليوم اه . قلت : وهو الآن فى قيد الحياة حسبما يبلغنا والله تعالى يتولى أمر المسلمين ، ويتداركهم بلطفه وفضله آمين

قال أبو عبد الله اكنسوس : وفى ضحى يوم الاثنين الرابع من المحرم فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف توفى الوزير الاعظم ، الفقيه الاجل الاكرم ، امام عملة اليراع ، ومقدم حملة ذلك الشراع ، مقلد الدولة بقلائد النثار والنظام ، فى المواقف العظام ، والمزرى ببدائعه ، وأوابده وروائعه ، ببديع الزمان ، والفتح بن خاقان ، أبو عبد الله محمد بن ادريس جدد الله عليه ملابس الرضا كلما لاح نجم وأضا ، فولى السلطان مكانه الفقيه النجيب ذا الاخلاق العاطرة ، والانامل الواكفة الماطرة ، والرأى الاصيل والامر المحبوك ، والباطن الصافى الذى يحاكيه الذهب المسبوك ، أبو عبد الله محمد العربى بن المختار الجامعى ، ثم لما قدم السلطان رحمه الله لحضرة مراكش ، آخر قدمة قدمها سنة سبعين ومائتين وألف عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب اليحيى النزيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله الصفار التطاونى

وفى أوائل رمضان من هذه السنة أعنى سنة أربع وستين ومائتين وألف خرج السلطان رحمه الله من فاس الى ناحية وجدة ، فوصل الى عين زورة فوقف على تلك النواحى وأصلح من شأنها وعاد الى فاس ليلة عيد الاضحى من السنة

وفى سنة خمس وستين ومائتين وألف كانت فتنة عرب عامر بأحواز سلا وفتنة عرب زعير بأحواز رباط الفتح ، وكلب هاتان القبيلتان على المدينتين وألحوا عليهما بالغارات والنهب والمبالغة فى العيث والافساد بالطرقات والجنات واستاقوا السرح مرارا وبقى النتاج عند أربابه حتى هلك ضياعا الى غير ذلك ، ولما تجاوزوا الحد فى الطغيان بعث السلطان وصيفه الباشا فرجى صاحب فاس الجديد فأوقع بعامر وقعة شنعاء رابع يوم النحر من السنة ومزقهم شذر مذر بعد أن تحصنوا بالغراك فيما بين سلا والمهدية

وفى هذه السنة حج ولد السلطان المولى الرشيد والمولى سليمان واعتنى بشأنهما صاحب مصر وصاحب الحجاز غاية ورجعا من السنة القابلة .

وفى هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب كان يطلع فى ناحية المغرب ويغرب

بعد العشاء مدة من شهر ونحوه ، ففزع الناس من ذلك وتخوفوه كما قال أبو تمام :

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة اذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

وفى سنة ست وستين ومائتين وألف أحدث السلطان المكس بفاس وغيرها من الامصار ، أحدثه أولا فى الجلد على يد المصطفى الدكالى ابن الجيلانى الرباطى ، والمكى القباج الفاسى ، ثم أحدثه فى البهائم ، ثم تفاحش أمره فى دولة ابنه السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله وهلم جرا .

وفى هذه السنة وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان توفى ولى الله أبو عبد الله سيدى عبد القادر العلمى البركة الشهير صاحب الازجال الملحونة وكانت وفاته بمكناسة الزيتون ودفن بحومة سيدى أبى الطيب وعليه بناء حفيل الى الغاية رحمه الله ورضى عنه . وفى هذه السنة بعث السلطان ولده المولى عبد القادر وهو ابن اثنتى عشرة سنة الى سلا بقصد القراءة بها فنزل بدار قاضيها أبى عبد الله محمد بن حسون عواد وكتب اليه السلطان رحمه الله بأن يعود الولد المذكور الخشن من المطعم والملبس ، وأن لا يمكنه من شرب الاتاى الا مرة أو مرتين فى الجمعة . وفى هذه السنة أيضا كان الغلاء الكبير والجوع المفرط وكان أكثره بقبائل الحوز من ابن مسكين رعبدة ودكالة وغيرهم ، فأهرعت هذه القبائل الى بلاد الغرب والفحص وأكلت الناس الجيف والميتة والنبات وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخبيزى وعام يرنى ، وكان الرجل يأكل ولا يشبع ، واذا أمعن فى الاكل وتضلع شبعا لم تمض الا هنيئة حتى تضطرم أحشاؤه جوعا ، وكان المد بسلا ورباط الفتح وهو مد كبير جدا قد بلغ ثمانية عشر مثقالا فجعله العامة تاريخا يقولون كان ذلك عام ثمانية عشر مثقالا .

وفى سنة سبع وستين ومائتين والف وذلك ليلة الاربعاء الثالث والعشرين من ربيع الثانى منها توفى الفقيه العلامة القاضى بسلا أبو عبد الله محمد بن حسون عواد ودفن بزاوية الشيخ سيدى أحمد بن عبد القادر التستاوتى من

حومة باب أحسين من المدينة المذكورة وكان رحمه الله عارفا بالفقه والحديث والنحو قد أفنى عمره فى جمع الكتب ونسخها وخطه معتمد سالم من التصحيف ، وكانت فيه شفقة على الضعفاء والاشراف وذوى البيوتات ، كثير البرور بهم والاحسان اليهم رحمه الله . وفى يوم الاربعاء فاتح هذه السنة توفى الشريف البركة الافضل أبو عبد الله سيدى الحاج العربى بن على الوزانى ، وكان جليل القدر شهير الذكر نفعنا الله به وبأسلافه .

وفى سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجم الفرنسيس على ثغر سلا وذلك بسبب مركبين وردا الى مرسى العدوتين مملوءين قمحا وكانت السنة سنة مسغبة فنشب المركبان بساحل سلا فتسارعت العامة اليهما وانتهبوهما ثم تجاوزوا ذلك الى ألواح المركبين وآلتهما فتوزعوها ، وكان المركبان لتجار الفرنسيس فتكلموا فى شأنهما مع السلطان رحمه الله فكتب الى عامل سلا أبى عبد الله محمد بن عبد الهادى زنيبر يستكشفه عن الخبر فجحد ذلك ظنا منه أنه يدفع بذلك عن البلد ، ولما لم يحصل الفرنسيس بالكلام مع السلطان على طائل هجم على سلا يوم الثلاثاء مهل صفر من السنة المذكورة فى خمسة بابورات وقاباق كبير ، ويقال له النابيوس ، يشتمل على نحو ستين مدفعا أو أكثر ، ومن الغد زحف بمراكبه حتى سامت بها البلد فى الساعة العاشرة من النهار وشرع فى رمى الكور والبنب الا واحدا منها فانه تباعد قليلا وبقى ينظر قيل هو للنجليز ، وكان ترادف الكور والبنب على البلد على صورة فظيعة مثل الرعد القاصف تكاد تنهد له الجبال ، وكان فى أول النهار لا يفتر وبعد الزوال صار تتخلله فترات يسيرة ، واستمر الحال على ذلك الى أن غربت الشمس ومضى نحو نصف ساعة وكانت مدة الرمى ثمانى ساعات ونصفا ، وبذل الناس مجهودهم فى مقابلتهم بالرمى وفى آخر النهار عجز الناس وبقى يرمى وحده واستشهد من المسلمين نحو سبعة أنفس ، وكان الكور والبنب الذى رمى به العدو فى ذلك اليوم شيئا كثيرا ، فالمقلل يقول سبعة آلاف ، والمكثر يقول اثنا عشر ألفا ، وكان البنب يتفرقع بعد مدة وقتل أناسا ووقع فى المسجد الاعظم ومناره كور

كثير خرق السقوف والحيطان وكذا فى دور أهل البلد فأنعم السلطان على الناس باصلاحها من بيت المال .

وقد ساق منويل خبر هذه القصة وقال : انه لما انقضى للفرنسيس الزاد يعنى الكور والبارود أقلع ليلا لانه خاف ان لم يذهب طوعا ذهب كرها ، ولما اتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو يومئذ بفاس كتب كتابا يقول فية ما نصه : الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، عبد الرحمن بن هشام الله وليه ، خديمنا الارضى الطالب محمد بن عبد الهادى زنيبر وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ، فقد وصلنا كتابك مخبرا بما صدر من مراكب عدو الله الفرنسيس من استرسال الرمى على المدينة من ضحى النهار الى قرب العشاء ، ثم أقلعوا بالخيبة والهوان وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا ، ومنح الله المسلمين من الصبر والثبات واليقين ما قرت به عين الدين ، وكان قذا فى عين أهل الشرك المعتدين ، واستشهد من المجاهدين من ختم الله له بالسعادة الابدية والحياة السرمدية، فالحمد لله على اعزاز دينه ونصر ملة نبيه ، ولا زالت والحمد لله مشكاة الاسلام ساطعة الانوار ، مشيدة المنار ، (والله متم نوره ولو كره الكافرون)، ولا يخفى عليكم ما ورد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فى فضل الجهاد فى سبيل الله والصبر لاعلاء كلمة الله ، وقد قمتم بالواجب عليكم فى ذلك وكنتم عند الظن بكم وأتيتم بالمطلوب منكم أصلحكم الله ورضى عنكم ، ومن قتل فقد أكرمه الله بالنعيم الذى لا نفاد له وكل ما تلف يخلفه الله فما كان فى الله تلفه فعليه سبحانه خلفه ، فزيدوا فى التيقظ والصبر أعانكم الله ، وقد أمرنا خدامنا أمناء العدوتين بتوجيه معلمين للغابة لقطع الكراريط وكتبنا لخديمنا ابن الحفيان بانزال خيام بقربهم ياوون اليها حسبما طلبت ولا تعدمون شيئا مما يخصكم ان شاء الله ، وما ذكرت من اجتماع أهل المدينة عندك مع القاضى والامين راغبين فى الكتب لحضرتنا العلية بالانعام عليهم بما يصلحون به صقالتهم ومساجدهم ودورهم وأسوارهم فها نحن كتبنا لامناء العدوتين بالقدوم عليكم والتطواف على المحال المتهدمة

دور وغيرها بمحضرك مع القاضي والعدول وتقويم اصلاح كل محل بالمناسب، وأما الجامع الكبير وسيدى ابن عاشر فيسرون لهما الاقامة وعند تيسيرها يشرعون في اصلاحهما ، وأما الصقالة الجديدة والسور فيشرعون الان في اصلاحهما اصلاحا متقنا بالطابية الجيدة التي لا يؤثر الكور فيها شيئا ويجعلون لها ساترا على كيفية بحيث يكون الضارب في أمان ولا تتراخوا في ذلك ، ونحن على نية احداث بستيون جيد ان شاء الله عند منتهى السور من جهة الصقالة الجديدة فالعزم العزم والحزم الحزم ، ويصلك كتاب اقرأه على خدامنا أهل سلا والسلام ، في ثامن صفر عام ثمانية وستين ومائتين وألف انتهى نص الكتاب الشريف وقد أحدث السلطان رحمه الله هذا البستيون فجاء في غاية الجودة والمتانة والحسن وهو أثر من آثار الدول العظام .

وفي هذه السنة ورد كتاب من السلطان في شأن حصر السكة يقول فيه ما نصه : وبعد ، فقد طالما حاولنا حصرالزيادة في السكة وحذرنا وأنذرنا وأوعدنا من تعدى فيها حدا أو مد فيها بغير ما عينا يدا فلم يزد الناس الا تطاولا فيها واقداما عليها فاستخرنا الله في أمرها فظهر لنا أن نزيد فيها ما تواطأ الناس على زيادته ولم يرجعوا عنه تتميما للاعذار وتكميلا للانذار، فمن وقف عند ما حددنا ولم يحد عما أبرمنا فقد اختار سلامة نفسه وماله ، ومن تعدى وافتات في ذلك بأدنى شيء فقد سعى في هلاك نفسه وينساله من الوبال والنكال ما يتركه عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تذكر ، وقد أعذر من أنذر ، وها نحن جعلنا للبندقي أربعين أوقية ، وللضبلون اثنين وثلاثين مثقالا ، وللريال ذى المدفع عشرين أوقية ، وللذى لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية ، وللبسيطة التى بالمدفع خمس أواق ، وللتى لا مدفع فيها أربع أواق، وللدرهم الرباعي أربع موزونات ونصف موزونة ، وللدرهم السداسي سبع موزونات، فعلى هذا العمل ، فاعلموا به من الى نظركم وفي ايالتكم ومروهم بالوقوف عنده ومن حاد عنه وشممتم عليه رائحة الخوض والتعدى فيه ازجروه زجرا شديدا واعلمونا والسلام ، في رابع عشر ربيع الثاني عام ثمانية وستين ومائتين وألف .

وفي سنة تسع وستين ومائتين وألف غزا السلطان رحمه الله قبيلة زمور الشلح وكان بمكناسة فكتب أولا لابنه وخليفته سيدي محمد بمراكش فنهض منها ومر على تادلا فأوقع ببني موسى ، وقطع منهم أربعة وستين رأسا وقبض على مائة وخمسين مسجونا وكانوا قد قتلوا عاملهم أبا العباس أحمد ابن زيدوح ، ثم دخل الخليفة رباط الفتح يوم الاثنين الحادى عشر من شوال من السنة المذكورة فأقام به الى يوم السبت السادس عشر منه ثم عبر الوادي ونزل بقرميم من أعمال سلا ، ثم سافر من الغد وبات بسيدي علال البحراوى فأقام هنالك يومين ، ثم رحل فنزل بتيفلت وأقام أياما ثم تقدم الى دار ابن الغازي وكان السلطان رحمه الله قد خرج من مكناسة فنزل الخميسات وشن الغارات على زمور فتوغلوا فى الجبال فانتسف السلطان أموالهم وأكل زروعهم حتى أشجاهم ثم ارتحل عنهم الى مراكش ، وارتحل الخليفة الى فاس وذلك في السادس والعشرين من ذى القعدة من السنة ، ومن هذا التاريخ صار السلطان والخليفة رحمهما الله يغزوانهم كل سنة ، يجتمعان عليهم فتنتسف الجنود زروعهم وأموالهم حتى أضر بهم الحال وأشرفوا على الهلاك وكادت تعدم عندهم الاقوات وأذعنوا الى الطاعة طوعا وكرها ، ولما نهض السلطان عنهم فى هذه المرة كتب كتابا يقول فيه : وبعد، فان فساد زمور يعرفه الخاص والعام والجمهور : أشد سوادا من الليل وأتوى مضاهاة بالسيل ، وطالما ذكرناهم ووعظناهم ، وحذرناهم وأنذرناهم ، وغضضنا الطرف عنهم مقابلين شدتهم باللين ، وتحريكهم بالتسكين ، فأطغاهم العجب وأبطرهم ، وغطى الشر سمعهم وبصرهم ، (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) ، ولما رأينا ضلالهم لم يسفر عنه صبح الاقلاع ، وشعائر الاسلام استولت عليها يد الضياع ، استنهضنا اليهم الجيوش المنصورة ، التى لم تزل ألوية الفتح أمامها بحول الله منشورة ، واستقدمنا ولدنا الابر سيدى محمدا حفظه الله من مراكش فى جيش يقدمه اليمن والاقبال ويسوقه السعد فى المقام والترحال ، ونهضنا نحن من مكناسة الزيتون فى جيش شحن الفضاء وملا النواحي والارجاء ، خيلا ورجالا خفافا وثقالا ، وكنا فيما

تقدم نحارب هؤلاء المفسدين فى المحل المشهور بالخميسات فكانت المحال لا تستوعبهم قتلا ونهبا وتشريدا وضربا ، فرأينا هذه المرة أن ننزل عليهم أولا بعين العرمة محل أفسدهم على الاطلاق والشمول والاستغراق ، فخيمنا بها أياما ثم رحلنا منها ونزلنا بمحصى ثم رحلنا منه ونزلنا الخميسات ، وفى خلال مقامنا ورحيلنا حل ولدنا سيدى محمد حفظه الله من الرباط ونزل بتيفلت محل المفسدين ، ومحط رحال البغاة المعتدين ، وتقاربت المحلتان فعظمت على المفسدين بذلك النكاية وبلغت فيهم الحد والنهاية ، واشتغلت المحال بأكل زروعهم وتبديدها واستخراج خباياهم قديمها وجديدها ، وهم حيارى ينظرون ، والى ما حل بهم من البلاء يصرون ، وكلما عزموا على المدافعة رجعوا بالهوان ، وتخطفت رؤوس زعمائهم العقبان ، فعجزوا اذا وخرجوا من بلادهم وأيقنوا أن الشقاء المكتوب عليهم حكم بطردهم وبعادهم ، ولم يبق بها أنيس الا اليعافير والا العيس ، وتحصنوا بأوعارهم المعلومة وصياصيهم المشئومة ، فى جبال تنقبت بالغيوم وكادت تصافح النجوم ، فضاق بهم الحال وهلك العيال ، وضاعت الاموال جوعا وعطشا ، وتصرف فيهم البلاء كيف شا ، ومع تحصنهم بتلك الاوعار وملتف تلك الاشجار ، كانت الجيوش تود أن تقتحمها عليهم وتهب نفيس أعمارها فى أخذهم ، ونحن قد هبنا الرفق الذى يزين وتركنا الخرق الذى يشين ، فأمرنا بالامساك عنهم حتى تلفظهم أوعارهم وتحرقهم نارهم ، فلما طال بهم الامد وتجرعوا حما الكمد ، استجاروا بولدنا سيدى محمد حفظه الله فشفع عندنا فيهم فقبلنا شفاعته على شروط قبلوها وحقوق التزموها ومثالب نبذوها ، وجنحنا الى الحلم والعفو اللذين أمر الله بهما ، وأسندنا أمرهم الى ولدنا المذكور قطعا لاعذارهم ونهضنا عنهم والحمد لله محتسبين ، والله أسأل توفيق المسلمين أجمعين آمين ، فى السادس والعشرين من ذى القعدة الحرام عام تسعة وستين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف .

وفى هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضا ، وفى أوائلها استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الافضل أبا عبد الله محمد بن عبد الله

الصفار التطاوني عقب قدومه الى مراكش ، وفيها تم بناء البستيون العظيم بسلا الموضوع بالزاوية الشمالية منها على شاطىء البحر ، وكان الصائر عليه بأمر السلطان من أحباس المسجد الاعظم برباط الفتح خمسون ألف مثقال أو ما يقرب منها ، وفيها أيضا وقعت نادرة بفاس وهي أن الامام كان يخطب يوم الجمعة بمسجد القرويين فسقط بالصف الثالث منه قطعة من الجبص المبني به السقف تزن نحو ربع قنطار ففر الناس الذين كانوا بذلك الصف فرآهم الذين من خلفهم ففروا لفرارهم فرآهم غيرهم ففعلوا مثلهم حتى تقوضت صفوف المسجد كلها وخرجوا يتسابقون الى الابواب ووقع عليها ازدحام شديد وجاوزت مقدمتهم سوق الشماعين وتركوا نعالهم ولبدهم وطيالسهم بل وقلانسهم وضاع من المصاحف والاجزاء ودلائل الخيرات ما لا يحصى ، كل ذلك وهم لا يدرون ما وقع وما تراجعوا الا بعد حين

ثورة ابراهيم يسمور اليزدكي بالصحراء

لما كانت أواسط احدى وسبعين ومائتين وألف ظهر ابراهيم يسمور اليزدكي بصحراء تافيلالت وكان السبب في ذلك أن برابرة الصحراء يومئذ كانوا حزبين : حزب آيت عطة ولهم العزة والكثرة بذلك القطر ، وحزب آيت يفلمان وهم دون ذلك ، وكانت آيت عطة تؤذي الاشراف بتلك الناحية وتسيء جوارهم فقام ابراهيم هذا في آيت يفلمان وجنح الى الاشراف وبالغ في اكرامهم والاحسان اليهم وصار يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويذكر السلطان بخير ويحض قومه على طاعته حتى اشتهر بذلك القطر وكثر الثناء عليه ، واتفق أن حدث في أثناء ذلك بينهم وبين آيت عطة شنآن فزحف اليهم ابراهيم وأوقع بهم وقعة بعد العهد بمثلها فازداد قومه فيه محبة وغبطة وعلقت به آمال الاشراف وأحبوه لان غلبة آيت عطة يومئذ كانت من الامر الغريب ، وانضم الى ذلك بسط يده بالعطاء للبعيد والقريب واتصل خبره

بالسلطان وكان من طبعه رحمه الله محبة أهل الخير والجنوح لهـــم ، فأقبل عليه ورفع من قدره وولاه على تلك الناحية فاشتد أمره وطار ذكره وسرت فيه نخوة الرياسة فأراد الاستبداد واستحال حاله الى الفساد ، حتى صــار يرد على السلطان أوامره ، ثم تدنى قليلا قليلا من أطراف المملكة وقــوى حسه بالمغرب فكتب اليه السلطان رحمه الله الكتائب وبعث البعوث فقاتلـوه برهة ثم قيض الله بعض قرابته فاغتاله واحتز رأسه وجــاء بــه متقربا الى السلطان وهو يومئذ بمراكش فأمر السلطان باعمال المفرحات واستدعى أهـل مراكش على طبقاتهم فأفاض عليهم النعم وغمرهم بالاحسان غمر الديم .

«نادرة» كان ممن استدعاه السلطان رحمه الله فى هذا الصنيع أهـــل المدارس من طلبة العلم المتغربين بها ، فجلسوا ناحية من القوم ولمــا خرج الطعام من دار السلطان وفرق على طبقات الناس اتفق تأخيره عــن هؤلاء الطلبة ، واتفق أيضا أن سأل بعض الحاشية بعض الاعوان القائمين على الطعام فقال له : من الذى بقى بدون اطعام فقال : لم يبق الا الطلبـــة والطحانون وكان كذلك فسمعه أحد الطلبة فقال لاصحابه : ألا تسمعون الى مـا يقول هذا ؟ فقالوا : وما قال ؟ قال لهم : قال انه لم يبق الا أنتم والطحانون فقد شوركتم معهم بالعطف بالواو والله لا جلستم ، وقاموا مغضبين فتبعهم بعض حاشية السلطان واستعطفهم فلم يرجعوا ، واتصل الخبر بالسلطان فقــال : دعهم فسنصلح شأنهم ، ومن الغد دعاهم الى بستان الوزير ابن ادريس داخل باب الرب من مراكش وأفاض عليهم من النعم ما غمرهم ثلاثة أيام حـتى رضوا ، ثم عمدوا الى ثمار البستان فاستلبوها عن آخرها وهذه القصة تدل على كرم طبع السلطان رحمه الله وسعة أخلاقه وتعظيمه للعلـــم وأهله ، وقد ذكرت بهذه النادرة قول القائل :

اذا شوركت فـــى أمـــر بدون   فـــلا يك منك فى هذا نفـــور
ففـى الحيوان يجتمـــع اضطرارا   أرسطاليس والكلب العقـــور

وتحقيق مسألة هذا العطف مذكور فى باب الفصل والوصل من علـــم المعانى ، وبستان ابن ادريس هذا هو الذى يقول فيه أبو عبد الله أكنسوس

رحمه الله :

ألم بمغنى اليمن من ذا المجلس ... وأدر بساحته نجوم الاكؤس

وأسعد فان الدهر أسعد أهله ... وأحلهم فيه حلول المعرس

وأشرب هنيء البال في جنباته ... يغنيك عن جيرون أهل المقدس

واصرف عن الزهراء ذكرك ساليا ... وعن الخورنق والرسوم الدرس

لو قلت ما نالت بدائع حسنه ... غرف البديع وحق مجدك لم تس

نصر تحف به المحاسن كلها ... وتحار في مرآه عين الاكيس

فاذا أردت اصابة الاغراض من ... كل المنى أو كل معنى أنفس

أرسل مهام اللفظ في أكنافه ... ان الحنايا الحدب فيه كالقس

لا شيء أهنى من تفيىء ظله الـ ... مخضل أو من زهره المتنفس

تمثل الازهار في أنهاره ... مثل المجرة والنجوم النكس

وترى الجداول تلتوى بغصونه ... تحكى البرين عن الغواني الميس

طابت حسى الكاسات تحت ظلاله ... وتسابقوا اللذات نحو المحتس

يامنزلا قد خصته سعادة ... واستبدلته أنعما من أبؤس

أصبحت مأوى للوزير محمد ... نجل الادارسة الكرام المغرس

انسان عين الكون من لبست به ... رتب العلى أبهى وأبهج ملبس

ياأيها البحر الذى من فيضه ... كل الامانى والغنى للمفلس

يهنيك ذا القصر الذى انشأته ... بالسعد في عام انشراح الانفس

قابل قدود الدوح في جنباته ... بالغيد ترفل في بهى السندس

ومتى شربت زلاله فامزج به ... راح المراشف من أغن ألعس

لا زلت تشرف من مطالع سعده ... كالبدر يظهر من خلال الحندس

والدهر يخدم جانبيك ويحتمي ... بجلالك العالى الاعز الاقعس

وفي هذه السنة أعني سنة احدى وسبعين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب وهو اسهال مفرط يعترى الشخص ويصحبه وجع حاد في البطن والساقين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد لون فاذا تمادى بالشخص حتى جاوز أربعا وعشرين ساعة فالغالب السلامة والا فهو الحتف ، وفي هذا

الوباء مات شيخ الطريقة أبا عبد الله سيدى محمد الحراق التطاونى ، وبموته أقلع الوباء من تلك البلدة ، ومات به بسلا منتصف ذى القعدة من السنة مائة وعشرون نفسا ، وفى هذا اليوم توفى عامل سلا أبو عبد الله محمد بن عبد الهادى زنيبر .

وفى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف التفت الخليفة سيدى محمد ابن عبد الرحمن الى عرب الخلط فاستعملهم فى الجندية بعد أن كانوا فى عداد القبائل الغارمة من لدن المنصور السعدى فاعتنى بهم الخليفة المذكور ونقلهم من بلاد سفيان وبنى مالك وأحواز العرائش وأنزلهم بزقوطة ووادى مكس من أعمال مكناسة ، وكساهم وأجرى عليهم الجرايات ثم اختل أمرهم بعد سنتين أو ثلاث .

وفى سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف ورد كتاب من السلطان رحمه الله يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه : خديمنا الارضى الطالب عبد العزيز محبوبة وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ، فبوصول كتابنا هذا اليك عين عشرين من الولدان النجباء لتعلم علم تاطبجيت وانظر لهم معلما ماهرا أو معلمين من طبجية البلد يعلمهم ويشرعون فى التعلم الان فيبدأون بمقدماته ثم يتدربون منها الى الاخذ فى تعلم رماية المدفع والمهراس وهكذا حتى ينجبوا ويمهروا فى الصنعة ويصيروا قادرين على الخدمة ، ونطلب الله أن يعينهم ويفتح بصائرهم ، وهؤلاء العشرون يكونون زائدين على من هنالك من الطبجية ، ونأمر الامناء أن يرتبوا لهم اعانة على ذلك خمس عشرة أوقيةفى كل شهر للواحد، ثم من ظهرت نجابته منهم وفاق غيره فانا نزيده فى المرتب ، كما نأمرهم أن يرتبوا لمعلمهم واحد أو اثنين ثلاثين أوقية للواحد فى كل شهر زيادة على راتبهم المعلوم ، واعتن بأمرهم غاية الاعتناء ، وقد كتبنا لغيركم من المراسى مثل هذا وسننظر من تظهر ثمرته واعتناؤه والسلام، فى عشرين من ذى القعدة عام ثلاث وسبعين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف .

وفى هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان وبين النجليز وهى

قسمان : قسم فى أمور التجارة ، وبيان الصاكة والاعشار ، وأن لا تعطى من أعيان السلع الا اذا أراد التاجر ذلك عن طيب نفسه وهى خمسة عشر شرطا . وقسم فى أمور الهدنة بشمول الامن والاحترام لرعيتى الجانبين فى أى موضع كانوا ، وهى ثمانية وثلاثون شرطا ، وكان المباشر لعقدها أبو عبد الله محمد الخطيب التطاونى بطنجة .

بعث السلطان المولى عبد الرحمن اولاده الى الحجاز وما اتفق لهم فى ذلك

وفى سنة أربع وسبعين ومائتين وألف بعث السلطان رحمه الله أولاده الى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج وهم المولى على والمولى ابراهيم والمولى عبد الله والمولى جعفر وابن عمهم المولى أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد ابن عبد الله وبالغ السلطان رحمه الله فى حسن تجهيزهم بمالم يتقدم مثله لاخوتهم الذين حجوا قبلهم لامن الاموال ولا من الرجال ولا من الادوات والمراكب الفارهة والمرافق العديدة ، وبعث معهم من الاموال شيئا كثيرا لاشراف الحرمين ، ولخواص معينين من الفقهاء والمجاورين ، ووجه أكابر التجار والامناء العارفين بعوائد البلاد والاقاليم والامم ، مثل الحاج محمد ابن الحاج أحمد الرزينى التطاونى ، والحاج محمد بن جنان البارودى التلمسانى ، وبعث معهم قاضى مكناسة الفقيه العلامة السيد المهدى بن الطالب ابن سودة المرى الفاسى وأخاه الفقيه العلامة السيد أحمد ابن سودة فى جملة من الفقهاء يقرأون عليهم .

أخبرنى الحاج عبد الكريم ابن الحاج أحمد الرزينى وهو أخو الحاج محمد المذكور آنفا أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله لما عزم على بعث أولاده الى الحجاز استدعى الامين الحاج

محمد المذكور فدخل عليه فأوصاه بما تنبغي الوصاة به وأخبره أن المال الذى عينه للنفقة على الاولاد المذكورين هى نفقة جمعت من حلال بعضها من أصول بتافيلالت وبعضها من غيرها مما هو حلال وقال له : احتفظ بذلك المال واجعل السخاء فيه بمنزلة الملح فى الطعام ، اه ولما عزم الاولاد المذكورون على الانفصال الى وجهتهم أصحبهم السلطان رحمه الله وصية كافية يقول فيها ما نصه : الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أولادنا عبد الله وابراهيم وعليا وأبا بكر وجعفرا وفقنا الله وإياكم للعمل بطاعته وحفظكم وارشدكم وتولاكم ، وكان لكم فى سائر أحوالكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ، فانه لما كانت الاولاد قطع الاكباد وعماد الظهور وثمار القلوب وشفاء الصدور ، وجب أن يكون لهم الآباء السماء الظليلة والسحابة المنيلة ، وخير الآباء للابناء مالم تدعه المودة للتفريط فى الحقوق ، وخير الابناء للآباء مالم يدعه التقصير الى المخالفة والعقوق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الاولاد من رياحين الجنة» وقال القائل :

وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الارض
ان هبت الريح على بعضهم تمتنع العين من الغمض

هذا وان أولى ما زود به والد ولده وصية يتخذها فى سفره امامه ومعتمده ، فاعلموا انا وجهناكم لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، واستودعناكم الله الذى لا تضيع ودائعه ، فاقدروا قدر هذه الوجهة التى قصدتموها ، واعرفوا حق هذه العبادة التى يممتموها ، فتوجهوا لها بحسن النية راجين من الله سبحانه بلوغ القصد والامنية ، وأوصيكم بتقوى الله فى السر والعلانية فان خير الزاد التقوى ، وبما أوصى به ابراهيم بنيه (يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون)، وبما قال لقمان لابنه وهو يعظه : (يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم، يابنى أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر) ، الآية واستوصوا ببعضكم بعضا خيرا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، وأخوكم مولاى عبد

الله أكبركم فكونوا عند اشارته فان للسن حقا فى التقدم ، وفى الحديث الشريف : كبر كبر، ومنذ نوينا توجيهكم لهذه الوجهة السعيدة ونحن نجيل الفكر فيمن نوجهه معكم حتى وقع اختيارنا على خديمنا الحاج محمد الرزينى لكونه نعم الرجل واجتمع فيه من الاوصاف المحمودة ما افترق فى غيره ، فكونوا له بمنزلة الاولاد البررة وليكن لكم بمنزلة الوالد الشفيق كما قال القائل :

وكان لها أبو حسن على أبا برا ونحن له بنين

وآزرناه بالحاج أبى جنان البارودى لمروءته وحسن هديه وسمته وكلاهما خير والحمد لله ، وآثرناكم على أنفسنا بالفقيه الاوحد المشارك السيد المهدى ابن سودة وتوجه معه أخوه وهو أيضا ممن يشفع بعلمه فأوفوا كل واحد منهم قسطه ومستحقه مما أرشد اليه الرسول فهذب وأدب اذ قال: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه» وحافظوا على دينكم واشتغلوا بما يعنيكم ، واتركوا ما لا يعنيكم، ففى الحديث الشريف: « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » واعكفوا على قراءتكم ولا تضيعوا الاوقات فى البطالة خصوصا ما يتعلق بالعبادة التى أنتم بصددها ، فمن الان اصرفوا كليتكم لقراءة المناسك وابدأوا بأسهلها وأقربها مناسك المرشد المعين ثم منها الى ما هو أوسع فروعا وأكثر مسائل ، وعلى الفقيه السيد المهدى المذكور أن لا يألوا جهدا ونصيحة فى تعليمكم والقراءة معكم ، واجعلوا أيضا وقتا مع أخيه فانه من طلبة الوقت المدرسين فلم يبق لكم عذر فى التقصير والبطالة وكل من توجه معكم من الاصحاب والاتباع والدايات فهو فى رعايتكم ، وفى الحديث : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» فعلموهم أمر دينهم ومناسك حجهم وخاطبوهم فى ذلك على قدر ما يفهمون ليكون عملهم فى صحيفتكم ، وفى الحديث : «خيركم من تعلم وعلم » وفيه أيضا : «لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس» وتحلوا بحلية أهل الفضل والكمال ، وكونوا على ما ينبغى من الادب مع الخلق ومع الخالق ، وهذبوا أخلاقكم وهشوا وبشوا لملاقاة الناس وعاملوا

كل واحد بما يستحقه ، ولا زال الناس يذكرون هنالك أخاكم مولاى سليمان أصلحه الله ويدعون له فى تلك الاماكن الشريفة لما رأوا من سعة أخلاقه وحسن بشره وبشاشته مع الناس ، ونعهد اليكم أن لا تتركونا من الدعاء فى أى موطن حللتموه من تلك المواطن الشريفة خصوصا عند الملتزم والمقام وغيرهما من الاماكن التى ترجى اجابة الدعاء عندها ، ونوبوا عنا فى استلام الحجر الاسعد وفى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه وعلى صاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وعليكم بالاستقامة فى جميع أموركم وسلوك سبيل الموافقة والائتلاف ، وترك المشاجرة والاختلاف، ومخالفة الهوى والنفس والشيطان فان له مزيد تسلط بالشر فى طرق الخير فكونوا فى جميعها على حذر قال تعالى : (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) نسأل الله لكم الحفظ والسلامة والامن والعافية ذهابا وايابا فى أنفسكم وديكم ودنياكم ، ونستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتم عملكم فتوجهوا فى حفظ الله على مهل حتى تصلوا الى القصر وأقيموا به فى جوار أبى الحسن ابن غالب نفعنا الله واياكم ببركاته كما فعل اخوانكم قبل فا ن المقام بالقصر خير من المقام بطنجة حتى يقدم البابور ويكتب لكم الخطيب بالاعلام وحينئذ توجهوا اليها راشدين ، وقد كتبنا بذلك للطالب محمد الخطيب ، وطالعوا الحاج محمد الرزينى على كتابنا هذا حين تلاقوا معه ان شاء الله ، واعلموا أننا عينا عشرين ألف ريال بقصد أن يشترى بها حبس فى سبيل الله عشرة آلاف ريال يشترى بها ما يكون حبسا بمكة ، وعشرة آلاف ريال يشترى بها ما يكون حبسا فى سبيل الله بالمدينة المنورة ، وهى من جملة ما حاز الحاج محمد الرزينى ورفيقه فيما حازا من الصائر رجاء أن يبقى أجر ذلك جاريا منتفعا به ان شاء الله والسلام ، فى السادس من رمضان المعظم عام أربعة وسبعين ومائتين وألف .

قال أكنسوس : وكان ركوبهم من طنجة فى قرصان النجليز ، فلما بلغوا الى الاسكندرية تلقاهم صاحب مصر بغاية الفرح والسرور وفوق ما يوصف من الاكرام والبرور ، وأنزلهم فى أعز مساكنه وأبهاها وأبهجها

وأشهاها ، وأعد فيها كل ما يحتاج اليه مــن أوانى الفضة والذهب وفرش الحرير والديباج والنفائس الغريبة ، ورتب لهم الرواتب العالية مـن أنـواع الاطعمة والاشربة الفاخرة الملوكية التى تناسب أقدارهم ، وأباح لهم الدخول الى كل محل أرادوا رؤيته من الابنية والمصانع والرياض والبساتين الملوكية التى يتعجب من رؤيتها وتنقل أخبارها فشاهدوا من ذلـك مـا لا يكشف حقيقتـه اللسان، وما لا يظن أن تناله قدرة الانسان ، ثـم ركبوا فى بحـر القلزم الى جدة فقضوا مناسكهم وشفوا غلتهم مــن مباشرة شعائر الشريعة المطهرة من الطواف والسعى والوقوف وزيارة المشاهد المباركة ، وتوجهـوا الى أعظم المقاصد وأسناها التى هى لنفوس المؤمنين غاية مناها زيارة شفيــع الامم فى الموقف الاعظم ، وكانوا صادفوا بمكة وخما وفساد هواء مات منه كثير من الحجاج الافاقين فمات من أصحابهم جملة زمات من أولاد السلطان المولى ابراهيم والمولى جعفر ، الاول بمكة والثانى بالمدينة وسلم الله الباقى وأكرمه ، وأعلى مقامه وعظمه وجمع له بين شرف الحيــاة وثواب احتساب مصيبته لمن مات ، ولمــا فازوا بزيارة سيد الارضين والسمــوات ووافقتهم السعادة فى ذلك المقام الذى تتضاءل دونه جميــع المقامات ، وأدركوا مـا أملوه من لثم تراب أشرف البقاع وأكرم الحجر وانفجر عليهم من كــرم الله ما انفجر ، ونال كل واحد ما كان يؤمله ويرجوه ، فخرجوا من المدينة راجعين بكل خير وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه فى تلـك الاماكن مــن الوجوه ، ولكن نالتهم مشقة فادحة من عتـاة الاعراب فى المسافة التى بـين المدينة وينبع لانهم انفردوا عن الركب عند الرجوع ولــولا لطـف الله لاستؤصلوا عن آخرهم ، ولقد كانت نجاتهم مـن تلك الشدة مــن أعجب العجاب ، وفى خلوصهم منها عبرة لاولى الالباب ، فانهم كمن بعث بعد مماته واقباره ، وانقطاع أنفاسه وأخباره ، والحمد لله الذى لا تخفر ذمتــه ولا تنتهك حرمته ، فلما بلغوا ينبع وجدوا المراكب التى تحملهم فـى انتظارهم فركبوا قافلين ورياح السلامة تسوقهم ، وأرباح التجارة والسعادة قـد تكفل بها سوقهم ، فلما وردوا حضرة مراكش تحت ظلال السلامة وقــد نشر

عليهم القبول بنوده وأعلامه ، باتوا بقنطرة تانسيفت وفى الغد ركبت الخيول والعساكر السلطانية لتلقيهم ، وخرج أهل مراكش فى زيهم وزينتهم وكان يوم لقائهم يوما مشهودا ، وموسما من المواسم المعظمة معدودا اه .

وفى سنة خمس وسبعين ومائتين وألف وذلك يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفى عالم فاس والمغرب والمجيد فى صناعة التدريس والتحرير لاسيما مختصر الشيخ خليل الفقيه العلامة الاوحد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفيلالى الفاسى ، وكان المصاب به خصوصا عند طلبة العلم عظيما ولم يترك بعده فى اجادة تحرير المسائل الفقهية مثله رحمه الله ونفعنا به وفى ليلة السادس من شعبان منها بعد العشاء الاخيرة زلزلت الارض زلزالا يسيرا ، وفى رابع شوال من هذه السنة ورد المجاهد أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربى فنيش السلاوى من مدينة لوندرة الى ثغر سلا ومعه مركب موسوق فيه سبعة عشر مدفعا ومهراسان عظيمان من المعدن وأشياء أخر من آلة الحرب ، وكان جلبه لذلك بأمر السلطان المولى عبد الرحمن لعمارة البستيون الجديد بسلا الذى قدمنا ذكره قبل والله تعالى أعلم . وفى هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضا وهى المرة الثالثة فى هذه المدة .

وفاة امير المومنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن رحمه الله قد قدم مراكش فاتح سنة سبعين ومائتين وألف ولاول دخوله عزل الوزير أبا عبد الله الجامعى ورتب مكانه الفقيه أبا عبد الله غريط أياما يسيرة ، ثم استوزر الفقيه أبا عبد الله الصفار التطاونى ، واستمر السلطان مقيما بمراكش الى آخر سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف فغزا زمور الشلح واجتمع عليها هو والخليفة سيدى محمد على العادة ، ثم صار الخليفة الى مراكش وانحدر السلطان الى

مكناسة فاستمر مقيما بها يغزو زمور الشلح ويعود اليها وربما ذهب في بعض الاحيان الى فاس الى أن دخلت سنة ست وسبعين ومائتين وألف فمرض مرض موته ، وقد كان ابتدأ به وهو منازل لزمور فنهض عنها الى مكناسة وتمادى به مرضه الى أن توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من محرم فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف ودفن بين العشاءين أول ليلة من صفر بضريح السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحم الله الجميع بمنه ، وقد كنت رثيته بقصيدة شذت عني الان وأولها :

أمن طيف ذات الخال قلبك هائم ودمعك هام واكتئابك دائم
وهل أذكرتك النائبات عشائرا عفت منهم بعد المعالى معالم

ورثاه الفقيه أبو عبد الله أكنسوس بقوله :

هذى الحياة شبيهة الاحلام ما الناس ان حققت غير نيام
حسب الفتى ان كان يعقل أن يرى منه لآدم رؤية استعلام
فيرى بداية كل حي تنتهي أبدا وان طال المدا لتمام
والنفس من حجب الهوى في غفلة عما يراد بها من الاحكام
أوليس يكفي ما يرى متعاقبا بين الورى من سطوة الايام
من لم يصب في نفسه فمصابه بحبيبه حكما على الزام
بعد الشبيبة شيبة يخشى لها ذو صحة أن يبتلى بسقام
دار أريد بها العبور لغيرها وبظنها المغرور دار مقام
منع البقاء بها تخالف حالها وتكرر الاشراق والاظلام
لو كان ينجو من رداها مالك في كثرة الانصار والخدام
لنجا أمير المؤمنين ومن غدا أعلى ملوك الارض نجل هشام
خير السلاطين الذين تقدموا في الغرب أوفي الشرق أوفي الشام
سر الاله ورحمة منشورة كانت سرادق ملة الاسلام
قصدته عادية الحمام فما عدت ان هددت علما من الاعلام
لم تحجب الحجاب منها طارقا كلا ولا دفعت يد الاقوام
والملك في عز مهيب شامخ وامامه في جرأة الضرغام

عجبا لها لم تخش من فتكاته ... والاسد تزأر حوله وتحامى
عجبا لها لم تستحى من وجهه ... والوجه أبهج من بدور تمام
عجبا لها لم ترع طول قيامه ... متهجدا لله خير قيام
تبا لها لم تدر من فجعت به ... من معتق وأرامل الايتام
أسفا على ذات الجلال وأنه ... لاجل من أسف وفرط هيام
يامالكا كانت لنا أيامه ... ظلا ظليلا دائم الانعام
لا ضير أنك قد رحلت ميمما ... دار الهناء وجنة الاكرام
فى حضرة تغدو عليك بشائر ... من حورها بتحية وسلام
ضاجعت فى تلك القصور كواعبا ... درية الالوان والاجسام
تسقيك صرف السلسبيل مروقا ... وتدير كأسا من مدام مدام
فلك الرضى فانعم بما أعطيته ... ولك الهناء بنيل كل مرام

بقية أخبار أمير المومنين المولى عبد الرحمن وسيرته ومآثره

يكفيك أيها الواقف على أخبار هذا الامام الجليل السرى النبيل من مناقبه خصلتان : احداهما شهادة عمه السلطان المولى سليمان له بالتقوى والعدالة والمحافظة على خصال الخير ونوافله حتى قدمه على بنيه حسبما مر ذلك كله مستوفى ، والثانية اقامته صلب هذه الدولة الشريفة بعد اشرافها على الاختلال وردها الى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتحال كما رأيته أيضا ، فعلى التحقيق ان المولى عبد الرحمن رحمه الله هو المولى اسمعيل الثانى ، واما حزمه وضبطه وكمال عقله وتأنيه فى الامور ووضعه الاشياء مواضعها وتبصره فى مبادئها وعواقبها واجراؤها على قوانينها فما أظنك تجهل منه شيئا بعد أن قصصنا عليك ما مضى من أخباره رحمه الله وقد رأيت كيف نزلت به النوازل وترادفت عليه الهزاهز من غير معين يذكر أو وزير يعتبر الا فى القليل النادر ، فقام رحمه الله بأعباء ذلك كله

وعالج حلوه ومره حتى رد النصاب الملكى الى أصله وأحل عزه فى محله ، وأما ورعه وصبره وحياؤه وتوقفه في الدماء توقفا تاما الا اذا حصحص الحق وصرح الشرع فكل ذلك أمر معلوم يعلمه الخصوص والعموم ، وأما آثاره بالمغرب فشىء كثير من ذلك ما افتتح به ولايته من بناء ما تهدم من مرسى طنجة وصير عليه مالا عظيما حتىأعاده أحسن وأحصن مما كان ، ومن ذلك تجديد الحرم الادريسى بفاس وبناء مسجده وتوسعته وتنميقه حسبما مر ، ومن ذلك البرجان العظيمان بسلا وأشبار الكبير المواجه للبحر منها والمارستان الكبير بضريح الشيخ ابن عاشر والمنار الشهير بالمسجد الاعظم منها وخزين البارود بالقليعة وغير ذلك ، وأشبار الكبير برباط الفتح ، وبنى بأعمالها لحفظها وتأمين طرقها قصبتين كبيرتين احداهما الصخيرات والاخرى قصبة أبى زنيقة فأمن الناس بهما وارتفقوا بالتردد اليهما ، وجدد ما تهدم من أبراج الصويرة واعتنى بها وصير عليها أموالا ثقالا فجاءت فى غاية الاتقان والحصانة ، ومن آثاره بمراكش آجدال الشهير وتجديد جامع المنصور بالقصبة بعد أن لم يبق منه الا الاسم فأعاده الى حالته الاولى على ضخامته وانفساحه وعلو بنائه ، وتجديد جامع الكتبيين مرتين واصلاح قبة الشيخ أبى العباس السبتى رضى الله عنه ، والزيادة فى جامع الشيخ أبى اسحق البلفيقى بسوق الدقاقين منها ، وهدم جامع الوسطى واعادته على شكل بديع وهيئة حسنة ، وبناء جامع أبى حسون واقامة الجمعة بـه كما كانت أولا ، وبناء جامع القنارية والزيادة فيه ، ومن آثاره بحضرة فاس العليا تجديد بستان آمنة المرينية .

قال أكنسوس : وكان هذا البستان خرابا تالفه الوحوش مع أنه بباب دار السلطان وفى سرة الحضرة ، وقد كان فى الدولة المرينية على هيئة بهية فيه ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها ، وفيه مقاعدهم ومنازلهم العالية ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى الى أن قال : وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا ، وجنة حائزة من البهجة المرتبة العليا ، ثم أخذت عليها الايام بصروفهاومحت من تلك الرسوم جميع حروفها،

فرآها الملوك قبل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها ولا أنقذوها مـــن أوحالها ، مع أنها في جوارهم وعقر ديارهم ، فعطف الله عليها هذا السلطان المبـارك فأعاد بعد الممات محياها وأبرز من ظلمات العدم جميل محياها .

الخبر عن دولة امير المومنين سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله

كان سيدى محمد بن عبد الرحمن بـن هشام رحمه الله بعين الرضى من والده منذ نشأ وشب ، وكان متميزا عن سائر اخوته بشدة البرور بأبيـه ومتصفا بالسكينة والوقار والصلاح والتقوى وسائر خصال الخير ، واستخلفـه أبوه صغيرا فجرى على السنن الاقوم وحمدت سيرته ، ولما رأى منه السلطان رحمه الله مخايل النجابة والصلاح فوض اليه ، وألقى بزمام مملكته بيديه، ولم يدخر عنه شيئا من أمور الملك ووظائفه ، فاستلحق في أيـــام أبيــه واستركب واتخذ العساكر وجند الاجناد وقدم وأخر وخفض ورفع وأعطى ومنع حتى كأنه ملك مستقل ، وكانت العادة أنه اذا كـان السلطان بمراكش كان سيدى محمد هذا بفاس أو بمكناسة وبالعكس ، فلمـا مرض السلطان رحمه الله مرض موته بمكناسة كان سيدى محمد بمراكش فلـم يرعه الا ورود الكتب عليه من أخيه المولى العباس ومن الوزير أبـــى عبد الله الصفار أن السلطان قد أشرف ووقع الياس منه ، فنهض سيدى محمد من مراكش منزعجا وجد السير لعله يدرك حياة أبيه فلما كان بـــلاد السراغنة عــلى مرحلتين من مراكش اتصل به الخبر بوفاة السلطان رحمه الله ، ثـم قدمت عليه بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناسة وجميع الجيش البخارى وسائر أهل الحل والعقد من أعيان القبائل والبربر فاسترجع السلطان لمصابه وشكر الله اذ أبقى أمر المسلمين فى نصابه ، وكتب بالخبـر الى مراكش وبعث بالبيعة الواردة عليه فاجتمع أهل مراكش على طبقاتهم بجامع الكتبيين وحضر عامل البلد يومئـذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبى ستـة وقائد الجيش السوسى

بالقصبة أبو اسحق ابراهيم بن سعيد الجراوى وقواد الحوز من الرحامنة وغيرهم فقرىء كتاب السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن بالاخبار بموت والده واجتماع الناس على بيعته فارتفعت الاصوات بالترحم على السلطان الصائر الى عالم الرضى والرحمة ، وبالنصر لهذا الذى اختاره الله لحماية الامة ، وكتب أهل مراكش بيعتهم من انشاء أبى عبد الله أكنسوس وكذا الجيش السوسى وأهل الحوز وقدموا على السلطان سيدى محمد بمكناسة مؤدين الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فأكرم وفادتهم وأجل مقدمهم وأفاض عليهم من الاحسان ما غمرهم ، وكان مما قيل فى تهنئته بالملك قول أبى عبد الله أكنسوس :

وجوه الأمانى حسنها متجدد	ومنظرها يحكيه خد مورد
قضى الحب فى كل القلوب بأنها	مماليك أرباب الجمال وأعبد
وكم من عصى للهوى متعفف	يفر من السود العيون ويبعد
تصيده ظبى على حين غفلة	مهفهف متن الوشاحين أغيد
فأصبح مفقود الفؤاد مخبلا	وأى فؤاد عاشق ليس يفقد
ولله فى أسر الغرام ونهره	نفوس ضعاف ليلهن مسهد
اذا الليل أضواها تكنفها الهوى	وليس لها غير الكواعب منجد
وذى ظما بين الضلوع يجنه	الى رشفات للصبابة تبرد
ترأأى له من منحنى الجزع برقه	فظن بأن الجزع ثغر منضد
وتذكره تلك البروق مباسما	عليهن مرفض الجفان معقد
يراقب أسراب النجوم بمقلة	تقسمها شطرين نسر وفرقد
ويهفو لايام العقيق فتنثنى	مدامعه مثل العقيق تبدد
وهل يتناهى عهد من سكن اللوى	اذا العيش غض والحبائب تسعد
وما زالت الايام تغرى بنا النوى	وتنفى الذى نهواه عنا وتبعد
ولست أبالى للزمان صروفه	وكهفى أمير المؤمنين محمد
خليفة رب العالمين بأرضه	وصارمه الشاكى الشبات المهند
امام تولى الله تشييد ملكه	وناهيك ملكا بالاله يشيد

وصفوة هذا الخلق من آل هاشم ... وأعلى ذوى التيجان فخرا وأمجد

وأرحبهم فى العز باعا وفى العلى ... وأكثرهم فى الفضل حظا وأزيد

أتته عروس الملك عاشقة له ... وكم عاشق عنها يذاد ويطرد

وألقت على شوق اليه زمامها ... فطاب لها منه الجناب الممهد

فأصبحت الايام تزهو بعدله ... وتنعم فى ظل الهناء وتسعد

ففى بابه مأوى المكارم والندى ... وفى بابه الخيرات تولى وتوجد

ودولته للعز والنصر مألف ... وحضرته للأمن واليمن موعد

تذل ملوك العالمين لبأسه ... وتركع مهما أبصرته وتسجد

له راحة فى الجود ما الغيث عندها ... وما البحر والدر النفيس المقلد

له أنعم تأوى الى ظلها المنى ... وتسحب أذيال السماح وترفد

وعزم على الخيرات ليس بسامع ... مقالة من فى المكرمات يزهد

ورأى ينير الخطب عند اعتكاره ... ويفسخ ما أيدى النوائب تعقد

ووجه اذا ما لاح أيقنت أنه ... محيا له وقت السعادة مولد

حيى كثير الابتسام مبارك ... يكبر ربى ان بدا ويوحد

أهز بهذا المدح منه معاطفا ... تجر ذيول الفخر ان هو يحمد

له العسكر الجرار تبرق فى الوغا ... صوارم منه والمدافع ترعد

يعد الى الاعداء كل كتيبة ... من الرعد يحدوها الوشيج المسدد

وكل كمى كالغضنفر مغضبا ... وكل صقيل وهو ماض مجرد

يبد العدا قبل اللقاء مهابة ... فصارمه يفرى الطلى وهو مغمد

هو الملك المشهور بالحلم والدها ... وبالعلم والشهب الدرارى تشهد

تشد لادراك الغنى عند بابه ... ركائب أنضاها الدؤب المشدد

يحدث عنه الوفد عند صدوره ... أحاديث من بحر اذا البحر يزبد

الى مجده آمالنا قد تطاولت ... وليس لها الا حماه المؤيد

فياملكا يحمى الرعية بأسه ... ويحييهم بالبذل والبذل أرغد

يدبر فيهم كل يوم مصالحا ... تعود بما يرضون والعود أحمد

ويشملهم بالعدل والفضل والندا ... ويصلح بالصمصام من هو مفسد

هنيئا لك الملك الجديد فانه — يدوم بحمد الله وهو مسرمد
هنيئا لنا نحن العبيد فاننا — بسودد مولانا الامام نسود
ودونك ياخير السلاطين كاعبا — بديعة حسن للنهى تتودد
تدير كؤوس الراح دون تأثم — اذا هى أثناء المحافل تنشد
فلا زلت ما بين الملوك مخيرا — كما اختير ما بين المعادن عسجد

وفى هذه الايام ظهر المولى عبد الرحمن بن سليمان بن محمد وقرب من فاس طالبا الملك قيل : ان بعض أبناء عمه بفاس ومكناسة لما توفى السلطان رحمه الله كاتبوه واستحثوه للقدوم وواطأهم على ذلك بعض عبيد البخارى وبعض البربر الذين بأحواز مكناسة ، ولما قرب من فاس كان الفقيه أبو عبد الله محمد العربى بن المختار الجامعى يومئذ يلى أمر شراقة بها ، فقام فى ذلك أحسن قيام وحمل الناس على الثبات والتمسك بطاعة أمير المؤمنين سيدى محمد بن عبد الرحمن فكان ذلك سببا فى سكون هذه الفتنة وانحسام مادتها ، فرجع المولى عبد الرحمن بن سليمان عوده على بدئه وآيس من بلوغ قصده وأقام بزاوية العياشى عند البربر الى أن اضمحل أمره ، ولما قدم السلطان سيدى محمد رحمه الله من مراكش الى مكناسة اجتاز بمدينة سلا ونزل برأس الماء فى الثالث والعشرين من صفر سنة ست وسبعين ومائتين وألف وبعد الزوال دخل فى جماعة من حاشيته وزار الشيخ أبا محمد عبد الله بن حسون والشيخ أبا العباس أحمد بن عاشر رضى الله عنهما ، ودخل البستيون الكبير ورأى مدافعه منصوبة على عجلات الحديد وكانت تغوص فى الارض اذا جرت من شدة ثقل المدافع فأشار بأن يفرش لها بساط من العود الجيد المحكم الصنعة والتركيب حتى يتأتى جريانها عليه بلا كلفة فصنعت لها كما أشار رحمه الله ، وقد كنت مدحته بقصيدة لم يبق على ذكرى الآن منها الا بيتان وهما :

حوى العلويون المعالى كلها — وما منهم الا ذرى المجد صاعد
ولكن أمير المؤمنين محمد — هو البدر فى العلياء وهى الفراقد

انتقاض الصلح مع الاصبنيول واستيلاؤه على تطاوين ورجوعه عنها والسبب في ذلك

كان السبب في انتقاض الصلح مع جنس الاصبنيول أن العادة كانت جارية مع أهل سبتة من النصارى وأهل اللانجرة من المسلمين أن يتخذ كل من الفريقين محلا للحراسة على المحدة التي بينهما ، وكان النصارى يتخذون هنالك بيوتا صغارا من اللوح والمسلمون يتخذون أخصاصا من البردي ونحوه ، فلما كان آخر دولة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله بنى نصارى سبتة على المحدة بيتا من حجر وطين وجعلوا فيه علامة طاغيتهم المسماة عندهم بالكرونة فتقدم اليهم أهل اللانجرة وقالوا لهم : لابد أن تهدموا هذا البيت الذي لم تجر العادة ببنائه وترجعوا الى حالتكم الاولى من اتخاذ بيوت الخشب ، فامتنع النصارى من ذلك فعمد أهل اللانجرة الى ذلك البيت فهدموه والى تلك الكرونة فنجسوها بالعذرة وقتلوا منهم أناسا وضيقوا على أهل سبتة بالغارات حتى كانوا يصلون الى السور ، فرفع أهل سبتة أمرهم الى كبيرهم بطنجة فكلم كبيرهم نائب السلطان بها وهو يومئذ أبو عبد الله محمد ابن الحاج عبد الله الخطيب التطاوني وشكا اليه ما نال أهل سبتة من عيث اللانجرة فدافعه الخطيب فلم يندفع وقال : لابد من حضور اثني عشر رجلا منهم بطنجة وسماهم بأسمائهم ولابد من قتلهم جزاء على فعلهم ، فعظم الامر على الخطيب وربما كلم في ذلك باشدور النجليز فقال له : احضر هؤلاء المطلوبين على عين الاجناس واذا حضروا وظهر حق الاصبنيون فأنا ضامن أن لا يصيبهم شيء ، فأعجب الخطيب ذلك وعزم عليه فاتصل الخبر بأهل اللانجرة وأن الخطيب عازم على أن يكتب الى السلطان في شأن اثني عشر رجلا منهم بأعيانهم فمشوا الى الشريف سيدي الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني وقالوا له : ان الخطيب لا ينصح السلطان ولا المسلمين وان كل ما قاله النصارى يساعدهم عليه حتى جسرهم علينا ، ونحن

جئناك لتعلم السلطان بأمرنا وتسأله أن يمدنا بالقبائل المجاورة لنا ونحن نكفيه هذا المهم ، وفى أثناء هذه المدة توفى السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله وولى ابنه سيدى محمد وقدم مكناسة واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه فكتب له الشريف سيدى الحاج عبد السلام بأمر أهل اللانجرة وقرر له مطلبهم فشاور السلطان فى ذلك بعض حاشيته فمال الى الحرب وذلك كان الراجح عند السلطان لانه عظم عليه أن يمكن العدو من اثنى عشر رجلا من المسلمين وفق اقتراحه واختياره يقتلهم بمحضر الملأ من نواب الاجناس ، ورأى رحمه الله أن لا يمكنه من مطلبه حتى يعذر فيه فاستخار الله تعالى وبعث خديمه الحاج محمد ابن الحاج الطاهر الزبدى الرباطى الى الخطيب بطنجة وأمره أن ينظر فى القضية ويستكشف الحال وأن لا يجنح الى الصلح الا اذا لم يجد عنه محيصا ، وكثر المتصحون لدى السلطان وهونوا عليه أمر العدو جدا مع أنه ليس من السياسة تهوين أمر العدو وتحقيره ولو كان هينا حقيرا فوصل الزبدى الى طنجة واجتمع بالخطيب وفاوضه فى القضية فوجد الخطيب جانحا الى السلم فأبى أن يساعده على ذلك وأظهر كتاب السلطان بتفويض النظر اليه فى النازلة ، فتأخر الخطيب عنها وترك الخوض والكلام فيها ، وآخر الامر أن الزبدى انفصل مع نائب الاصبنيول على الحرب وذهب الى حال سبيله وأزال الاصبنيول سنجقه من طنجة وركب الى بلاده فى الحين وكتب الزبدى الى السلطان بالخبر ، فكتب السلطان الى الثغور يخبرهم بما عقده مع الاصبنيول من الحرب وأمرهم أن يكونوا على حذر وأن يأخذوا أهبتهم للجهاد ، وفتح السلطان بيت المال وأبدأ وأعاد فى تفريق المال والسلاح والكسى وقدم أولا القائد المأمون الزرارى الى تطاوين فى نحو مائة فارس وخمسمائة من رماة العسكر فرابطوا خارج تطاوين الى جهة سبتة ، ثم برز جيش الاصبنيول من سبتة فى نحو عشرين ألفا من العسكر فى غاية الاستعداد وكمال الشوكة ونزل على طرف المحدة داخل أرضه وكان خروجه يوم السبت أواسط ربيع الاول سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، فنهض اليه أهل

اللانجرة ومن جاورهم من قبائل الجبل وتسامع الناس بذلك فقدموا من كل جهة حتى اجتمع منهم نحو الخمسة آلاف وزحفوا الى العدو وقاتلوه نحو نصف شهر وكل يوم يقتل منه ضعف ما يقتل من المسلمين لان حربه كان زحفا بالصف وحربهم كان مطاردة بالكر والفر فلابد أن يهلك منه أكثر مما يهلك من المسلمين، غير أنهم لم يتمكنوا من مخالطته فى معسكره ولامن هزيمته لانه كان يحصن على نفسه بأشبارات والمتاريزات بخناشى الرمل وغيرها غاية التحصين ، ثم بعث السلطان رحمه الله أخاه الفقيه العلامة المولى العباس فى كتيبة من الخيل نحو الخمسمائة فارس فنزل بموضع يعرف بعين الدالية قرب طنجة ، ثم بعد أيام زحف الى العدو فنزل بمدشر يقال له : البيوت باللانجرة واستمر القتال بين المسلمين والنصارى على نحو ما سبق نحو العشرة أيام ، ثم انتقل المسلمون الى موضع آخر يعرف بأبى كدان خوفا من كرة العدو ودهمه اياهم فكان ذلك مما جرأ العدو عليهم وأظهر الفشل فيهم وقاتلوا هنالك نحو الخمسة عشر يوما ، ثم ان العدو اجتمع يوما وتحمل بخيله ورجله وزحف الى المسلمين فصدمهم بجميع قوته وشوكته فصبروا له وصدقوه اللقاء فردوه على عقبه ، ولما لم يستقم له ذلك جمع نفسه ذات ليلة من غير شعور من المسلمين وركب البحر ونزل بمحل يعرف بالفنيدق لانه كان هنالك فندق قديم ، وكان العدو فى تنقلاته هذه لايفارق الساحل ليحمى ظهره بمراكبه البحرية ، وكان بين الفندق ومحلة المسلمين نحو ساعة ونصف فأشار أهل الرأى على المولى العباس بأن يتأخر قليلا لكون العدو قد ضايقه فتأخر المولى العباس بالجيش الى موضع يعرف بمجاز الحصا فازداد طمع العدو فى المسلمين وظهر له ضعف رأيهم فى مكائد الحرب وعدم ثباتهم لدى الطعن والضرب ، وكان قائد عسكر الاصبنيول يسمى أردنيل ووزيره المشير عليه يسمى بريم وريتتهم يومئذ ايسابيلا الثانية ثم عاد المسلمون الى مطاردة العدو ومقاتلته على نحو ما أسلفنا فكانوا يذهبون اليه وهو بالفنيدق فيقاتلونه من الصباح الى المساء فكانوا ينالون منه وينال منهم ، وفى أثناء هذه المدة وفد جماعة من أهل تطاوين على السلطان رحمه

الله بمكناسة فاعظموا أمر العدو وتخوفوا معرته فى مالهم وأولادهم لانهم كانوا قد أحسوا بشدة شوكته فوعدهم السلطان رحمه اللهبأن يمدهم ويحامى عنهم ولا يدخر عنهم شيئا من العدد والعدد حتى يعذر فيهم وفى غيرهم ، ثم ان العدو ارتحل من الفنيدق بعد نحو عشرة أيام وتقدم نحو تطاوين وكان الناس قبل هذا لا يدرون أين هو قاصد ، ولما ارتحل من الفنيدق عرفوا أنه قاصد تطاوين فنزل بموضع يقال له : النيكرو فأقام هنالك نحو ثمانية أيام والقتال على حاله المتقدم ، غير أن العدو كان فى مادة قوية من البر والبحر يصل اليه من سبتة وغيرها كل ما يحتاج اليه من طعام وعلف وأرز وشعير وبقسماط وغير ذلك حتى إنه كان اذا ارتحل ترك من ذلك فضلة كثيرة يتعيش فيها ضعفاء أهل تلك الناحية ، وكان ذلك مكيدة مقصودة عنده يظهر بها القوة والرفاهية ، وكا نشذاذ المتطوعة من أهل البادية يهجمون على معسكره بالليل ويجلبون منه البغال والثيران ويصبحون بها فى تطاوين وغيرها ، وكان ضعفاء العقول من العامة يستحسنون ذلك وينشطون له ويرون أنهم قد صنعوا شيئا مع أن ذلك لاعبرة به فى جنب ما كان يستولى عليه العدو من الارض ويتقدم به فى نحر المسلمين وهم يتأخرون والحاصل ان المسلمين لم يكونوا يقاتلونه على ترتيب مخصوص وهيئة منضبطة انما كانوا يقاتلونه وهم متفرقون أيدى سبا فاذا حان المساء تفرقوا الى محالهم فى غير وقت معلوم وعلى غير تعبية ، فكان قتالهم على هذا الوجه لايجدى شيئا ، وكان العدو يقاتل بالصف وعلى ترتيب محكم ، وكانت عنايته بما يستولى عليه من الارض ويرى تقدمه الى أمام وتأخر المسلمين بين يديه الى خلف هزيمة عليهم .

وقد ذكر ابن خلدون فى فصل الحروب قتال أهل المغرب الذى هو المطاردة بالكر والفر وعابه فقال : « وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين : نوع بالزحف صفوفا ، ونوع بالكر والفر ، أما الذى بالزحف فهو قتا لالعجم كلهم على تعاقب أجيالهم ، وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب ، وقتال الزحف أوثق

وأشد من قتال الكر والفر ، وذلك لان قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدو قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في ازالته

وفي التنزيل : (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) اه ولا زال العدو هكذا يتنقل شيئا فشيئا حتى وصل الى وادى يعرف بوادى آسمير ، وكان يتحرى في تنقلاته يوم السبت معتمدا في ذلك حكما نجوميا على ما قيل ، فلما احتل با سمير صادف ريحا شرقية هاج من أجلها البحر حتى لم تقدر مراكبه أن تحاذيه قرب الساحل فانقطعت عنه مادة البحر وطلع ماء البحر في وادى النيكرو من خلفه فافعمه وقطع عنه المادة من سبتة كما طلع أيضا في وادى آسمير من أمامه فحبسه عن العبور ، وصار العدو متوسطا بين الوادين والبحر عن يساره ، وانقطعت عنه المواد حتى حكى بعض عسكره بعد ذلك اليوم أن الكليطة وهي خبزة صغيرة تشبه القسماط كانت أول النهار تباع ببسيطة وفي آخره بيعت بريال ولا وجود لها ، وأيقنوا بالهلاك لو وجدوا من ينتهز الفرصة فيهم ولكن أين اليد الباطشة ، وبقوا على تلك الحال يومين أو ثلاثة ، ثم سكن البحر وانفش الواديان وجاءه المدد ، ولما رأى المسلمون أن العدو وصل الى ذلك المحل تقهقروا ونزلوا بمدشر القلالين بينه وبين تطاوين نحو نصف ساعة ، ثم ان العدو عبر الوادى من آخر الليل وأصبح بموضع يقال له : المضيق وكان متطوعة الاعراب في هذه المدة على قسمين : الحازمون وأهل الغيرة منهم يقولون : لولا أنه بين الجبال ومتحصن بالمتارزات لفعلنا وفعلنا ، والاخرون يقول أحدهم : مالى وللتقدم الى هذه الشرشمة وانما أهل تطاوين يقاتلون عن تطاونهم وأما أنا فحتى يصل الى بخيمتى في عبدة أو دكالة أو كلاما هذا معناه كأنه يعتقد أنه لاتجب عليه نصرة المسلمين ، نعم الذين قاتلوا قتالا شديدا و أحسنوا الدفاع وقاموا بالنصرة بنية خالصة وهمة صادقة هم طائفة من شبان أهل فاس ، وطائفة من أهل زرهون ، والبعض من آيت يمور

وخصوصا الحسين المعروف بأبي ريالة منهم فانه أبدأ وأعاد وأتى بما لم يسمع الا فى زمان الصحابة رضى الله عنهم .

حكى من حضر وتواتر عنه أنه كان معلما براية صفراء وكان يضمهـا الى صدره ويسددها نحو العدو ثم يحمل على صفهم فيخرقه حتى يأتى من خلفه ويفتك فيهم أشد الفتك ثم يعود ويستلب خيل العدو ويقودها بأرسانها ويأتى بها حتى يدفعها لمن بازائه، وكان اذا تقدم نحو العدو يقول لمن حوله: تقدموا فأنا درقتكم وأنا سوركم تكرر ذلك منه المرة بعد المرة ، ولما أصبح العدو بالمضيق فارق البحر وصمد الى تطاوين فدخل بين جبلين وكان فى انتهاء ذلك المضيق الذى بين الجبلين من جهة تطاوين ويسمى فم العليق بعض أخبية أهل فاس وغيرهم فصمد العدو نحوهم وبغتهم بالكور والضوبلى وهو يقرع طبوله حتى أعجل البعض منهم عن حمل أثقاله ، ولما وصل الى هذا الموضع حصل بتطاوين انزعاج كبير واستأنف الناس الجد والاجتهاد والقتال وتذامر جيش المسلمين وكان اليوم شديد المطر وقاتلوا قتالا شديدا ، وأبدأ أبو ريالة وأعاد فى هذا اليوم هلك تحته فرسان وأرسل له المولى العباس فرسه ، وكان يعتنى به وينوه بقدره ويبعث الطبل يقرع على خبائه ، وأصابته فى هذا اليوم جراحة خفيفة وهلك من المسلمين والنصارى عدد كثير ، قيل هلك من أهل تطاوين فقط نحو الخمسمائة ، وكان الظهور فى ذلك اليوم للعدو ومن الغد ارتحل من فم العليق وعدل يسارا الى المرسى فنزل بها ليتمكن من مدد البحر واستولى على برج مرتيل وما والاه كدار مرتيل التى هى الديوانة ، وبمجرد وصوله اليها حصنها بأشبارات الرمل والمدافع وغير ذلك واتخذ بها دورا من اللوح وحوانيت منه وأقام مطمئنا وصارت المراكب تردد له فى البحر بالاقوات والعدة والعسكر وجميع ما يحتاج اليه حتى استراح ثلاثة عشر يوما ولم يكن فى هذه المدة قتال ولا أنشبه العدو ، وفى هذه الايام ورد المولى أحمد بن عبد الرحمن فى جيش بعث به السلطان من مكناسة ونزل بموضع يقال له : فم الجزيرة بالتصغير وكان المولى العباس نازلا بمدشر القلاليين بمحل مرتفع

يشرف على ما حوله ، ولما استراح العدو وصلحت أحوال جيشه انشب القتال فكان يخرج فيحوم حول المحلتين فيقاتل ويرجع فكان بريسم دائما يكون فى أول المقدمة على فرس أبيض مشهورا عندهم موصوفا بالشجاعة وجودة الرأى ، ثم ان العدو عزم على مصادمة المسلمين والهجوم على تطاوين فارتحل يوم السبت الحادى عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف وانكمش واجتمع وتقدم للقتال وأرسل جناحا من الخيل طالعا مع الوادى الى جهة المدينة وجناحا من العسكر الرجالة طالعا من الغابة الى جهتها أيضا ، وزحف بعسكره شيئا فشيئا وهو فى ذلك يرمى الكور والضوبلى والبغال تجر المدافع والجناحان ممتدان يكتنفان محلة المولى أحمد ، ولما قربا منها وكاد ينطبقان عليها فر من كان بها وتركوا الاخبية والاثاث بيد العدو فاستولى عليها ونزل هنالك بعسكره وحصن عليه وتقهقر المولى العباس بجيشه حتى نزل خلف تطاوين وبقيت بينه وبين العدو وكان فى تقهقره هذا قد دخل المدينة ومر فى وسطها واضعا منديلا على عينيه وهو يبكى أسفا على الدين وقلة ناصره ، ولما استقر بالمحلة مع العشى خرج اليه أهل تطاوين وشكوا اليه ما نزل بهم من أمر العدو واستأذنوا فى تحويل أثاثهم وأمتعتهم وحريمهم الى مداشر الجبل وحيث يأمنون على أنفسهم قبل حلول معرة العدو بهم فأذن لهم وعذرهم وكان قبل ذلك قد منع الناس من نقل أمتعتهم وحريمهم لئلا يفتنوا المسلمين ويجروا عليهم الهزيمة ولكى يقاتلوا عليها بالقلب والقالب ، فلما كان هذا اليوم وشكوا اليه أمر العدو الذى قد أطل عليهم ولم يبق الا أن يثب وثبة أخرى فيصير بها فى وسط البلد عذرهم وكان العدو حين نزل بفم الجزيرة عشية ذلك اليوم قد أرسل أربع كورات على تطاوين فوقعت فى وسط المدينة كأنه يعلمهم بأنه قد أشرف عليهم ولم يبق دون أخذهم قليل ولا كثير ، ولما سمع الناس كلام المولى العباس انطلقوا مسرعين الى نقل أمتعتهم وقام الضجيج فى المدينة واختلط المرعى بالهمل وامتدت أيدى الغوغاء الى النهب وخلع الناس جلباب الحياء وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والاعراب والاوباش ينقبون ويكسرون أبواب الدور

والحوانيت والداخل للمدينة أكثر من الخارج ، وباتوا ليلتهم كذلك الى الصباح ، ولما طلع النهار وتراءت الوجوه انتقلوا من نهب الامتعة الى المقاتلة عليها فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفسا وعظمت الفتنة وتخوف من بقى بتطاوين عاجزا عن الفرار فاجتمع جماعة منهم على الحاج أحمد بن على آبعير أصله من طنجة وسكن تطاوين وتشاوروا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على أن يكتبوا كتابا الى كبير محلة العدو أردنيل يطلبون منه أن يقدم عليهم لتحسم مادة الفتنة التى هم فيها ، فكتبوا الكتاب ووجهوه مع جماعة منهم فما انفصلوا عن المدينة غير بعيد حتى عثروا على طلائع العدو يطوفون حول المدينة ويحرسون محلتهم فتسابقوا اليهم وهشوا وبشوا وسألوهم ما الذى أقدمكم فقالوا : جئنا بكتاب الى أردنيل فأبلغوهم اليه فأظهر أيضا البشر والفرح وقدم اليهم طعاما من الحلواء وقال لهم فى جملة كلامه : انى أفعل معكم ما لم يفعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان يعنى من الاحسان ، وكذب خذله الله فان ذلك من حيله التى يستهوى بها الاغمار ويفسد بها الدين ، والا فأى احسان فعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان . ألسنا نرى دينهم قد ذهب ، وان الفساد قد عم فيهم وغلب ، وأن ذراريهم قد نشأوا على الزندقة والكفر الا قليلا ، وعما قريب يلحق التالى بالمقدم، والله تعالى يحوط ملة الاسلام ، ويكسر بقوته شوكة الزنادقة وعبدة الاصنام ، ولما عرضوا على العدو الدخول الى بلدهم قال لهم : أما اليوم فيوم الاحد وهو عيد النصارى ولا يحل لى التحرك والانتقال ، وأما غدا فانظرونى فى الساعة العاشرة من النهار ، فرجعوا الى أهلهم وأصحابهم وأعلموهم بمقالة العدو والحال ما حال والقتال لا زال وأبواب الحوانيت تكسر والدور تخرب والقوى يأكل الضعيف ، وباتوا ليلة الاثنين كذلك وأصبحوا من الغد كذلك، ثم ان العدو استعد وأخذ أهبته وتقدم الى تطاوين بعد أن فرق عسكره على جهتين : فرقة مرت مع أردنيل على الجبانة قاصدة الباب الذى يفضى اليها ، وفرقة ذهبت مستعلية الى جهة القصبة والبرج ، ولما وصل أردنيل الى الباب وصل الآخرون الى القصبة ، فأما أردنيل فوجد الباب مغلقا وكلمه المسلمون

من داخل المدينة فأمرهم بالفتح فقالوا : ان المفاتيح قد ذهبت فـــي الفتنة ، فقال : اكسروا الاقفال فكسروها ودخل ، ودخل معه كبراء عسكره فتوجه هو الى دار المخزن فنزل بها ، وافترق كبراء العسكر فى المدينة بأيديهـــم ورقات مكتوب فيها أسماء الدور التي ينزلون بها كـل واحد بداره مكتوبة في ورقتـــه ، فكان أحدهم يسأل عن دار الرزيني وآخر يسأل عـــن دار اللبادي وآخر يسأل عن دار ابن المفتي وهكذا بحيث دخلوا على بصيرة بأمر البلد ودور كبارها فاستقر كل واحد منهم في داره التي عينت له ، وأمـــا الذين ذهبوا نحو القصبة فانهم لما وصلوا الى السور أنشبوا فيه سلاليم مـــن قمن غلاظ برؤوسها مخاطيف معوجة وتسلقوا فيها بسرعة ولما صاروا فـــي أعلا البرج رفعوا سنجقهم في أعلى الصارى وأخرجوا عليهـــا مدفعا ، ولمـــا سمع المشتغلون بالنهب والقتل حس المدفع رفعوا رؤوسهم الى البرج وبمجرد ما وقع بصرهم على بنديرة العدو تلوح خرجوا على وجوههم فارين كالنعـــم الشارد فالامر لله ولا حول ولا قوة الا بالله ، واأسفى عـلى الدين وأهله ، ولما استقر العدو بالبلد رتب حكامها وكف اليد العادية عنهـــا وولى عـــلى المسلمين الحاج محمد آبعير المذكور آنفـــا ، وكـــان دخوله الى تطـاوين واستيلاؤه عليها ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنـة ست وسبعين ومائتين وألف ، ورثاهـــا الاديب الشريف السيد المفضل أفيـــلال بقصيدة يقول فيها :

يادهر قـل لى عـلى مـه	كسرت جمع السلامة
نصبتـه المـــدواهـى	ولم تخف من ملامه
خفضت قـــدر مقام	للرفـع كـان علامـه
ملـكتـــه لأعـداد	ليست تساوى قـلامه
فالديـن يبكى بدمـع	يحكيه صوب الغمامـة
عـلى مساجد أضحت	تبـاع فيـها المـدامه
كم من ضريـح ولى	تلـوح منه الكرامـه
علـــق فيـه رهـيب	صليـبه ولجـــامـه

ومنزل لشريف وعالم ذى استقامه
صار كنيفا لعلج ولم يراع احترامه
وكم وكم من أمور للدين فيها اهتضامه
تبكى عليها عيون كآبة وندامه
تطوان ما كنت الا بين البلاد حمامة
أو كخطيب تردى من بعد لبس العمامة
بل كنت روضا بهيجا زهرك ابدى ابتسامه
أو كمحيا عروس علاه فى الخد شامة
فقت بهاء وحسنا فاسا ومصر وشامه
رماك بالعين دهر ولا كزرق اليمامة
ففرق الاهل حتى لم يبق الا ارتسامه
ما كان أحلى زمانا وما ألذ غرامه
مضى لنا مع بدور ذوى نهى وفخامه
ما بين انشاد شعر وبين انشا مقامه
وشملنا فى التئام والبسط يهوى التئامه
حن السرور اليه شوقا ورام التئامه
ساعده السعد حتى نال المنى ومرامه
ياحسنها من ليال لو لم تصر كالمنامة
تطوان يادار أنس وخيس أهل الزعامة
هل للوصال سبيل فالهجر أكمل عامه
والقلب ذاب اشتياقا وحسرة واستهامة
والوجد أضعف جسما وكاد يبرى عظامه
ياأهل تطوان صبرا فما لخطب أدامه
دوام حال محال وهل لظل اقامة؟
ان غاب نجم سعود ولاح نجم شآمه
فسوف يطلع بدر يمحو سناه ظلامه

فاعتصموا برجاء	وارعوا بصدق ذمامه
وحسنوا الظن تنجوا	دنيا ويوم القيامة
وفوضوا الامر لله	يكف عنا انتقامه
ما فاز الا ذكى	قدم خيرا أمامه
حيث أقامه يرضى	ولو بقصر كتامة
ولا يزل ذا انتظار	فى كل وقت ختامه
يراقب الله سرا	وجهرة باستدامه
يطلب حسن ختام	وحل دار المقامة

ثم أن أردنيل بعد أن رتب الحكام بتطاوين عاد الى محلته وقسم عسكره قسمين وأنزله مكتنفا للبلد شرقا وغربا ، واختار منه عشرة آلاف فأدخلها المدينة وبقى هو خارجا باحدى المحلتين يقال : أن جيشه كان يوم دخل تطاوين سبعين ألفا كلها مقاتلة فى غاية الاستعداد وكمال الشوكة ، ثم أمر بالنداء فى البلد أن من أوقد نارا تلزمه العقوبة الشديدة حذرا من أن تكون هنالك مينا للمسلمين أو ما أشبهها فبقى الناس على ذلك نحو أربعة أيام لم يوقدوا فيها نارا ، ونادى أيضا بأن من فر من أهل البلد ولم يأت الى متاعه وأصله الى سبعة أيام فلا شىء له بعد ، ولم يقدم شيئا على نقل البارود والمدفع الذى كان للمسلمين بالمدينة ، فأما المدفع فحمله الى اصبانيا وأما البارود فجعله بضريح ولى الله تعالى سيدى السعيدى ، وكذا فعل بجميع آلات الجهاد ، ثم عمد الى ضريح سيدى عبد الله البقال فجعله كنيسة ، وجعل مسجد الباشا مختزنا للارز والشعير ، ومسجد القصبة مختزنا المكليط ، ثم سار فى المسلمين بالتوقير والاحترام ولم يسمهم خسفا ولا كلفهم شغلا ولا اقتضى منهم مغرما ، كان يتألفهم بذلك ومن باع منهم شيئا أضعف له فى الثمن واربحه ، وكذا فعل مع أهل المداشر الذين حول البلد حتى اتخذ الناس سوقا بموضع يعرف بكدية المدفع خارج تطاوين وشاع خبره فى قبائل الجبل فانهاروا عليه من كل جانب وربحت الناس فيه ، ثم كتب أردنيل كتبا وبعث بها الى قبائل الجبل يعدهم ويمنيهم ان هم قدموا عليه

وخالطوه بالبيع والشراء ويتوعدهـــم ان لم يفعلوا فقدموا من كـــل أوب وارتفعت الاسعار فزادت ضعف ما كانت عليه وأكثر واستمرت كذلك فلـــم ترجع بعد ، ثم أخذ في ترتيب بناء المدينة وتبديل شكلها حسبما جرت بـــه عادة النصارى في مدنهم ، فهدم مالم يوافق نظره وفـــرز الدور مـن سور البلد ، وكل دار كانت ملتصقة بالسور فصلها عنه ، واستمر على هذا الحـــال نحو العشرين يوما ، ثم دار الكلام بينه وبين المـولى العباس في الصلـــح وتسامع الناس به ففرح المسلمون والنصارى معا ، أما المسلمون فوجه فرحهم ظاهر ، واما النصارى فانهم وان كان لهم الظهور فهم لا يدركونه سهـــلا بل مع القتل العظيم والجرح الكثير والمشقة الفادحة ، قال تعالى : (ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجـون) هـذا الى مفارقة بلادهم التي ألفوها وعوائدهم التي ربوا عليها لاسيما عـامة جيشهم الذين الغلبة في ضمن هلاكهم ، فدماؤهم هي ثمنها كما قيل : بجبهة العـير يفدى حافر الفرس

حكى من حضر أن عسكر النصارى لما سمعوا بتناول الصلح حصـل لهم من الفرح أضعاف ما حصل للمسلمين وصاروا يترددون اليهم ويبحثونهم عما تجدد من الاخبار ، وكلما سمعوا بشيء من أمر الصلح طاروا فرحـا وذلك لان قتال النصارى كله على الاكراه اذ لا يمكن عسكريا منهم أن يفر من الزحف حال القتال لان الخيالة والسيافة من ورائهم يذمرونهم الى الامام ومهما رجع أحد منهم الى خلف وترك في الصف فرجة ضربت عنقه فـي الحين ، فالموت عندهم في الفرار محقق وفي التقـدم مظنون ، فيختـارون المظنون على المحقق ، اللهم الا اذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس واختلط الرجال بالرجال أمكن الفرار حينئذ لاشتغال الرئيس والمرؤوس كل بنفسه وبهذا الضبط لم تتفق لهم هزيمة منذ خرجوا من سبتة ، ومن عادة العـدو في الحرب انه اذا نهض للقتال ارتحل بجميع ما في عسكره كأنه مسافر ، فترى العسكري منهم اذا تقدم للقتال حاملا معه جميع ما يحتاج اليه من ماء وطعام وبارود ورصاص حتى الموسى والمقص والمرآة والصابون وغير ذلك،

قد اتخذ لجميع ذلك أوعية لطافا وعلقها عليه فلا يؤده حملها لانه اقتصر من كل على قدر الحاجة ، وأما الاخبية فيحمل كل ثلاثة رجال خباء ولا تلحقهم كلفة فى حمله لان أخبيتهم فى غاية اللطافة والصفافة ، وأعمدتهـا لطـاف صلبة فهى مع كفايتها على الوجه الاتم فى غاية الخفة بحيث اذا لـف الخبـاء بما فيه كان كلاشىء ، ولو أراد أن يحمله واحد لفعل لكنه يقسمه ثلاثـة أشخاص زيادة فى الرفق ولئلا يحصل الضجر اذا طال السفر ، وأما المدافـع فقد اتخذوا لها عجلات أفرغت افراغا وركبت عليها على وجه محكم واتخذوا للعجلات بغالا خصية تجرها فى غاية الفراهة والارتياض ، ويجعلون فـوق تلك العجلات صناديق الاقامة من بارود ورصاص وضوبلى وغير ذلـك ، وتجلس الطبجية على تلك الصناديق ويقوم آخرون حولهم قـد أخـذوا أهبتهم للقتال بكل ما يمكن ، ثم تندفع العساكر عـلى هذا الترتيب صفوفـا صفوفـا وتتقدم شيئا فشيئا يخلف بعضها بعضا كـأنهـا أمواج البحر تبرق الشمس على طسوس رؤوسها وتلمع على عددها المصقولة وآلاتها ، وهو فى هذه الحالة لا يفتر من رمى الكور والضوبلى والشرشم على كل جهة هكـذا قتاله أبدا ، واذا أدركه المساء أو وقعت محاجزة أثناء النهـار وكـان قصده الثبات ثبت بمحله ذلك ولا يتزحزح عنه بحال الا اذا فنى كـل عسكره أو جله ، فبمثل هذا الضبط كان له الاستيلاء والظهور ، وأما مقاتلة المسلمـين له فكانت غير منضبطة وانما قاتله من قاتله منهم باختياره ومـن قبل نفسه ، وان كان هنالك ضبط من أمير الجيش فكلا ضبط ، ومتى ظهر له أن يذهب ذهب مع ان الله تعالى يقول : (واذا كانوا معه على أمـر جامع لـم يذهبوا حتى يستاذنوه) لكن المقاتل من المسلمين يأتى القتال وليس معه ما يأكل ولا ما يشرب فبالضرورة اذا جاع أو عطش ذهب يبحث عما يقيم به صلبه ، ثـم هم يقاتلون على غير صف ولا تعبية بل يتفرقون فى الشعاب ومخارم الاودية وحول الاشجار فيقاتلون من ورائها واذا دفعوا فى نحر العدو دفعوا زرافات ووحدانا ، ثم اذا أدركهم المساء ووقعت المحاجزة ذهب كل الى خبائه الـذى تركه وراءه بمسافة بعيدة وهم فى هذا كله ليس لهم وازع يحملهم عـلى

ما يراد منهم

فالحاصل أن جيش مغربنا اذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم فهم فى تلك الحال مساوون فى الاستبداد لامير الجيش لا يملك من أمرهم شيئا ، وانما يقاتلون هداية من الله لهم وحياء من الامير وقليل ماهم ، وقد جربنا ذلك فصح ففروا عن السلطان المولى سليمان فى وقعة ظيان أولا وفى وقعة الشراردة ثانيا ، وكان السلطان المولى عبد الرحمن أهيب فى نفوسهم منه فكانوا يلزمون غرزه لكنه لما بعثهم الى تلمسان فعلوا فعلتهم وسلكوا عادتهم ، ولما شهدوا مع الخليفة سيدى محمد بن عبد الرحمن وقعة ايسلى جاءوا بها شنعاء غريبة فى القبح ولولا أنه قام بنفسه ليلة الحاج عبد القادر ومنع الناس من الركوب لربما عادوا الى فعلهم ، وأحسن ما كانت حالهم فى هذا الحرب فانهم قاوموا العدو وفرقوا صفوفه غير مرة لكنهم أتوا من عدم الضبط الذى هو كضبطه فعدم ملاقاتهم للعدو فى الكيفية القتالية هو الذى أضر بهم واوجب لعدوهم الظهور عليهم ، اذ الشىء كما علمت انما يقاوم بمثله ، والشر انما يدفع بضده ، فالتنافى انما يحصل بين الضدين أو المثلين وحربنا وحرب الاصبنيول كان من باب الخلافين ولا تنافى بين الخلافين كما هو مقرر فى علم الحكمة ، والتوفيق انما هو بيد الله

ولنرجع الى الكلام على الصلح المتناول فنقول : لما دار الكلام بين المولى العباس رحمه الله وبين أردنيل فى الصلح اتعدوا للاجتماع فى يوم معلوم بمكان سوى بين المحلتين فلما كان ذلك اليوم ضرب بالمحل المعين خباء وجاء المولى العباس ومعه جماعة من وجوه جيشه وفيهم أبو عبد الله الخطيب التطاونى ، وخرج أردنيل ومعه جماعة من وجوه عسكره وخرج معه مقدم المسلمين بتطاوين الحاج أحمد آبعير رجاء أن يكون هو الترجمان بين الاميرين فيفوز بذكر ذلك الجمع وفخره فأخفق رجاؤه لانه لما توافى الجمعان الى الخباء بقى الناس كلهم قائمين على بعد منه ولم يدخله الا المولى العباس وأردنيل والخطيب لا رابع لهم فيما قيل ، وأبدى أردنيل من الادب والخضوع للمولى العباس ما جاوز الحد وتفاوضوا ساعة ثم انفض المجلس وتناقل الناس أن

حاصل ما دار بينهما أن أردنيل رغب في الصلح وتأكيد الوصلة بينهم وبين المسلمين على شروط ذكرها ، وأن المولى العباس توقف فيها وأحال ذلك على مشورة أخيه السلطان سيدى محمد وذهب كل الى سبيله ، وبقى الناس ينتظرون الجواب بأى شيء يأتى من عند السلطان وبعد أيام ورد الخبر بأن السلطان لم يقبل ذلك الصلح ، فاستمر الناس على حالتهم الاولى من كون محلة العدو بتطاوين وبعضها خارجها شرقا وغربا ومحلة مولاى العباس على بعد من البلد مقدار نصف يوم ، ثم ان المسلمين اجتمعوا ذات يوم وبيتوا محلة العدو النازلة خارج البلد في ليلة معلومة فتقدموا اليها وذلك في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وهجموا عليها في ليلة مظلمة والنصارى غارون وفتكوا فيهم فتكة بكرا باتوا يقتلونهم الليل كله ، ومن الغد كذلك الى المساء ، وقاتل النصارى ذلك اليوم أيضا ولكن الظهور كان للمسلمين ولولا قوة نفوس العدو باستنادهم الى البلد وتحصن كبيرهم بها لكانوا انكسروا كسرة شنيعة ، وكان عدد القتلى من النصارى في هذه الوقعة نحو الخمسمائة والجرحى أكثر من ألف ، وأما المسلمون فكان القتل فيهم ضعيفا ، ولما أصبح أردنيل ورأى ما حل بعسكره ساءت أخلاقه وقلب لاهل تطاوين ظهر المجن وأبدل تلك الشفقة التى كان يعاملهم بها بالغلظة والبشاشة بالاكفهرار ، وعمد الى مسجد الشيخ أبى الحسن على بركة رحمه الله فاتخذه مارستانا للجرحى فظلت الجرحى تنقل اليه وفرض على أهل تطاوين اللحف والقطائف فجمع من ذلك شيئا كثيرا فرشه بالمسجد المذكور لجرحاه ، وصار عامة عسكر النصارى بتطاوين كلما لقوا أحدا من المسلمين عيروه بالغدر وقبحوه ، ثم ان أردنيل أقام بعد هذه الوقعة نحو عشرة أيام ريثما استجم جيشه وأبلت جرحاه وخرج في تمام الشوكة وكمال الاستعداد يريد أن يضرب في محلة المسلمين فجعل تطاوين خلفه وتقدم حتى كان بوادى أبى صفيحة فلما شعر به الناس من أهل المداشر والمتطوعة تسابقوا اليه من كل جانب ووافق ذلك اليوم قدوم عرب الحياينة جاءوا فى حرد كبير وحنق شديد فقويت

قلوب الناس بهم واشتد أزرهم وتقدموا الى العدو فأنشبوا معه الحرب بأبى صفيحة قبل أن يصل الى محلة المسلمين وكثروه فأوقعوا به وقعة أنست مـا قبلها فقتلوا منه ما خرج عن الحصر ، وأما الجرحى فقل مـا شئت ، وكست قتلاه الارض ، ولما أعياه الدفن جعل يجمع الجماعة مـن الثمانية الى العشرة ويهيل عليها التراب ، ومع ذلك بقى منه عدد كبير بلا دفن حتى أنتن موضع المعركة من شدة نتن الجيف ، ونال المسلمون من عدوهم فى هذا اليوم مـا لم ينالوا قبله مثله ولا ما يقاربه، وكان الذكر فيه لعرب الحياينة ثم للمتطوعة غيرهم ، وأما محلة المولى العباس فكانت بعيدة عن المعركة بمسافة كبيرة .

وقد ذكر منويل خبر هذا اليوم : فأقر بأنـه أهرق منهـم دم كثير وخسروا فيه عددا كبيرا من نفوس العسكر والخيل ، ولما بلغ المولى العباس أن العدو قد برز من تطاوين وأن المسلمين يقاتلونه الان فى أبـى صفيحة قلب رأيه واستأنف النظر فى عاقبة أمره ، ورأى أن المسلمين وان نالوا من العدو فى هذه المرة وأبلغوا فى نكايته لكن الثمرة ضعيفة مـن جهـة أن نكايتنا له انما هى فى القتل والجرح ونكايته فى أخـذ الارض والاستيلاء عليها كما قلنا غير ما مرة فجنح رحمه الله الى الصلح واختاره عـلى الحرب حتى تدور للمسلمين سعود ان شاء الله

أخبرنى صاحبنا القائد الاجل أبو عبد الله محمد بن ادريس بن حمان الجرارى حفظه الله قال : لما طالت الحـرب بين المسلمين والنصارى عـلى تطاوين استدعانى السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله وأعطانى ستين ألف مثقال أذهب بها الى جيش المسلمين المرابط عـلى تطاوين بقصد المؤنة والصائر . وقال لى مع ذلك : اذا وصلت الى محلة المسلمين فانظر حالهم وتبصر فى جميع أمورهم وما هم عليه فى قتال عدوهم من الضبط وعدمه ، وهل هم مكفيون فى جميع ما تدعوا الحاجة اليه أم لا ؟ واستوعب ذلـك وائتنى بالامر على وجهه ، قال : فذهبت فوصلت الى المحلة يوم الخميس وفى صبيحة اليوم الذى يليه كان حرب أبى صفيحة فجاء النذير الى المولى العباس وأخبره بأن المسلمين الان يقاتلون العدو ، قال : فركبت فـى جماعة مـن

الناس وذهبت لانظر حال المسلمين وحال عدوهم كما أمرني السلطان رحمه الله فوصلت الى مقاتلة المسلمين فاذا هم يرتادون موضعا ينزلون بـــه أثقالهم ويضربون به أخبيتهم ليتفرغوا لقتال عدوهم ، فاذا هــم عزموا على النزول بوادي آكراز فأجهضهم العدو عنه بالرمي بالكور والضوبلى وهو متقـدم امامه لا يثنيه شيء فتأخروا عن ذلك المحل ونزلوا بمحل أمنوا به على أخبيتهـم وأثاثهم ، ثم تقدموا اليه وقاتلوه قتالا شديدا حتى ردوه على عقبه بالموضـع المعروف بآمصال مرتين أو ثلاثا ، وقتلوا منه ما جاوز الحصر ، وفي ذلـك اليوم استشهد عامل سفيان وبني مالك أبو محمد عبد السلام بن عبد الكريم ابن عودة الحارثي وبات العدو تلك الليلة بوادي آكراز الذي كان المسلمون أرادوا أن ينزلوا به وباتت محلة المسلمين بالفنيديق وتفرق جل متطوعتهـا كل الى حال سبيله على عادتهم وكان الوقت وقت شتاء وبرد غايــة قال : فلم يعجبني ذلك ومن الغد وهو يوم السبت أصبـح العدو مقيما والمسلمون مقيمين كذلك وكان الرأي أن يعاجلوه بوقعة أخرى ويلحوا عليه كي يكسروا شوكته ويهضموا ما دام متالما ولا يتركوه حتى يجم ويستريح ، لكنهم لـم يفعلوا ودار الكلام في ذلك اليوم في الصلح فأذعن كـل من الاميرين أمير المسلمين وأمير النصارى وجنحوا اليه لانهم كانوا معا قد سئموا الحرب وملوا القتال ، ثم من الغد وهو يوم الاحد تداعوا للاجتماع بعـد أن نهض العدو من محله الذي كان نازلا به واجتمـع وانكمش وأظهر القـوة بالتهيىء للحرب والتعبئة للقتال حتى انه اذا كان صلح فذاك والا فالقتال ، فعل ذلـك مكيدة ، والحاصل أن المولى العباس تقدم في جماعة من وجوه الجيش وتدنى أردنيل في جماعة من أصحابه كذلك بعد أن أمر بضرب خباء صغير يجتمعان به ، وتقدم أردنيل على الخباء بكثير لملاقاة المولى العباس واظهارا لـلادب معه فتلاقى به وعادا معا الى الخباء وحضر معهـم الترجمان ورجلان آخران وأبرموا الصلح وأعطى كل خط يده بذلك وانفصلوا وذهب كل الى محله ، وكان ذلك آخر حرب بين المسلمين والاصنيول ، ولما وصل الخبـر بانعقـاد الصلح الى عسكر النصارى فرحوا فرحا لم يعهد مثله وجعلـوا ينادون الباص

الباص أى الصلح الصلح ودخلوا تطاوين وهم رافعون بهــا أصواتهـم ومهما لقوا مسلما هشوا له كأنهم يهنئونه بالصلح ، وكان الصلح قـد انعقد بيــن المسلمين والاصبنيول على شروط منها أن يدفع السلطان اليهم عشرين مليونا من الريال ويخرجوا من تطاوين وما استولوا عليه من الارض الــتى بينها وبين سبتة الا شيئا يسيرا يزاد لهم فى المحدة على سبيــل التوسعة ، وكــان انعقاد هذا الصلح فى أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وتراخى السلطان رحمه الله فى دفع هذا المال فاستمر العدو مقيمـــا بتطاوين حتـى يستوفيه، وبعد سنة من يوم هذا الصلح استوفى عشرة ملايين منه وبقيت عشرة وقع الاتفاق فيها على أن يقتضيها العدو من مستفاد مراسى المغرب فأقام أمناءه بها لاقتضاء نصف داخل كل شهر منها وهم الان بهذا الحال والله تعالى يكفى المسلمين شرهم وشر كل شر ، وبعد ما وقع هذا الاتفاق أسلــم النصارى تطاوين الى المسلمين وكان خروجهم منها ضحوة يوم الجمعة الثانى مــن ذى القعدة سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف بعد أن مكثوا فيهــا سنتين وثــلاثة أشهر ونصفا ،ووقعة تطاوين هذه هى التى أزالت حجاب الهيبة عــن بــلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثلــه وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله تعالى العفــو والعافية فى الدين والدنيا والاخرة ، ولما فرغ السلطان رحمه الله مــن أمر تطاوين جد فى جمع العسكر المرتب على الترتيب المعهود اليوم ، وكان هذا السلطان أول من أحدثه من ملوك المغرب وكان احداثه اياه فى دولة أبيــه رحمــه الله بعد رجوعه من وقعة ايسلى مع الفرنسيس ، ثم جد فيه فى هذه الايام فجمع منه ما تيسر جمعه ، ثم رتب المكوس عــلى الابواب والمبيعات وكتب فى ذلك كتبا للآفاق ، فمما كتبه لامناء مرسى الدار البيضاء فى ذلك مــا نصه : وبعد فانا لما أخذنا فى جمع النظام للمصلحة المتعينــة ، الــواضحة البينة ، المقرر أمرها لدى الخاص والعام واجتمع منه عدد يسيــر ، واختبرنا ما صير عليه فى شهر واحد فاجتمع فيه عدد كثير ، فكيف ان جمعنا منـــه عددا معتبرا يحصل به المراد ، ويكون قذى فى أعين أهل العنـــاد ، اقتضى

الحال ذكر ذلك لكبراء التجار لينظروا فيما يستعان به على أمرهم ، اذ لابد من كفايتهم ؛ والا انحل نظام جمعهم ، وفى ذلك ما لا يجهله من له أدنى عقل ومحبة فى الدين ، فأشاروا بفرض اعانة لاضرر فيهـا على الرعيـة وسطروها فى ورقة وهى كلا شىء بالنسبة لما ارتكبه الملوك فى مثل هـذا للاستعانة به على المصالح المرعية ، وللضرورة أحكام تخصها كما هو معلـوم مقرر ، ومسطر فى غير ما ديوان محرر ؛ ثم اقتضى نظرنا أن نسند الامـر فى ذلك لاهل العلم ليقرروا للناس حكمه تقريرا تنشرح لـه الصدور ، ويعمل بمقتضاه فى الورود والصدور ، وان كان جلهم يعلم هذا اذ من المعلوم أن الرعية لايستقيم أمرها الا بجند قوى بالله ولا جند الا بمال وهو لايكون الا من الرعية على وجه لا ضرر فيه ، وقد أخذ الناس هذه مدة بحضرتنا العالية بالله وبمكناسة وتازا والعدوتين ومراكش فى ذلك ، وسلكوا فـى ترتيبه أحسن المسالك ، ولا نشك أن بركة ذلك تعود عليهم فـى أموالهم وأولادهم وأنفسهم ، فبوصول هذا اليكم قوموا على ساق الجد فى القبض من الناس بالباب على نحو ما فى الورقة المشار اليها ولا دخل للنصارى فى ذلك، والله أسأل أن يبارك للمسلمين فى مالهم ويعوضهم خلفا آمين والسلام فـى الثانى والعشرين من رجب الفرد الحرام عام سبعة وسبعين ومائتين وألف ، واذانجر بنا الكلام على اتخاذ العسكر وترتيبه فلا بـد من تتميـم الفائدة بذكر كلام نافع .



القول فى اتخاذ الجيش وترتيبه وبعض آدابه

اعلم أنه واجب على الامام حماية بيضة الاسلام وحياطة الرعية وكف اليد العادية عنها والنصح لها والنظر فيما يصلحها ويعود عليها نفعه فى الدين والدنيا ، ولا يمكنه ذلك الا بجند قوى وشوكة تامة بحيث تكون يده غالبة على الكافة وقاهرة لهم ، فاتخاذ الجند اذا واجب وعليه فيندب له أن يتخذ لهم ديوانا يجمع أسماءهم ويحصى عددهم ليحصل الضبط وينتفى اللبس ، وأول من اتخذ الديوان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أمر عقيل بن أبى طالب ومخزمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بعدها الاقرب فالاقرب ، فهكذا ينبغى للامام أن يرتب جنوده فى ديوان يحفظها ودستور يجمعها ، ثم ينبغى أن يكون عنده أولا ديوان كبير هو الام يجمع أسماء العساكر كلها الحاضرة والغائبة والخاصة والعامة، ثم يجعل دواوين صغارا يشتمل كل واحد منها على طائفة مخصوصة مثل عسكر الامام الذى يلازمه حضرا وسفرا وعساكر الثغور والقلاع ونحو ذلك ، وتكون هذه الدواوين الصغار بمنزلة الفروع للكبير تجدد كلما تجددت الطوائف كما سيأتى ، وكل ديوان منها يشتمل على أرحاء مثلا وكل رحى على مئين وكل مائة بضباطها وطبيبها وعالمها الذى يعلمها أمر دينها وغير ذلك .

قال صاحب مصباح السارى ما ملخصه · كانت الدولة العثمانية فى أول أمرها اذا استخدمت طائفة من الجند بقيت فى الخدمة طول عمرها ولما كان هذا الامر صعبا يعنى وغير مقتض للتسوية بين الرعية فى هذا الحق العظيم اقتضى نظرهم أن يعملوا القرعة بين أبناء الرعايا عند انتهاء كل خمس سنين فمن استكمل مدة خدمته وتبصر بما يلزمه من حرب عدوه وقدر على المطالبة والمدافعة ذهب الى حال سبيله لطلب معيشته ، فذو الحرفة يرجع

الى حرفته والتاجر الى تجارته وهكذا ، ويؤتى بطائفة أخرى بدلها حتى تصير الرعية كلها جندا قادرة على المطالبة والمدافعة متى احتاجت الى ذلك ، ثم من استوفى مدة خدمته بقى معدودا فى صنف الرديف سبع سنين أخرى، ومعنى الرديف أنهم يكونون عدة للدولة متى احتاجت اليهم فى نازلة عظيمة أو حرب عامة مثل ما يكو نبين الاجناس ، فاذا انسلخت السبع سنين فهو حر دائما وأبدا فلا يضرب عليه بعث ، ولا يكلف بغزو الا أن يشاء ، فجملة مدة الخدمة العسكرية بين أصلية ورديفية اثنتا عشرة سنة ، وشرط المستخدمين فى العسكر أن يكونوا فى سن العشرين الى خمس وعشرين سنة ، فمن زاد على ذلك أو نقص لاتقبله الدولة لينضبط الامر ، وان اصطلح على أقل من ذلك أو أكثر فلا بأس ، فاذا أريد اعمال القرعة بينهم وذلك عند رأس خمس سنين كما قلنا اجتمع كل من هو فى ذلك السن من أهل الناحية مثل مراكش وأعمالها وفاس وأعمالها والعدوتين وأعمالهما فى يوم معلوم من السة لايتقدم ولا يتأخر فيحضر نائب السلطان ويحضر القاضى والشهود وتكتب بطائق على عدد رؤوس الحاضرين فلان بن فلان الفلانى سنه كذا فاذا اجتمع لنا من البطائق مائة ونحن غرضنا استخدام خمسين مثلا أخذنا تلك البطائق واحدة واحدة حتى نستوفى الخمسين ثم نفتحها فمن عثرنا عليه فيها فهو عسكرى فى تلك المدة ، ومن أخطأته القرعة ذهب الى حال سبيله ، لكنه ان جاوز سن العسكرية الذى هو خمس وعشرون سنة ولم تصبه القرعة فهو فى صنف الرديف الى سبع سنين كما قلنا ، والذين أصابتهم القرعة وأثبتوا فى الديوان يرخص لهم فى الذهاب الى محالهم عشرين يوما لقضاء أوطارهم ثم يحضرون بعدها الى القشلة ، ومن تخلف عن حضور هذا الجمع بدون عذر مقبول يثبت فى الديوان بلا قرعة ، ويسقط من أصل العدد المطلوب ، ولا تقبل فيه شفاعة ولا فداء ،ومن ليس له الا ابن واحد من رجل كبير أو امرأة أرملة أو نحو ذلك ولاكافى له سواه فانه يسرح له لئلا يضيع لكن بعد حضور الجمع واثبات ما ادعاه ، ومن له ولدان وأصابتهما معا القرعة فيمسك واحد ويسرح له الاخر ،

ومن له أربعة أو خمسة وأصابت القرعة منهـم ثلاثة فأكثر أمسك اثنان وسرح الباقى ، ويعفى عن كل من كان مفردا فى بيته وعن كل أعور وأشل وأعرج وأحدب ، وعن كل مبتلى بداء مزمن أو علة معدية أو ضعيف الجسم نحيف البنية لايقدر على الاعمال الجندية وغير سالم المزاج وهكذا ، ويعفى عن طلبة العلم لكن بعد حضورهم وامتحانهم فمن ظهرت نجابته خلى سبيله لانه قد قام بوظيف هو من أهم الوظائف ومن كـان قليل الفهم أو مقسم البال أو طائش الفكرة لاترجى فائدته وانما تستر بطلب العلم دخـل فـى القرعة ، واذا كان لرجل ولدان وأصابت القرعـة أحدهما وأراد ابدالـه بالآخر فذلك له اذا توفرت فيه شروط الخدمة ، واذا أراد أن يبدله بغير أخيه من عبد أو أجير فلا بد من زيادة قدر معلوم من المال لا يجحف به ولا يؤدى الى تعطيل تجارته ولا بيع أصله ، ولهـذا البدل شروط : الاول أن يكون سالما من الآفات المتقدمة ، الثانى أن لايكون ممن استوفى مـدة الخدمة التى هى خمس سنين ودخل فى صنف الرديف اللهم الا اذا لم تكن القرعة أصابته حتى جاوز السن المعلوم وصار فى صنف الرديف فهذا يقبل ، الثالث أن يكون من أهل تلك الناحية فلا يقبل مراكشى عـن فاسى مثلا وبالعكس ، الرابع أن لايكون من العبيد السود اللهم الا اذا كـان فى الجند صنف منهم فيقبل فى صنفه ولا باس اذا كان مملوكا أبيض ، الخامس أن لايكون من الذين استعملوا فى الجندية وأخرجوا منهـا لعارض خلقـى أو خلقي مثل آفة بدنية أو فعل قبيح من سرقة ونحوها ، السادس أن لايكـون البدل قد جيء به بعد ثلاثة أشهر ثم اذا فر البدل فينتظر مجيئـه الى شهر فان جاء والا أخذ به صاحبه الذى جاء به ، ثم اذا انتظـم هذا الجمـع العسكرى فأول ما يعلمونهم أمر دينهم مما لابد منه على سبيل الاختصار بأن يلقنوا كيفية التلفظ بالشهادتين ويبين لهم معناها بوجه اجمالى ، فان جـل العوام سيما أهل البادية والقرى النائية لا يفقهون ضروريات دينهم ، ويعلمون كيفية الوضوء والصلاة ويلزمون بالمحافظة عليها حتى ان من لـم يحضر منهم وقت النداء لها يعاقب عقابا شديدا والا فلم يحضر عنـد سماعه الطرنبيطـة

ولا يحضر اذا سمع داعى الله فهذا أول مايتعلمونه لتعود عليهم بركة الدين وينجح سعيهم فى حماية المسلمين ، فانا لم نرد بجمع هـذا الجند الا حفظ الدين فاذا كان الجند مضيعا له فكيف يحفظه على غيره ويعود على المسلمين نفعه ، ثم بعد هذا يعلمون الامور التى تدل على كمال المروءة وعلو الهمة من الحياء والحشمة والايثار وترك الكلام الفحش وتوقير الكبير ورحمة الصغير ويلقنون أن من أفضل الخصال عند الله وعند العباد الغيرة على الدين والوطن ومحبة السلطان ونصحه ، ويقال له مثلا : اذا كان العجمى الزنديق يغضب لدينه الباطل ووطنه فكيف لا يغضب العربى المؤمن لدينه ودولته ووطنه ، ولا بد من ترتيب مجلس يومى يسمعون فيه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه ومغازى الخلفاء الراشدين وسلف الامة وأخبار رؤساء العرب وحكمائها وشعرائها ومحاسنهم وسياساتهم وليتخير لهم من الكتب الموضوعة فى ذلك أنفعها مثل : « كتاب الاكتفاء » لابى الربيع الكلاعى ، وكتاب ابن النحاس فى الجهاد ،وكتاب « سراج الملوك » ونحوها، فان ذلك مما يقوى ايمانهم ويحرك هممهم ويؤكد محبتهم فى الدين وأهله، وينبهون على التحافظ على ثيابهم وأطرافهم من الاوساخ والاوضار التى تدل على دناءة الهمة ونقصان الانسانية وعدم النخوة ، ويلزمون بترك استعمال الدخان فانه مناف لنظافة الدين ومذهب للمروءة والمال بلا فائدة ، ثم اذا رسخت فيهم هذه الآداب فى ستة أشهر أو عشرة أو أكثر أخذوا فى تعلم الثقافة وأمور الحرب ، ثم من أهم ما يعتنى به فى شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسلكوا سبيلهم فى اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم وغير ذلك ، فقد عمت المصيبة فى عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين فى نفس ذلك التعلم ، فلا تمضى على أولاد المسلمين سنتان أو ثلاث حتى يصيروا عجما متخلقين بأخلاقهم متأدبين بآدابهم حتى أنهم تركوا السلام المشروع فى القرآن وأبدلوه بوضع اليد خلف الاذن ، فيجب على معلمهم فى حالة تعليمه اياهم أن يعدل عن الاصطلاح العجمى الى العربى ويعبر عن الالفاظ العجمية

بالعربية ، وان كان أصل العمل مأخوذا عن العجم فليجتهد المعلم الحاذق فى تعريبه وليس ذلك بعسير على من وفقه الله اليه ، وليس فيه الا ابدال لفظ عجمى بلفظ عربى بأن يقول مثلا : أمام ، خلف ، دائرة ، نصف دائرة ، وهكذا ، فاذا مرنوا عليه شهرا أو شهرين كان أسهل شيء عليهم لان تلك هى لغتهم التى فيها نشأوا وعليها ربوا ، فالعمل عجمى والكلام الذى ينبهون به على ذلك العمل عربى فأى كلفة فى هذا وبه يندفع عنهم التشبه بالعجم المنهى عنه شرعا ، فان التزيى بزيهم لا يأتى بخير أبدا وهو والله من أفسد الاشياء للدين الذى نريد أن نحوطه بهم

قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : من لم تصلحه السنة فلا أصلحه الله ، ثم عمود هذا كله وصلبه العقيم له وروحه الذى به حياته هو الكفاية فى المطعم والملبس ، وليختر لهم من الاغذية أطيبها وأنفعها للبدن ، وليجعل لهم كسوتان كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، وليتخير لهم من المساكن والمنازل أطيبها وأصلحها هواء وأبعدها عن محل الوخم ، وليلزمهم بالاعتناء بتنظيف مساكنهم وتبريدها وتطييبها حتى لا ينشأ عنها داء ، واذا تراخوا فى مثل ذلك عوقبوا عليه لانه دال على دناءة الهمة ودنىء الهمة لا يأتى منه شيء ، وليرتب لهم الاطباء العارفون حتى اذا أصاب أحدا منهم مرض عالجه الطبيب فى الحال ، فان هذا الجند هو سور الاسلام وسياج الدين فبحفظه يحفظ الدين وبسلامته يسلم ، فاذا اتخذ الجند على هذه الكيفية التى ذكرنا سهل على الناس الدخول فى الجندية وتنافسوا فيها ، ومن كان عنده من الرعية درهم طابت نفسه بأن يقتسمه معهم ويكون الجند حينئذ فى مرتبة هى أشرف من مرتبة الرعية بكثير لان الجند يحفظهم والرعية تكسب وتبذل لهم ، ثم اذا ظهر من آحاد الجند نجابة أو شجاعة أو نصيحة فى الخدمة السلطانية رفع قدره ونوه باسمه ليغتبط هو بمنزلته ويزداد فى خدمته ويغبطه غيره وينافسه فى خصاله التى أكسبته تلك المنزلة وليقس ما لم يقل ،والله الهادى الى التوفيق بمنه ولنرجع الى التاريخ فنقول :

وفى سنة سبع وسبعين ومائتين وألف وذلك فى يوم الثلاثاء الثانى عشر

من ذى القعدة منها توفى والدنا الفقيه المرابط الاخير أبو البقاء خالد بن حماد بن محمد الكبير الناصرى بقبيلة سفيان ، ودفن بتربة الشيخ أبى سلهام رضى الله عنه ، وكان رحمه الله من الورع والتحرى فى أكل الحلال على جانب عظيم بحيث فاق أكثر أهل زمانه فى ذلك ، وكان دينا وقورا كثير الاوراد ذا صمت وجد ، وله المام بالفقه والسيرة النبوية مرجو البركة عند العامة رحمنا الله واياه والمسلمين

ثورة الجيلانى الروكى ومقتله

كان الجيلانى الروكى من عرب سفيان رجلا خامل الذكر ساقط القدر حرفته رعى البهائم ونحو ذلك من عمل أهل البادية ، فوكل به جنى أو شيطان ففاه بالمخاريق وتبعته العامة فثار ببلاد كورت وتقدم الى دار القائد عبد الكريم بن عبد السلام بن عودة الحارثى السفيانى فى أخلاط من الاوباش بالعصى والمقاليع فحاصر القائد المذكور فى داره من الظهر الى الغروب ثم اقتحم العامة عليه داره فقتلوه وقتلوا جماعة من اخوته وبنى عمه ونهبوا ما وجدوا بداره وكان شيئا كثيرا من المال والاثاث ، وبقى أولئك القتلى مصرعين بفناء الدار ثلاثة أيام لم يدفنوا وافتتنت العامة بهذا الروكى ونسبوا له الخوارق والكرامات من غير استناد الى دليل ووعدهم بأنه يستولى على الملك ويحكم المتمسكين بدعوته فى الاموال كيف شاءوا ، وضاعت نفوس فى تلك الفتنة ونهبت أموال واختلط المرعى بالهمل ، وكنت حاضرا لهذا الخطب العظيم فكان من افتتان العامة بهذا المعتوه واعتقادهم فيه وجهلهم المركب فى أمره ما لا يكاد يصدق به اذا حكى ، وكان السلطان سيدى محمد رحمه الله يومئذ برباط الفتح فاهتز لهذا الخطب لان الشيطان كان قد نفخ فى اباطيل الروكى وشاعت فى العالم حتى اهتز لها النصارى الذين كانوا بتطاوين وحدثوا أنفسهم بالفرار ، ثم ان السلطان

رحمه الله أغراه أخاه المولى الرشيد ، فلما سمع الروكي بمجيئه وعد أوباشه بانه سينصر عليه وان خيل السلطان تكون غنيمة له وقال لهم : اتخذوا الشكائم أي الارسان من الدوم وأعدوها لتقودوا بها خيل السلطان ، فاتخذ جمع عظيم من العامة الحبال والارسان وتوشحوا بها تحت الثياب وجعلوا يتبعون الروكي أينما ذهب انتظارا لوعده ، ولما قرب المولى الرشيد منه أخذ أمره في النقصان وناموسه في البطلان ، ولما كان المولى الرشيد قرب سوق الاربعاء من بلاد سفيان جعل الشكائمية يقربون من المحلة ويتطوفون حولها مختفين بالاودية والشعاب والكدى ينتظرون هزيمتها بخارق من خوارق دجالهم ، فأعلم المولى الرشيد بمكانهم فبعث الخيل فالتقطوهم في ساعة واحدة ولم يفلت منهم الا القليل وسيقوا الى رباط الفتح فسجنوا به مدة ، وأما الروكي فانه قصد جبل زرهون ودخل روضة المولى ادريس الاكبر رضى الله عنه فاجتمع عليه جماعة من الاشراف الادارسة والعلويين وغلقوا أبواب القبة وتقدم اليه شريف علوى ففتك فيه وأراح الناس من شره واحتزوا رأسه ويده وحملوهما الى السلطان فبعث بهما الى مراكش فعلقا بجامع الفناء مدة ، وكان جهلة العوام لا يصدقون بموته وبقوا ينتظرون رجعته سنتين أو ثلاثا (ومن يضلل الله فماله من هاد) وكان مقتل الروكي في أواسط شعبان سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف ولم تجاوز مدته أربعين يوما ، وكان مما كتبه السلطان في شأنه ما نصه : وبعد فان فتانا من سفيان مرق من الدين وفتن بأمور شيطنته من اغتر به من المسلمين ، وجمع عليه أوباشا من أمثاله وأضرابه وأشكاله ، وتقدم بهم لدار خديمنا ابن عودة فقتلوه ثم تقدم بهم للشراردة فقاتلوه ثم تقدم بهم لزاوية مولانا ادريس فقاتله أهلها قتالا يرضى الله ورسوله ولم يحصل لهم من قتاله خجر ثم قبضوا عليه وقتلوه وعلقوا رأسه بباب الزاوية المسمى بباب الحجر وأغلقوا الابواب بعد ذلك على من دخل معه من أتباعه وانصاره واشياعه ، فقبضوا عليهم وجعلوهم في السلاسل والاغلال ، ونحن على نية اقامة الحد عليهم ان شاء الله جزاء وفاقا على ما ارتكبوه من الفساد وقبيح الاعمال ، ومن كان منهم حينئذ خارجا عن

الباب تخطفته الايدى ، وجنوا ثمار ماسعوا فيه من البغى والتعدى ، وقطع دابر جميعهم فالحمد لله حق حمده ، وما كل نعمة الا من عنده ، وأعلمناكم لتكونوا على بصيرة اذ ربما يبلغ المرجفون على عادتهم النازلة على غير وجهها والسلام ، فى ثامن عشر شعبان المعظم عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف .

ايقاع السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله بعرب الرحامنة

لما كان السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله بلاد الغرب مشتغلا بأمر الاصبنيول وحربه على تطاوين ثار عرب الرحامنة بالحوز وعمدوا الى سوق الخميس بمراكش فأغاروا عليه وانتهبوه وسلبوا المـــارة وأرباب الجنات وضايقوا أهل مراكش حتى منعوهم مـن الارتفاق حـــول المدينة ، فانقطعت السبل وارتفعت الاسعار وقطع الرحامنة ما حـــول الاسوار مـــن الاشجار واحتطبوها ، وحصدوا الزروع فـــى الفـــدن واغتصبوها ، واشتد الحصار وتخاذلت الانصار ودام الحال الى أن فرغ السلطان رحمه الله مـــن حرب الاصبنيول وفتنة الروكى فوجه وجهته الى مراكش ، فلما قرب منهـا تحزب الرحامنة وأجمـعوا على حربـه فانحازوا الى ناحيـة الرميلة والاودية وزاوية ابن ساسى ليحولوا بينه وبين الدخول الى مراكش فهجم عليهـــم وأوقع بهم وقعة سيقوا بها بعد ساعـة الى مراكش مقرنين فى الحبال حتى ضاقت بهم السجون، ولولا أنه رحمه الله كف أيدى الجيش عنهم لاستأصلوهم ثم عفا عنهم بعد أن انتزع منهم بلاد آيت سعادة وغواطم والاودية وهى من أخصب البلاد وأزكاها ، وكتب السلطان فى هذه الوقعة لاخيه المولى الرشيد بكتاب مختوم عليه بالخاتم الكبير بين الافتتاح والخطاب، وبداخل الخاتم : محمد ابن عبد الرحمن غفر الله له ، وبدائرته :

ومن تكن برسول الله نصرته ‌ ‌ ‌ ‌ ان تلقه الاسد فى آجامها تجم

(وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) وبأركان الخاتـم : الله محمد

أبو بكر عمر عثمان على ونــص الافتتاح : الحمد لله الـذى تدارك الامــة بالطف الكفيل بتمهيد أقطارها وتيسير أوطارها وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين نصروا الدين بالصفاح والاسنة ، وأوضحوا أحكام السنة، أخانا الاعز الارضى مولاى الرشيد أصلحك الله وأعانك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ، فانه لما تواترت الانباء المحققة بعد التباسها وتواردت الاخبار التى يغنى نصها عن قياسها بما ارتكبه ظالمــوا أنفسهم الرحامنة من أنواع الفساد التى أذاعوها وأظهروها وأشاعوها ، وقـد كانت فى صدورهم كامنة ، صرفنا الوجهة اليهم وطوينا المراحل من أجلهم ، ولما حللنا بلادهم أرسلنا عليهم سيل العرم من العساكر المنصورة والجيوش الموفورة ، فما كان غير بعيد حتى أتوا برؤوس منهم كثيرة محمولة على أسنة الرماح ، وأسارى من مقاتلتهم مجردين من الثياب والسلاح ، ومن نجى منهم رجع مجردا الا من خيبة سعيه ، وما سقى الا بكأس بغيــه ، واستولت العساكر والاجناد على جميع ما كان عند أهل الفساد ، ومن المعلوم أن من سل سيف البغــى يعود الى نحره ، ومن ركب متن الشقاق يغرق فى بحره ، وأن الفتنة نار تحرق من أوقدها ، والمخالفة صفقة تعود بالخسارة عــلى من عقدها ، ولما أردنا معاودتهم لقطع دابرهم وتشتيت ما بقى مـــن رماد أثرهــم تعلقـــوا بالمرابطين من ذوى الوجاهات ، وأكثروا من الذبائح على المحـــال وتوجيه العارات ، وقاموا بواجب السمع والطاعة فى كـــل مـا أمرناهم بـــه جهد الاستطاعة ، فأبقينا عليهم وان عادت العقرب عدنــا بحول الله لهـــا وكانت النعل لها حاضرة ، فالحمد لله الذى خيب آمالهم وأبطـــل أعمالهــم وخذل أنصارهم ، وأركد أعصارهم لما أعمى أبصارهم ، وردهــم ناكصين على الاعقاب بعد سلب الاموال وقطع الرقاب ، (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومـــن يشاقــق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) ، ونعـــوذ بالله مـــن الآراء المعكوسة والحظوظ المنكوسة ، وسوء الفعل الـذى يورد المهالك ، والحرمان الذى يجعل البصير كالاعمى فى دجنة الليل الحالك ، هذا ويصلكم ما قطـــع من رؤوس قتلاهم لتتعلق بباب المدينة ويعتبر بها المعتبرون ، ويتذكر بهـــ

المتذكرون ، والله أسأل أن لا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، وأن يكون لنا وللمسلمين بما كان لاوليائه وأحبائه وأصفيائه ، وأن يوفقنا واياهم لما يحبه ويرضاه ، ويختم للجميع بخير والسلام ، فى ذى الحجة الحرام عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ومن تمامه : وان علقت يوما واحدا فادفعها لحملتها ولا بد ليتوجهوا بها الى مكناسة صح به اه نص الكتاب الشريف .

وفى سنة تسع وسبعين ومائتين وألف سافر شيخنا الفقيه العلامة البارع أبوعبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوى الى الحجاز لاداء فريضة الحج فوافته منيته بمكة المشرفة بعد الفراغ من الحج والعمرة ودفن بالمعلاة ، وكان رحمه الله واعية دراكة نفاعة كثير الدرس والتقييد والنسخ للكتب المعتبرة فصيح العبارة حسن النغمة والصوت عارفا بالحديث دأوبا على سرده عارفا بالنحو والفقه وعلوم الآلة ، لازمناه وانتفعنا به وعادت علينا بركاته رحمه الله ونفعنا به ، وكنت رثيته بقصيدة ذهبت فى جملة ما ذهب من شعرى اذ لم يكن لى اعتناء بتقييده ومطلعها :

ملازمة التذكار تذهب باللب   وتغرى قديم الوجد بالهائم الصب

وفى سنة ثمانين ومائتين وألف وذلك يوم السبت الرابع عشر من شعبان منها كانت هدة البارود بمراكش وذلك أنه كان بجامع الفناء منها فندق فى بعض بيوته نحو أربعمائة قنطار من البارود وبه أيضا شىء من فحم الريش المتخذ للبارود فوقعت فيه نار وسرت منه الى البارود فنفض وقت الغروب من اليوم المذكور والناس كثيرون حول الفندق فطار الفندق بما فيه ، وكانت حيطانه عادية وطار من كان حوله من الناس قيل نحو الثلاثمائة فمنهم من لم يوجد أصلا ومنهم من وجد بعضه من يد أو رجل ونحو ذلك ، وتهدمت كل دار كانت متلاشية بمراكش وانخلعت الاقفال من الابواب وصرصرت السقوف والحيطان وكان الحادث عظيما ، وفى هذه السنة ورد يهودى من اللوندرة على السلطان بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب وذلك لانه لما كانت وقعة تطاوين ودهم الناس ما دهمهم من أمر الحمايات

وأكثر من تعلق بها اليهود لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبها بيهود مصر ونحوها فكتبوا الى يهودى من كبار تجارهم باللوندرة اسمه روشابيل وكان هذا اليهودى قارون زمانه وكانت لـه وجاهة كبيرة فى دولة النجليز لانها كانت تحتاج اليه فيسلفها الاموال الطائلة وله فى ذلك أخبار مشهورة فكتب يهود المغرب اليه أو بعضهم يشكون الـيه ما هم فيه من الذلة والصغار ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان رحمه الله فى الانعام عليهم بالحرية فعين هذا اليهودى صهرا له للوفادة على السلطان رحمه الله فى هذا الغرض وفى غيره وأصحبه هدايا نفيسة وسأل من دولة النجليز أن يشفعوا له عند السلطان ويكتبوا له فى قضاء غرضه ففعلوا ، وقدم عـلى السلطان بمراكش وقدم هداياه وسأل تنفيذ مطلبه فتجافى السلطان رحمه الله عن رده مخفقـا وأعطاه ظهيرا فتمسك به اليهودى يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى، ونص الظهير المذكور بالطابع الكبير :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قـوة الا بالله العلى العظيم ، نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع فى سمـاء المعالى شمسه المنيرة وبدره من سائر خدامنا وعمالنـا والقائمين بوظائف أعمالنـا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر ايالتنا بما أوجبه الله تعالى مـن نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم فى الاحكام حتى لا يلحـق أحدا منهـم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ، ولا ينالهم مكـروه ولا اهتضـام ، وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم ، وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم الا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لان الظلم ظلمات يوم القيامة ، ونحن لا نوافق عليـه لا فى حقهم ولا فى حق غيرهم ، ولا نرضاه لان الناس كلهم عندنا فـى الحق سواء ، ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فانا نعاقبه بحـول الله ، وهذا الامر الذى قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا لكـن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا فى حق من يريد ظلمهم ، وتشديدا

ليزيد اليهود أمنا الى أمنهم ، ومن يريد التعدى عليهم خوفا الى خوفهم ، صدر به أمرنا المعتز بالله فى السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف ، ولما مكنهم السلطان من هذا الظهير أخذوا منه نسخا وفرقوها فى جميع يهود المغرب وظهر منهم تطاول وطيش وأرادوا أن يختصوا فى الاحكام فيما بينهم لا سيما يهود المراسى فانهم تحالفوا وتعاهدوا على ذلك ثم أبطل الله كيدهم وخيب سعيهم على أن السلطان رحمه الله لما أحس بطيش اليهود عقب ذلك الظهير بكتاب آخر بين فيه المراد وان ذلك الايصاء انما هو فى حق أهل المروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم ، وأما صعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض فيما لا يعنى فيعاملون بما يستحقونه من الادب .

واعلم أن هذه الحرية التى أحدثها الفرنج فى هذه السنين هى من وضع الزنادقة قطعا لانها تستلزم اسقاط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الانسانية رأسا ، أما اسقاطها لحقوق الله فان الله تعالى أوجب على تارك الصلاة والصوم وعلى شارب الخمر وعلى الزانى طائعا حدودا معلومة والحرية تقتضى اسقاط ذلك كما لا يخفى ، وأما اسقاطها لحقوق الوالدين فلانهم خذلهم الله يقولون : ان الولد الحدث اذا وصل الى حد البلوغ والبنت البكر اذا بلغت سن العشرين مثلا يفعلان بأنفسهما ما شاءا ولا كلام للوالدين فضلا عن الاقارب فضلا عن الحاكم ونحن نعلم أن الاب يسخطه ما يرى من ولده أو بنته من الامور التى تهتك المروءة وتزرى بالعرض سيما اذا كان من ذوى البيوتات ، فارتكاب ذلك على عينه مع منعه من الكلام فيه موجب للعقوق ومسقط لحقه من البرور ، وأما اسقاطها لحقوق الانسانية فان الله تعالى لما خلق الانسان كرمه وشرفه بالعقل الذى يعقله عن الوقوع فى الرذائل ويبعثه على الاتصاف بالفضائل وبذلك تميز عما عداه من الحيوان ، وضابط الحرية عندهم لا يوجب مراعاة هذه الامور بل يبيح للانسان أن يتعاطى ما ينفر عنه الطبع وتأباه الغريزة الانسانية من التظاهر بالفحش والزنا وغير ذلك ان شاء لانه مالك أمر نفسه فلا يلزم أن يتقيد بقيد ولا

فرق بينه وبين البهيمة المرسلة الا فى شيء واحد هو اعطاء الحق لانسان آخر مثله فلايجوز لهأن يظلمه، وما عدا ذلك فلاسبيل لاحد على الزامه اياه،وهذا واضح البطلان لان الله تعالى حكيم ومـــا ميز الانسان بالعقل الا ليحمله هذه التكاليف الشرعية من معرفة خالقه وبارئه والخضوع له لتكون له بها المنزلة عند الله فى العقبى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض) الآية .

واعلم أن الحرية الشرعية هى التى ذكرها الله فى كتابه وبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته وحررها الفقهاء رضى الله عنهم فى باب الحجر من كتبهم فراجع ذلك وتفهمه ترشد وبالله التوفيق .

وفى سنة احدى وثمانين ومائتين وألف كمل بناء الدار الفيحاء التـى أنشأها السلطان سيدى محمد رحمه الله بآجدال من ظاهر رباط الفتـــح بجوار ضريح جده سيدى محمد بن عبد الله وهى دار كبيرة حسنة البنـــاء واسعة المقاعد والفناء يقال انها من أخوات بديع المنصور ، ولما كمل بناؤهـــا أمر السلطان رحمه الله أن يختم فيها فقهاء رباط الفتـــح صحيـــح البخارى أولا وفقهاء سلا ثانيا فدخلناها فى جملتهم وتقصينا منازلهـــا ومقاعدها فرأينا ما ملأ أبصارنا حسنا واتقانا وعجيب صنعة .

وفى سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف حدثت فتنة بفاس وذلـك أن الناس كانوا فى صلاة الجمعة بمسجد القرويين خامس ربيع الاول وكـان فيهم التاجر الامجد أبو عبد الله حبيب بن هاشم ابـــن جلـون الفاسى فلما سجد مع الناس شدخ بعض اللصوص رأسه بحجر كبير من أحجار التيمم التى تكون بالمسجد ثم انحنى عليه بخنجر كـان بيده فقطـــع به صفاق بطنه وساوره التاجر المذكور وما بالعير من قماص ، ولمـا وقعت الضجـة قطـع الناس صلاتهم وخرجوا فارين من المسجد وتركوا ثيابهم ونعالهم ومصاحفهم وغير ذلك فقائل يقول : ان الامام المهدى قد خرج، وآخر يقول: ان الناس يذبح بعضهم بعضا فى الجامع ، واهتزت المدينة ثم تراجـع الناس بعد حين ، وأما اللص فانه خرج شاهرا سلاحه حتى وصل الى باب المسجد فكثره الناس وقبضوا عليه وانتزعوا السلاح من يده وكشفوه فاذا به قد أدار حبالا كثيرة

من تحت الثياب على بدنه وقاية له فقتلوه هنالك وبقي التاجر ابن جلـــون يعالج جراحاته الى أن مات من آخر الليل واتهم أوليـاؤه ناسـا من أعيـان فاس بأنهم أغروا بقتله ولم يثبت ذلك

وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف وجه السلطان رحمه الله قائد جيشه أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرقي وعامـل سلا أبا عبد الله محمد بن سعيـــد السلاوى باشدوريـن الى دولـة فرنسا بباريس ، وكان السبب في ذلك ما أخبرني به القائد أبو عبد الله بـن سعيد المذكور قال : كان سيدنا أمير المؤمنين سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله قد أصحبنا كتـابـا الى طاغية الفرنسيس وأمرنا بالكلام معـه في شـان هؤلاء النواب الذين يبعثهم الى المغرب وأن يكون ينتخبهم من بيوت الاعيان وممن يتصف بالتأني وحسن السيرة والوقوف عند ما حد لهم ، ولما وصلنا الى باريس شرحنا ذلك للطاغية المذكور كتابة ففرح وقابلنا بما لا مزيد عليـه من البرور الذى لا نقدر على شرحه مع أن اكرامنـا والحمد لله لهم يفـوق ذلك في الصوائر وكنا توجهنا ومعنا خيول وغيرها وأقمنـا بباريس شهـرا وكان مقامنا بدار كثيرة الفرش والاثاث من الفضة والمعدن ووكل بنا أمـين يصير علينا حسب نظرنا وقومة يباشرون فرش المنزل وتنظيفه وغير ذلــك ومعنا أصحابنا وطباخنا الا أنهم منعزلون بمحل يخصهم ، وفي كـل يـــوم تستدعينا الدولة للفرجة بمحل يسمى التياترو فيه مواعظ وحكم لمن تبصر ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر ، وقد أكرمنـا الطاغيـة بمنزله وأكرمنا الوزراء وعامل البلد والاعيان ليلا وكل واحد يجمع علينـا أعيان الدولـة وأهل البلد نساء ورجالا ، وعادتهم عند دخولك المنـزل أن تحيى الزوجة ومن معها بالسلام أولا ثم بعد ذلك تحيى الرجـل ، ورأينا من الطاغيـــة ووزيره على الامور البرانية من البرور والبشاشة ما جاوز الحد وطلب منـا هذا الطاغية أن نبحث له في كتب التاريخ بالمغرب هل نعثر على تاريخ بنـاء رومة وفي أي وقت بنيت واسم بانيها ونبعث به اليه اهـ كلام العامل المذكور وهو حفظه الله من أمثل الناس وأعدلهم وأتقاهم وله المنزلة الكبيرة عنـد

السلطان وعند الناس حرس الله مجادته ، وأدام بمنه عافيته وسلامته ،

ونص الكتاب الذى وجههم بهالسلطان رحمه الله مكتوبا فيهاسم السلطان بداخل الطابع الشريف : بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره الى الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بالمغرب الاقصى وهو محمد بن عبد الرحمن وفقه الله أدام الله نصره وزين بالخيرات عصره ، الى المحب الذى حل من مراتب الرياسة أسناها ، وحاز من خصال التقدم أقصاها وأدناها ، فأصبحت ألسن الرؤساء لهجة بذكره مفصحة بتسليم نتائج فكره ، ملك الممالك الفرنساوية السلطان نابليون الثالث بونابارتى ، أما بعد فموجب تحرير هذا المسطور اليكم اعلامكم بما تضمنه الفؤاد من خالص المحبة وحفظ الوداد ، واننا مسرورون بما يتجدد لدينا كل وقت من عقد أسبابها وما يظهر كل حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها فان محبتنا معكم الشخصية زادت على ما كانت عليه فى عهد الاسلاف ، وذلك لما جبلتم عليه من صفاء الطوية وحسن الائتلاف فان القلوب فى الوداد تتضاهى ، وما بنى على أصل وثيق كان جديرا بأن يعظم ويتناهى ، وبموجب ذلك عينا للسفارة اليكم خالنا الارضى الانجد القائد محمد ابن عبد الكريم الشرقى وهو أحد باشات جيشنا ومن كبراء رجال دولتنا مع ما تشرف به من قرابة الرحم لدينا ، ومعه خديمنا الارضى الامين الحاج محمد بن سعيد قائد سلا وهو عندنا أيضا بالمكان المكين لما تخلق به من الادب والعقل الرصين والغرض من توجيههما تجديد العهد بكم والحرص على موالاة المواصلة معكم لما فى ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد طريق الخير بين الايالتين، والظن بشيمتكم مقابلتهم بحسن القبول وتبليغهم فى وجهتهم غاية المأمول جريا على عادتكم القديمة، وسلوكا على طريقتكم القويمة ، وقد حملناهم ما فى خاطرنا من أمور السياسة الجالبة لمصالح الجانبين ما يقررونه لديكم ويعرضونه عليكم ، ففى اخبارهم كفاية وأوصيناهم بحسن الاستماع لما تلقونه اليهم والادب فى تلقى ما تعرضونه عليهم كما أننا نتحقق انكم لحسن

معاملاتكم ومزيد محبتكم توصون نوابكم الذين توجهونهم للخدمة بايالتنا السعيدة بحسن المعاملة والتقصى فى ترحيب الصدر والمجاملة ، والوقوف عند الشروط والعمل بمقتضاها ، والتمام فى الثانى والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف اه

واعلم أن هذا الكتاب بديع فى بابه غريب فى منواله قد اشتمل من التوريات والنكات ومقتضيات الاحوال على ما يشهد لمنشئه بالمعرفة والمهارة والبصيرة والبصارة رحمه الله ، وفى شوال من هذه السنة مرض السلطان رحمه الله مرضا شديدا أشرف منه على الهلاك بل اشاع المرجفون أنه قد هلك واضطربت أحوال الرعية وعاد أعراب البادية الى العيث فى الطرقات واستلاب الناس بها من المارة وغيرهم وحاصر عرب عامر مدينة سلا وعاثوا فى جناتها ومنعوا الداخل اليها والخارج منها وغلقت الابواب واستمر ذلك الى عيد الاضحى ، ثم ورد الخبر اليقين بابلال السلطان وافاقته من علته وكانت علته الداء المعروف بالخوانق بلغ به الى حد اليأس والاشراف ثم تدارك الله المسلمين بلطفه ومن على امامهم بعافيته فأعملت المفرحات والولائم فى جميع الامصار

قال أبو عبد الله أكنسوس ما ملخصه : لما أفاق السلطان رحمه الله من علته هذه كتب حجاب الحضرة ووزراؤها لابنه الخليفة المنتصر بالله أبى على المولى حسن بن محمد يهنئونه بعافية السلطان فأمر هذا الخليفة أعزه الله باخراج المدافع والانفاض حتى اهتزت الجبال ، ثم دعا أيده الله الناس الدعوة الحفلا فلم يتخلف ممن كان بمراكش أحد من العقلاء فأمر أيده الله بتهيئة جنان رضوان ففتحت أبوابه وفرشت قصوره وقبابه وفجرت أنهاره حتى تفتقت أزهاره ، وحضر وجوه الدولة وأعيانها ورؤساء القبائل وأقيالها ، وكان ذلك باثر عيد الاضحى قبل انفصال وفود العيد عن الحضرة ، ثم اندفع عليهم من الدار المولوية من سيول موائد الطعام الفاخر ما عم الاول منهم والآخر هذا للعامة المطلقة والاوزاع الملفقة ، وأما الخواص والوجوه فلهم الحظ الاوفر من العناية، والخطاب بصريح الترحيب

دون كناية بالقعود على الفرش الحريرية المذهبة ، والمقاعد العالية المطنبة ، والرش بمياه الازهار ومباخر الطيب وكل معنى لطيف ومنظر عجيب ، وقد أحضر كل واحد ما شاء من آلات اللهو والفرح على حسب ما اشتهى واقترح ، فلا تكاد تسمع فى تلك المجالس والمغانى الا أصوات المثالث والمثانى وضروب الالحان والاغانى ، واستمر الناس فى ذلك ثلاثة أيام والمولى الخليفة أعزه الله مع اخوته وبنى عمه فى القبة المحمدية الصويرية المشرفة على مجارى الخيل وملاعبها ومطاردها ومتاعبها ، وكل عشية يركب من بالحضرة من الوجوه والاكابر على عتاق الخيل والجياد الضوامر ويبدى ما عنده من الثقافة والفروسية مع اظهار الشارة المخزنية والابهة الملوكية ، ثم بعد هذا شرع كبار الدولة ووجوهها ورؤساؤها وقوادها فى انتخاب الصنائع والولائم كل على حسب ما أداه اليه اختياره واعتناؤه ، ثم تابع الناس فى نزهاتهم واظهار أبهاتهم وانتخاب دواعى الافراح ، ومقتضيات الازدهاء والانشراح فما يمر أحد ببستان الا ويجد به جماعة زاهية وطائفة منبسطة لاهية اهـ

وفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف كان بالمغرب جراد سد الافق وذلك فى ربيع الاول الموافق لشهر مارس العجمى فأكل النجم والشجر ثم عقبه فرخه المعروف بآمرد فأكل كل خضراء على وجه الارض واستلب الاعواد من أوراقها وقشرها من لحائها وفاض فى الامصار حتى دخل على الناس فى بيوتهم .

وفى سنة أربع وثمانين ومائتين وألف كان الغلاء المفرط بالمغرب الذى لم يتقدم مثله بلغ فيه الربيع وهو ربع ثمن المد بسلا ورباط الفتح ستين أوقية وباع الناس أثاثهم وحليهم بالبخس وكان الامر شديدا على الضعفاء وفى ذى القعدة من هذه السنة توفى القائد الاجل أبو محمد عبد الله بن عبد الملك بن بيهى الحاحى وكان من كبار قواد المغرب وأهل البذل والايثار والمعروف له فى ذلك أخبار مذكورة رحمه الله .

وفى سنة خمس وثمانين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب بالقىء

والاسهال المفرطين على نحو ما وصفناه في السنين الماضية وفي زوال يوم الاحد الحادي عشر من جمادى الاولى من السنة المذكورة توفي قاضي سلا الفقيه العلامة الورع أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد بن منصور ودفن بالجبانة المتصلة بضريح الشيخ أبي العباس ابن عاشر رضى الله عنه ، وكانت لهذا القاضي سيرة حسنة وعدل في الاحكام وتأن فيها مع سمت ومروءة وانقباض رحمه الله ، وبقيت سلا بلا قاض أربعين يوما حتى وقع اختيار السلطان على شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبي بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد عواد رحم الله الجميع .

وفي هذه السنة أمر السلطان رحمه الله بضرب الدرهم الشرعي وحاول ضبط السكة به وحمل الناس على أن لايذكروا في معاملاتهم وأنكحتهم وسائر عقودهم الا الدرهم الشرعي وشدد في ذلك وكتب فيه الى ولاة الامصار يقول في كتابه ما نصه : وبعد فان أمر السكة من الامور الواجبة المتعين رد البال اليها والاهتمام بشانها والنظر فيما يصدر بسببها من النفع والضرر للمسلمين وبيت مالهم ، وقد كان أسلافنا رحمهم الله اعتنوا كثيرا بشأنها وبضبط مصالحها ودفع مفاسدها وجعلوها على قدر شرعي معلوم لضبط أمرها والتبرك بتلك النسبة اذ بذلك يعلم المسلم علم يقين كمال النصاب عنده فتجب عليه فيه الزكاة التي هي من دعائم الاسلام أو عدم كماله فلا يكون مخاطبا فيه بشيء ، ولما رأينا ما حدث فيها من التغير وعدم الضبط ونشأ عن ذلك من الضرر للمسلمين وبيت مالهم مما لم يخف على أحد اقتضى نظرنا السديد ردها لاصلها الاصيل الذي أسسه أسلافنا الكرام سنة ثمانين ومائة وألف آذلنا فيهم أسوة حسنة في الاجمال والتفصيل ، فرددنا الدرهم الكبير المسلوك على وزن الدرهم الشرعي والمنهاج المرعي كما كان على عهد جدنا سيدي الكبير قدسه الله وجدد عليه وابل رحماه بحيث تكون عشرة دراهم منه هي المثقال كما هو معلوم ، ان عشرة دراهم من الدراهم التي كانت تروج قبل على عهد أسلافنا رحمهم الله هي المثقال وبهذا العدد الذي هو عشرة منه في المثقال تكون جميع المعاملات والمخالطات في البيع والابتياع

وغيرهما بين جميع رعيتنا السعيدة في كل البوادي والحواضر وبـه أمرنا جميع العمال ، ومن هو مكلف بعمل من الاعمال ، واشاعته ليبلـغ الشاهد الغائب وبه يقبل لجانب بيت المال وأمرناهم بالعمل بهذا الامر الذي أصدرناه وأبرمناه بحول الله وأمضيناه ، وأن يعاقبوا كل من عثروا عليه ارتكب خلاف ذلك ، وبأن يسلكوا به أضيق المسالك جزاء وفاقا على مخالفته وتعديه الحد وافتياته ، نعم ما سلف من المعاملات بجميع أنواعها فيما تقدم قبل تاريـخ هذا الكتاب فحكمه حكم ما تقدم في السكة فلا يكلف أحد بزيادة ، ومـن كان بذمته شيء فيما سلف يؤديه بحساب ما كانت تروج بـه السكة فـي الريال والدرهم والعمل بهذا الذي أمرنا به هو من الان لما يستقبل ان شاء الله ، وبهذا يزول الاشكال فيما تقدم بين الناس في المعاملات ، ونسأل الله أن يخلص العمل في سبيله ومرضاته ويجازي من فضلـه وكرمه على قصده وصلاح نياته والسلام ، في ثامن شوال عام خمسة وثمانين ومائتين وألف اهـ.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من شوال المذكور توفـي البركة الخير المنتسب سيدي الحاج محمد بن العربي الدلائي الرباطي بالدار البيضاء ودفن يوم الجمعة بالزاوية المنسوبة اليه بها رحمه الله ونفعنا به ، وفي هذه السنة كان سوق دار البلاد باريس من أرض افرانسا وذلك أن الطاغية نابليـون الثالث لما بلغ من ضخامة الدولة ونفوذ الكلمة ما قل اتفاقه لغيره من الاجناس حاول أن يتجاوز ذلك الى أن يجلب الى رعيته ودار ملكه كـل أمر غريب في العالم حتى يجتمع عنده ما افترق عند غيره فكتب الى ملـوك الآفـاق يقول : انه قد عزم على اقامة سوق بباريس في وقت معلـوم وطلب منهـم أن يبعثوا بتجارهم لحضورها وجلب سلعهم وغرائبهم اليهـا وقصده بذلـك عموم النفع وتعدي الصنائع والحرف من أمـة الى أخرى ، فأجاب الملـوك داعيه بمقتضى العرف الجاري بين الدول ، والعادة المقررة مـن عهد الملوك الاول ، ولم يبق الا من بعث تجاره ونفائسه وغرائبه من الجليل الى الحقير ، وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله قد بعث تاجره الحـاج محمد بـن العربي القباج الفاسي المعروف بالفرنساوي وهذا الرجل من العارفين باللسان

الفرنجي البصيرين بعوائد ذلك الجيل ولذا لقب بالفرنساوى وبعث معه السلطان رحمه الله كل شيء غريب مما اختص به قطر المغرب من سروج مذهبة ، ومناطق مزخرفة ، وقطائف منمقة ، وغير ذلك من الاعلى الى الادنى حتى الزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه فى محاله وحضر هذا السوق الملوك فمن دونهم من كل اقليم حتى السلطان عبد العزيز العثمانى رحمه الله ، فكان الحال كما قال أبو الطيب المتنبى :

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث الا التراجم

وأقامت عمارتها ثلاثة أشهر ثم انفض الناس الى بلادهم ، ولما بلغ نابليون الثالث الى هذه الغاية فجئته وقعة البروس التى كسرت من شوكته وفلت من غربه وقبض عليه باليد وحوصرت دار ملكه باريس مدة طويلة فبلغ فيها لحم الحمار أربعة ريالات افرنك لكل رطل على ما قيل ، ولم تغب عنهم محنة ووقع الصلح على شروط منها ألف مليون من الريال تدفعها دولة افرانسا لدول البروس .

وفى سنة ست وثمانين ومائتين وألف وذلك عشية يوم الخميس الرابع عشر من شعبان منها توفى الوزير أبو عبد الله محمد الطيب ابن اليمانى المدعو بأبى عشرين وكان سبب وفاته أنه كان به داء الحصر فدخل الميضاة التى بمشور أبى الخصيصات من دار السلطان بحضرة مراكش فيقال : ان مثانته تمزقت فمات رحمه الله وحمل الى داره وصلى عليه بعد الجمعة بمسجد المواسين وحضر جنازته الجم الغفير ودفن بضريح الشيخ أبى محمد الغزوانى من حومة القصور ، وكان رحمه الله ذا جد فى الأمور ونصح للسلطان والمسلمين .

وفى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف وذلك ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الثانى منها خسف القمر خسوفا كليا بعد الغروب الى نصف الليل ، وفى فجر يوم الجمعة الثامن من جمادى الاولى من السنة المذكورة توفى الولى الصالح الناسك السنى أبو عبد الله محمد الطيب ابن الشيخ الاشهر مولاى العربى الدرقاوى ودفن بمحل زاويته بآمجوط من بلاد بنى زروال ،

وكان من خيار عباد الله على غاية من التقوى والورع والتواضع مع الناس ، يركب الحمار ويلبس الجبة ولا يتميز عن أصحابه بشيء مع السكينة والوقار وعدم الخوض فيما لا يعني والاعراض عن زهرة الدنيا وأهلها رحمه الله ونفعنا به ، وفي التاسع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة انكسفت الشمس وكان ابتداء الكسوف على ما أعطاه التعديل بعد الزوال بنحو نصف ساعة ، وكاد يكون كليا حتى أظلم الجو وبقي من الشمس حلقة نورانية يسيرة ولم يمكن تحقيق وقت التجلي لتراكم السحاب ، وفي هذه الايام ظهرت حمرة في السماء غريبة أرجوانية مع غاية الصحو وكان ظهورها يكون فيما بين العشاءين معظمها في جهة الشمال ودامت كذلك نحو سبعة أيام وانقطعت وفي ليلة السبت الثامن من شوال من السنة وذلك في الساعة الثالثة منها زلزلت الارض ولم يشعر بها كثير من الناس لكونهم نياما .

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين وألف غزا السلطان سيدي محمد رحمه الله قبائل تادلا فمر على السماعلة منتصف رجب ، ثم منهم لبني زمور، ثم لابي الجعد ، ثم منه توجه لقصبة تادلا وعبر القنطرة ونزل على بني عمير، ثم زحف لبني موسى فأوقع بهم لانهم كانوا خارجين على عاملهم الغزواني ابن زيدوح فقطع منهم خمسين رأسا وقبض على أربعين مسجونا ، وفي أثناء ذلك قدم عليه وفد أهل مراكش وكانوا قد ثاروا على عاملهم أحمد بن داود لكونه كان يسير فيهم سيرة غير حميدة فقدموا على السلطان متنصلين مما فرط منهم فأعرض السلطان عنهم ولم يسمع منهم كلاما ولا قبل لهم عذرا فرجعوا مخفقين ، ثم تقدم السلطان رحمه الله الى مراكش وهو بغضبان على أهلها وكانوا مظلومين فيما قيل الا أنه لبس على السلطان في أمرهم فلما شارف المدينة خرجوا اليه بالعلماء والقراء وصبيان المكاتب متشفعين فلم يقف لهم ولا التفت اليهم ، وكان ابنه وخليفته المولى الحسن حاضرا يومئذ فتقدم الى أهل مراكش ورق لهم وقال لهم قولا جميلا ، وكان هذا الحادث في رمضان من السنة المذكورة ثم لم يلبث ابن داود بعد ذلك الا مدة يسيرة حتى توفي وتخلصت قائبة من قوب ، وعفو الله بعد ذلك مرقوب .

وفى سنة تسعين ومائتين وألف كانت جائحة النار بكثير من بلاد المغرب أحرقت الزروع والثمار واجيحت الجنات وتراجع الناس فى أثمان ما بيع منها بعد اثبات الموجبات ، وكانت أيام السلطان سيدى محمد رحمه الله فى أولها شديدة بسبب ظهور العدو على المسلمين وما عقبه من الغلاء والموت ، ثم بعد ذلك اتسع الحال وحصل الامن وانخضدت شوكة قبائل العرب بالمغرب وأمنت الطرقات من عيثهم وازدهت الدنيا ورخصت الاسعار رخصا يسيرا وكان الناس ممعشين فى أيامه وغلت الدور والاملاك حتى كانت فى بعض السنين لاتسمسر ومن يشترى دارا انما يشتريها بالتنقير عنها والطلب من ربها بالثمن الجافى ، واتخذ الناس ذوو اليسار المراكب الفارهة والكسى الرفيعة والذخائر النفيسة ، وتأنقوا فى البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لا سيما بفاس ورباط الفتح ، ولاحت على الناس سمة الحضارة الاعجمية ، وكان للسلطان سيدى محمد رحمه الله فى كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة فمن دونهم ، فكانت الرعية كأنها فى كف يده ، وكان يختار أولئك العيون من العوام فكانوا يكتبون له بالغث والسمين فيسمع ذلك كله فينتقى منه الصحيح ويطرح السقيم فاستقامت أحوال الرعية بذلك .

وفاة أمير المومنين سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله فى زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضرة مراكش فى البستان المسمى بالنيل ولم يمرض الا يوما أو بعض يوم قيل انه شرب دواء مسهلا فكان فيه أجله والله أعلم ، ودفن ليلا بضريح جده المولى على الشريف قرب ضريح القاضى عياض ، وكتب على رخامة قبره أبيات ليست من جيد الشعر وهى :

أمستعبرا حولى رويدك اننى ضريح سعيد حل فيه سعيد

هو العلوى الهاشمى محمد امام له فى الملك سعى حميد

أبوه أبو زيد وقدس ذكره	فقد كان يبدى فى العلى ويعيد
ترحم عليه واعتبر بمصابه	فعقد نفيس قد أصيب فريد
ومن رام تاريخ الوفاة فقل له	بشعرك أرخ ما عليه مزيد

بقية اخبار السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله وماۤثره وسيرته

كان السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله متقيا لله تعالى بانيا أمره على الشرع لا يشذ عنه طرفة عين حتى أنه لما عزم على بناء داره التى برباط الفتح قام جماعة من أهل البلد يطلبون منه النصفة فى جناتهم التى هنالك فأذعن رحمه الله لاعمال الشرع معهم واستناب وكيلا عنه واستنابوا هم وكيلهم أيضا وتحاكموا لدى قاضى سلا الفقيه أبى عبد الله محمد العربى بن احمد بن منصور ، ثم انفصلت القضية عن ضرب من الصلح بأن أعطاهم أثمان جناتهم أو بعضها وذهبوا بسلام ، وكان رحمه الله حازما فى أمره عالى الهمة راميا بها الغرض الاقصى الا أن الزمان لم يساعده كل المساعدة فكانت همته أجل من دهره وكان ذا سياسة وسكينة وتأن فى الامور وتبصر بالعواقب كثير الحياء بعيد الغضب سريع الرضى مشفقا على الرعية متوقفا فى الدماء لا يزايل خوف الله قلبه رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه ، وله آثار بالمغرب منها ما خلده أيام خلافته فى حياة والده ومنها ما فعله بعد ولايته

فمن آثاره فى أيام أبيه كما قال أكنسوس : اجراء الانهار وتفجير العيون التى عجز الملوك المتقدمون عنها ، وتكملة غرس آجدال بحضرة مراكش وكان فى زمان الصيف يناله الجدب من قلة الماء لان بركه التى كان يختزن بها الماء كانت قد تعطلت بامتلائها بالتراب والطين الذى تجلبه

السيول اليها وأعظمها البركة الكبرى التى بدار الهناء ، وكان يقال لها : البحر الاصغر ، وطولها اثنتا عشرة مائة قدم ، وعرضها تسعمائة قدم حسبما أخبر من قاسها ، وكان تربيعها بمنزلة سور قصبة فجاء من بنى فى وسطها قرية بدورها وأزقتها وأسواقها ، فجاء السلطان سيدى محمد رحمه الله أيام خلافته فامر باخراج مافى تلك البرك والصهاريج كلها وتنقيتها من الطيون المتحجرة فاجتمع على ذلك عالم من الناس فكنسوها وعادت الى حالها الذى بنيت لاجله وهو اختزان الماء لوقت المصيف وبذلك كمل المراد من آجدال وصار آمنا من العطش والامحال ، ومن ذلك أيضا احياء عين أبى عكاز خارج باب الطبول من مراكش وكانت لها بركة بائدة على الوصف الذى ذكرنا فعمد اليها سيدى محمد رحمه الله وفجر لها عينا ثرة وماء غدقا وأجراه الى البركة المذكورة بعد أن أمر بتنقيتها واصلاحها فعاد ذلك البسيط الذى حولها مزارع نفاعة تغنى الزارعين وتبهج الناظرين ، وبنى رحمه الله حولها قلعة يأوى اليها الاكرة والحراثون بأنعامهم ومواشيهم ، واتخذ هنالك من اناث الخيل المعدة للنتاج عددا كثيرا ، ومن ذلك احياء عين المنارة وبركتها العظمى التى تقرب من البحر الاصغر بدار الهناء وكانت قد عطلت منذ زمان فقيض الله لها هذا السلطان فجمع الايدى عليها حتى أخرج مافى جوفها من جبال الطين وأصلح ما تشعث من حيطانها وأجرى اليها العيون والانهار وأمر بغرس ما حولها من الفضاء بأنواع الاشجار وضاهى بها جنة آجدال ، ومن ذلك أيضا اجراء النهر المسمى بتاركى المستمد من وادى نفيس فانه ضاهى به النهر القديم الذى هناك وهذا النهر الجديد أنفع منه وأوسع أحيى الله به تلك البسائط التى بين مراكش ووادى نفيس ، ومن ذلك أيضا اجراء النهر الذى جلبه من تاستاوت الى البسيط الذى بين بلاد زمران والرحامنة والسراغنة وهو المسمى بفيطوط فصار ذلك كله رياضا مخضرة ، وبساتين ذات أزهار مفترة ، وبنى رحمه الله فيها قصبة عامرة يأوى اليها الوكلاء والفلاحون وصارت آهلة عامرة بعد أن كانت بائدة غامرة

ومن آثاره بعد ولايته أمر المؤمنين داره الكبرى بآجدال رباط الفتح والسور الكبير المحيط بسيطها ، وجلب الماء اليها بعد أن صير عليها أموالا كثيرة ، وأحيى جامع السنة قربها وكان بائدا يعشش فيه الصدى والبوم وأقام فيه الصلوات الخمس والخطبة كل جمعة ، وأحيا المسجد الصغير هنالك المسمى بمسجد أهل فاس واعتنى به وزخرف سقوفه وانتهج الطريق من الدار المذكورة الى الوادى أسفل من حسان تسهيلا على المارة وتقريبا عليهم ، ومنها أنه نقل طائفة من الجيش السوسى الذى بالمنشية وأوطنها حول الدار المذكورة بآجدال فاستطابوا المقام هناك وحسنت حالهم وانعمرت بهم تلك الناحية وهم الآن بهذا الحال ، ومنها بالدار البيضاء المسجد الجامع بالسوق وكان الصائر عليه من أحباس المسجد القديم وانما السلطان رحمه الله أذن فى بنائه باشارة عاملها يومئذ أبى عبد الله محمد بن ادريس الجرارى ، ومنها الحمام القديم الذى بها وكان الصائر عليه من بيت المال ، وأصلح رحمه الله أسوار الجديدة وأبراجها واعتنى بشأن الثغور وبعث من نوابه من يتفقد أحوالها ، ومنها بمراكش دار (فابريكة) السكر بآجدال منها صير عليها أموالا طائلة وجاءت على عمل متقن وهيئة ضخمة الا أنها اليوم معطلة لقلة المادة ، ومنها دار (فابريكة) تزديج البارود بالمحل المعروف بالسجينة من مراكش أيضا ، ومن ذلك برج الفنار الذى على ساحل البحر بأشقار قرب طنجة يسرج فيه ضوء كثير يظهر للسيارة فى البحر ليلا من مسافة بعيدة وصير عليه مالا له بال وكانت المراكب تنشب بذلك الساحل كثيرا اذ لم يكن لها علامة تهتدى بها فى البحر ، ولما اتخذ السلطان رحمه الله هذا الفنار أمنت من تلك الآفة ، وله رحمه الله آثار كثيرة يطول ذكرها جعلها الله فى ميزان حسناته ورفع بها فى عليين درجاته .

الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المومنين المولى حسن بن محمد ابن عبد الرحمن خلد الله ملكه

لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله اجتمع أهل الحل والعقد من كبار الدولة وقواد الجيش والقضاة والعلماء والاشراف وأعيان مراكش وأحوازها على بيعة نجله أمير المؤمنين المولى أبي علي حسن ابن محمد لما توفر فيه من شروط الامامة ، وتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامة ، ولما اتصف به من الفضل والدين وسائر خصال الخير وأسباب اليقين ، ولان والده رحمه الله كان استخلفه في حياته وألقى عليه بجميع مهماته ، فنهض باعبائها وتقلب من مغاني السعادة في ظلالها وأفيائها

قال أبو عبد الله أكنسوس : لما استخلف المولى الحسن حفظه الله لم تشغله شؤون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار ، ولا في قصوره السلطانية من الحدائق والازهار ، عن وظائف الدين وأسباب اليقين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة ، كما حدثني بذلك بعض بطانته وأنه يجد لها في خلواته لذة وحلاوة ، فلما توفي السلطان كما قلنا كان المولى حسن أيده الله غائبا عن الحضرة بابي ريقي من بلاد حاحة فكتب اليه رؤساء الدولة بما حدث من موت السلطان واجتماع الناس على بيعته فقدم مراكش في السابع والعشرين من رجب سنة تسعين ومائتين وألف ، ولما دنا منها خرج للقائه الوزراء والقضاة والاشراف والاعيان وسائر أهل مراكش برجالهم ونسائهم وصبيانهم فملأوا تلك البطاح وضاقت بهم الارض وأخذوا يعزونه ويهنئونه وهو أيده الله يقف لكل جماعة منهم على حدتها حتى النساء والصبيان اشفاقا عليهم وتطييبا لنفوسهم ، وكان يوم دخوله لحضرة مراكش يوما مشهودا وموسما من مواسم الخيرات معدودا ، ولما استقر بدار الملك قدمت عليه الوفود من جميع الامصار ونسلوا اليه من سائر النواحي والاقطار ، وكل وفد يأتي ببيعته وهديته ، واغتبط الناس

بولايته وتيمنوا بطلعته ، فقابل أيده الله كلا بما يستحقه من الاكرام وأفاض على الرعية جلائل الانعام ، وشرع فى تجهيز الجيوش وفتح بيوت الاموال فغمر الناس بالعطاء وكسا وأركب ، ونهض من مراكش يوم الاثنين رابع رمضان من السنة المذكورة قاصدا حضرة فاس والوقوف على الرعايا والنظر فيها بما يصلحها فمر على بلاد السراغنة وخرج منها الى البروج ومنها الى كيسر من بلاد تامسنا فاتصل به هنالك خبر فتنة أهل فاس وايقاعهم بالامين الحاج محمد بن المدنى بنيس ، وكان السبب فى ذلك على ما قيل أنه لما وصل خبر وفاة السلطان الى فاس وان الناس اجتمعوا على بيعة أمير المؤمنين المولى حسن أعزه الله واجتمع أهل فاس لعقد البيعة أيضا اشترط عامتهم لاسيما الدباغون أن يزال عنهم المكس فيقال أن بعض من أراد جمع الكلمة من العلماء والاعيان تكفل لهم بذلك عن السلطان ، ولما تمت البيعة أصبح الامين بنيس غاديا على عمله من ترتيب وكلائه لقبض الوظيف فى الاسواق والابواب وغيرها فكلمه بعض أعيان فاس فى التأخر عن هذا الامر قليلا حتى تطمئن النفوس ويثبت الحق فى نصابه ، وحينئذ يؤتى الامر من بابه فأبى وأصر على ما هو بصدده فثار به العامة وهدموا داره وانتهبوا أثاثه واستصفوا موجوده وأرادوا قتله فاختفى ببعض الاماكن حتى سكنت الهيعة ثم تسرب الى حرم المولى ادريس رضى الله عنه فأقام به وأمن على نفسه، وكانت فتنة عظيمة يطول شرحها واتصل بالسلطان وهو بكيسر أيضا خبر فتنة أهل آزمور وقتلهم لنائب عاملهم وكان عاملهم يومئذ أبو العباس أحمد ابن عمر بن أبى ستة المراكشى ونائبه هو أحمد بن المؤذن الفرجى من سكان آزمور ، وكان قتلهم له تاسع عشر رمضان من السنة ، ثم ان أهل فاس كتبوا الى السلطان أعزه الله وهو ببلاد تامسنا رسالة بليغة يتنصلون فيها من فعلة بنيس ويرمون بها العامة والغوغاء ومن لا خلاق لهم (ونصها):

الحمد لله وحده الكريم الذى لا يعجل بعقوبة من ارتكب الذنب وتعمده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الشفاعة الكبرى والجاه العظيم ، المخاطب بقول مولانا فى كتابه الحكيم: (وانك لعلى خلق عظيم) وعلى

آله الذين أوجب الله لهم مودة وحبا وأنزل فيهم (قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فـي القربى) وأصحابه الذين كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم فكانت الملائكة يوم حنين نصرهم وعونهم ، هذا ، ونخص المقام الذى علا قدره ، واستنار ضوءه وفجره ، وجلله الفخار والوقار وعلاه البهاء وكساه ، وألبسه الرسول من رداء الشرف يوم كان على وفاطمة والحسنان فى داخل كساه ، من ارتقى وفاق وساد ومهد به للخلافة المهـاد والوساد ، وتزينت بمدائحه الطروس العاطلة ، وخجلت لسماحته الغيوث الهاطلة ، من ضربت المفاخر رواقها بناديه ولم تزل المعالى تدعوه لنفسها وتناديه ، واتخذت بيعته جلبابا للاجياد والاعناق وأغضت مهابته الجفون والاحداق ، عين أعيان الدولة الشريفة المولوية وصدر المملكة العلوية ، الذين لم تزل سيرتهم فى سجلات الآثار المحمودة مرسومة ، ومآثرهم فى الدواوين مرقومة ، وألقى اليـــه هذا القطر المغربى الرسن وحل منه محل الوسن ، السلطان المـؤيد مولانا الحسن سلالة القوم الذين زكت نفوسهم وأينعت فى حدائق المزايا غروسهم، ويسير المجد تحت ألويتهم وتتعطر المجالس بطيب أفنيتهـم ، لا زال السعد يراوحك ويغاديك ، والعز نائما بواديك، والطعن فى عين حاسديك، والقذى فى عين أعاديك ، وجعلك الله من صروف الزمان فى أمان ، ولا قطـع الله عن جماعة العلماء جميل عادتكـم ، ولا سلب المسلمين مـلابس سعادتكم ، ورفع فى بروج السعادة أعلامك ومكن من رقاب الاعداء حسامك ، وجعل الفتح أينما توجهت قبالتك وأمامك ، وشريعة جدك مقلدك وأمامك ، فـــى نعمة طويلة الاعمار وروضة حلوة الثمار ، أما بعد ، أبعد الله عـــن ساحـة سيدنا كل شر ، وقرب منها المحسـن والبر ، وأبقاها ملجا المحتاج والمضطر، فانه لما ورد علينا من حضرة سيدنا العظمى ومكانته الشما كتاب سنى معظم الصفات والاسما بديع المعانى رائق المبانى ، غمر ببلاغته البلغـا ورقى ببراعته أعلى المنابر فمن تكلم دونه فقد لغا ، بادرناه بالتقبيل وأحللناه محل التـــاج والاكليل ، فقرىء على الجم الغفير وفرح بوروده الكبير والصغير ، واطمأنت بنشره النفوس وارتفع به كل كدر وبوس ، وتشوق الحاضرون لسماع مـا

فيه ، وأنصت لقراءته ذو المروءة والسفيه ، والجامع غاص بأهله وكل حال بمحله ، فلما قرىء الكتاب تبين أن صدره مدح وعجزه لوم وعتاب ، فاشتمل على بسط وجمال وقبض وجلال ، وجمع بين ترغيب وترهيب فارتاب منه كل مريب ، فلما تم وختم وتقرر كل ما فيه وعلم ، تفرقت الجماعات أفواجا وارتجت المدينة ارتجاجا ، وحصل للناس بذلك الجزع وعمهم الخوف والفزع ، والذى أوقع الناس فى ذلك ما فى الكتاب من الامر بتدارك ما وقع ففهموا أن ذلك برد ما ضاع ، وقد تفرق فى الآفاق وما اجتمع ، وذلك غير ممكن كما سيتبين والحق أوضح وأبين من أن يبين ، على أن المقصود بذلك والمراد حسم مادة الفساد ، لينقطع من جماعة السفهاء عداؤها ، ولئلا تتقد نار الفتنة فيتعذر اطفاؤها ، أما ما وقع فى قضية الحاج محمد بنيس حتى أفضى به الحال الى الاحترام بمولانا ادريس ، وفعل بأمكنته الفعل الخسيس ، وليم بسببه المرؤوس والرئيس ، حتى توجهت الحجة على مسموع الكلمات ، اذ هى متوجهة من جهات ، فقد تندفع الحجة بشرح القضية على وجهها ، وايرادها على مقتضى كنهها من غير قلب للحقيقة ، ولا خروج عن متن الطريقة ، وفى كريم علم سيدنا ان للانسان أعذارا يرتفع عنه بها الملام ولا يعاتب معها ولا يلام ، وذلك أن ما وقع من النهب وقع بغتة فى يوم يستعظم شاهده وصفه ونعته ، والمدينة وقتئذ عامرة بالبادية والحاضرة ، ولا معرفة لنا بمن نهب ولا بمن أتى ولا بمن ذهب ، أمر أبرزته القدرة لم يمكنا تلافيه ولم يفد فيه نهى سفيه ، فلو صدر ذلك من آحاد معينين وأفراد مخصوصين لامكن الانتصاف ، وانتزع منهم ما أخذوه من غير اعتساف ، لكن الامر برز وصدر من قوم مختلطين من بدو وحضر ، فيهم الابيض والاسود والاحمر ، وما منهم الا من استأسد وتنمر ، وليس فى وجوههم من الحياء علامة ولا أثر ، لايقبلون موعظة اذ ليسوا من أهل الفكر ، فلا يمكن دفعهم الا بجيش عظيم وعسكر يصاح فيهم بالنهى وهم فى طغيانهم يعمهون ، ولا يلتفتون الى من نهاهم بل لا يشعرون ، ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ، ثم لما كان اليوم العاشر من شهر تاريخه وقع بالحرم

الادريسي ما وصلكم ، ولا أظنه الا فصل لكم ، لكــن عمتنا ألطــاف الله ورحماته ، وحفظ الضريح ورحباته ولم تنتهك حرماتـه ، وحمتــه حماته ورماته فأبوابه قد فتحت ،وزواره بمشاهدة أنواره قد منحت ، ومما فـي الكتاب المذكور : ان السفيه اذا لم ينته فهو مأمور ، ولعمرك انه ليس منـا علم بذلك ولا شعور ، وكيف يأمر العاقل بالمحظور ؟! أم كيف يرضى مسلم بهتك حرمة الاسلام وأهله وما يوجب افتراق الكلمة من قول أحد أو فعله؟! وقد جاء الوعيد بما يلزم من سكت وحضر ، فكيف بمن باشر أو أمـر ، لكن باب التوبة والحمد لله مفتوح لمن يغدو عليه أو يروح ، فنسأل الله أن يمن عليهم بالتوبة من ارتكاب هذه الحوبة ، وقد كتبنا لسيدنا بهذا الكتاب والمدينة بحمد الله آمنة ، والنفوس مطمئنة ساكنة ، والايدى عـلى التعدى مكفوفة ، والطرق مسلوكة غير مخوفة ، وذلك بعد معاناة فـي اخماد نـار الفتنة ونصب ، وألطاف الله تتواردوتصب ، بعد أن كانت نـار الفتنة توقدت وتأججت ، وبلغت القلوب الحناجروبالاكدار قد مزجت ، وكل من له مروءة ودين وعد من المهتدين ، بذل فى صلاح المسلمين جهده وأبدى من الفعــل الجميل ما عنده ، ولقاضينا بارك الله فيه اليد الطولى فلم يقع منـه تقصير فى القضيـة الثـانية ولا الاولى ، هذا ، وكما فى علمكم أن الملك من ملك هواه ولم يغتر بهذا العرض الفانى وما أغواه ، وقهر نفسه عنــد الغضب وابتكر ما يوصله الى الله واقتضب ، وأن الكريم اذا حاسب سامح واذا قدر عفـا ، ولو أبدى المسيء اساءته وهفا ، فليتفضل سيدنا بقبول شفاعة من يضع اسمـه فى هذا الكتاب من العلماء والاشراف ، ومنهم بعدم صواب مـا صدر مـن السفهاء اقرار واعتراف ، ولا يستغرب صدور الخير من معدنه والفضل مـن موطنه ، وتتحاشى أخلاقك الفاخرة وشيمك الطاهرة أن تكون شفاعتنا فـى هؤلاء العصاة مردودة ، وجماعتنا عن ساحتكم مبعدة مطرودة ، ولحسن الظن بكم تحمل لجانبكم الزعيم والكفيل على أن لا نرى منكــم الا الجميل فليمن سيدنا على هذه الحضرة الفاسية منا ، ولا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منـا ، وكيف والحلم من داركم برز وخرج ، وفى أوصافكــم الحسان انـدرج ،

فأحبينا أن تكون هذه المنقبة فى أوصافكم تذكر ، وفى صحيفتكم تكتب وتسطر فقابلوا بالصفح والاغضا عما سلف ومضى ، وكلنا مـن رعيتكم ومقتطفون من ثمار روضتكم ، ومستمدون من مائدتكم ، والظن الاقوى بكم أنكـم تقبلون الشفاعة منا ، وتمنون على المستضعفين من رعيتكم منا ، وكأنـا بكتابكم بضمن ذلك يتلى ، وكلماته أشهى من العسل وأحلى ، والله يتولى أمـر الائتلاف بمتعود احسانه ، ويجمع قلوبنا على طاعته وموجبات رضوانه حتى نكـون فى ذات الله اخوانا ، وعلى الدين أنصارا وأعوانا ، والقلوب بيد من له الامر والاختيار وربك يخلق ما يشاء ويختار ، واذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للابرار ، وخير العمل عمل قرب الى الجنة وأبعد من النـار ، فالواجب على كل مسلم أن يدع ما يزرى بالاسلام ويهينـه ، ولا يلتـفت لدواعى القطيعة فانها تقوى الكفر وتعينه ، أمـا علمنـا أن من ورائنـا عدوا يشتهى مواطىء أقدامنـا ، وتنكيس أعلامنا ، تقضى أخـوة الاسـلام ومناصرته ومعاضدته ومواصلته أن لا يكون لجميعنا طموح الا اليه ، ولا تمالؤ الا عليه ، وفقنا الله لما فيه رضاه وجعل سعينا فيما يحبه ويرضاه آمـين والسلام فـى منتصف رمضان المعظم عام تسعين ومائتين وألف اه

ثم دخل السلطان المولى الحسن أعزه الله رباط الفتـح صبيحـة يـوم الخميس التاسع والعشرين من رمضـان المذكور ، وكان العيد يـوم السبت فأقام السلطان أيده الله سنة العيد برباط الفتح وختم بـه صحيح الامـام البخارى على العادة ، وكان فقيـه المجلس ومدرسه يومئـذ الفقيـه العلامة السيد المهدى بن الطالب ابن سودة الفاسى ، وحضر ذلـك المجلس وفـود المغرب وقضاة العدوتين وعلماؤها ، وحضرنـا فى جملتهم ومدح السلطـان بقصائد بليغة ، واحتفل أعزه الله لهـذا الختـم بأنـواع الاطعمـة والاشربة والطيب وفرق الاموال على من حضر ، ثم وصل أهل العدوتين من علمائهما وقرائهما ومؤذنيهما وطبجيتهما وبحريتهما على العادة ، وهناك قدم عليه أهل آزمور متنصلين مما صدر من عامتهم فى حق محمد بن المؤذن فقابلهم بالبشر والصفح الى أن بحث عن رؤوس الفتنة بعد ذلك فعاملهم بمـا يستحقونه ،

وأقام السلطان أعزه الله برباط الفتح الى يوم السبت الثانى والعشرين من شوال من السنة ، فنهض قاصدا مكناسة فعبر المجاز ومعه من جنود الدولة وعساكر القبائل ما يجل عن الحصر ، وكان نهوضه عن ازعاج بسبب ما اتصل به من خبر المولى عبد الكبير بن عبد الرحمن بن سليمان ولد الذى كان ثار لاول بيعة السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن فسلك هذا الولد مسلك أبيه وأطمعه شياطين البربر فى الملك حتى أوردوه مورد الردى وحان ، وسقط العشى به على سرحان ، ولما كان السلطان أعزه الله ببلاد بنى حسن بلغه خبر القبض عليه فكتب كتابا الى الامصار يقول فيه ما نصه : وبعد ، فان عبد الكبير بن عبد الرحمن الذى سولت له نفسه ما سولت من الرأى المنكوس ، والحظ المعكوس ، كان تحزب بشياطين وأوباش من برابرة بنى امكليد وأتوا به لآيت عياش ، قرب فاس ، فلما سمع بذلك خدامنا أهل فاس وأخوالنا شراقة وغيرهم من الجيش السوسى وقبائل الصلاح قاموا على ساق فى طرده وابعاده ، ونفيه من ساحتهم وتشتيت رماده ، وقابلوه بالنكاية والوبال ، ورأى منهم ما لم يخطر له ببال ، ورجع بخفى حنين ، ثم بعد الطرد والابعاد لم يبال بما هو عليه من سوء الحال ، ولا أقلع عما طمع فيه من المحال ، ولا انتبه من نومته ولا أفاق من سكرته، وبقى على دورانه عند البربر الى أن ختم مطافه بالوصول لآيت يوسى فحكم الله فيه هنالك وأتى به مقبوضا عليه وذهبت ريحه ، وسقط فى أيدى من كان آواه من البربر وحصلوا كلهم على الخسران والخزى والخذلان ، وها الفتان متقف تحت يد أخينا الارضى مولاى اسمعيل رعاه الله ، فالحمد لله حق حمده ولا نعمة الا من عنده ، وهو المسئول بنبيه صلى الله عليه وسلم ومجد وعظم أن يؤدى عنا وعن المسلمين شكر نعمته ، وأن يجزينا على ما عودنا من جزيل فضله ومنته ، هذا ، وقد كتبنا لكم هذا بعد ما خيمنا بحول الله ببلاد الصفافعة من بنى حسن ومحلتنا المظفرة بالله محفوفة بالنصر والعز بحمد الله ، وأعلامنا المنصورة بالله رياح اليمن والسعادة تسوقها ، والارباح تكفل بها سوقها ، وقد أعلمناكم لتاخذوا

حظكم من الفرح بما خول مولانا جل وعلا من عظيم نعمه فلله الحمد وله المنة والسلام فى السادس والعشرين من شوال عام تسعين ومائتين وألف اهـ
ثم تقدم السلطان أعزه الله الى دار ابن العامرى فأوقع باولاد يحيى فرقة من بنى حسن وكانوا قد ثاروا بعاملهم عبد القادر بن أحمد المحروقى فهدموا داره وانتهبوها ، وعاثوا فى الطرقات وأخافوها ، فأوقع بهم السلطان المولى الحسن أعزه الله وقعة كادت تستأصلهم وتأتى عليهم فتشفعوا اليه وتطارحوا عليه وأظهروا التوبة والخضوع فقبل توبتهم وولى عليهم ثلاثة عمال ، ووظف عليهم مالا له بال ، ونهض أعزه الله الى مكناسة الزيتون فى سابع ذى القعدة من السنة فدخلها مظفرا منصورا ، ولما احتل بها كتب أيده الله الى الامصار بما نصه : وبعد ، فانا باثر الفراغ من أمر القبيلة اليحيوية وبناء أمرها على أساس الجد بحول الله وحصول المراد من كمال استقامتها بحمد الله وجهنا الوجهة السعيدة لوطن أسلافنا الكرام قدسهم الله بمكناسة الزيتون وتقدمنا فى محلتنا السعيدة المنصورة التى أرخى اليمن والظفر عليها ستوره ، فلقينا فى طريقنا أهل هذا القطر المغربى من البرابرة وغيرهم على اختلاف شعوبهم وقبائلهم مظهرين غاية الفرح بمقدمنا ومتبركين بيمن طلعتنا وقائمين بالسمع والطاعة لعلى جانبنا وحللنا حضرتنا السعيدة بمكناسة الزيتون فى يوم كان من الايام السعيدة المشهودة ، والاوقات المعدودة ، بل فاق ذلك اليوم السعيد بما وقع فيه من السرور كل موسم وعيد ، فالحمد لله على ما خول وأولى من فضله العميم وخيره الجسيم ، وهو المسئول بنبيه صلى الله عليه وسلم ومجد وعظم أن يؤدى عنا وعن المسلمين شكر نعمته : وان يجرينا على ما عودنا من جزيل فضله ومنته آمين والسلام ، فى العشرين من ذى القعدة الحرام عام تسعين ومائتين وألف اهـ .

وكان دخوله أعزه الله الى مكناسة بعد زيارته تربة المولى ادريس الاكبر وصلاته الجمعة بها ، وأطال أيده الله المقام بمكناسة وفى مدة مقامه بها أوقع ببنى مطير ومن لافهم من مجاط وبنى مكيلد وآيت يوسى وغيرهم بعد أن طال قتاله لهم ثم اقتحم عليهم معاقلهم وانتهى الى الموضع المعروف

بالحاجب بحبوحة قرارهم ومحل منعتهم وانتصارهم ، بل تجاوزته عساكره المنصورة وأعلامه المنشورة بمسافة بعيدة الى أن دخلت فم الخنيق الذى هو أول بنى مكيلد فاستباحت هنالك حلاتهم ، وطارت برؤوس عتاتهم ومزقتهم فى أعز مكانهم كل ممزق ، وقبضت منهم على عدد وافر من الاسرى بعث به السلطان أعزه الله الى الامصار ، فكانت عبرة لاولى الابصار ، وكان ايقاعه ببنى مطير منتصف محرم فاتح سنة احدى وتسعين ومائتين وألف واستمر مقيما بمكناسة الى فاتح ربيع الاول منها ، وفى يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور نهض أيده الله الى فاس فدخلها يوم الخميس السادس منه بعد ماتلقاه أشرافها وأعلامها وأعيانها وجميع رماتها حتى النساء والصبيان مع العامل والقاضى ، واجتمعت به مقدمتهم بوادى النجاة فألان جانبه لهم وتنزل لملاقاتهم تطييبا لنفوسهم ، ولما وصل الى البلد لم يعرج على شيء دون قصد ضريح المولى ادريس رضى الله عنه وزيارته والتبرك به ، وانهار عليه الضعفاء والنساء والصبيان يقبلون أطرافه ويتمسحون بأذياله ، وقدم الذبائح للحرم الادريسى وغيره وأفاض من العطايا على الضعفاء والمساكين ما جاوز الحصر وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وموسما من مواسم الخيرات معدودا وعيد بفاس عيد المولد الكريم وقدمت عليه الوفود من كل ناحية ، واجتمعت ببابه وجوه القبائل من كل قاصية ودانيه ، وازدان العصر وعم الفتح والنصر واستقامت الامور ونادى منادى السرور فى الخاص والجمهور ، ولما فرغ السلطان أعزه الله من شأن العيد أمر أمينه أبا العباس أحمد بن محمد ابن شقرون المراكشى أن يرتب الوظيف المجعول على أبواب فاس وأسواقها على ما كان عليه فى حياة السلطان سيدى محمد رحمه الله ففعل وكان ذلك أواخر الشهر المذكور ، ولما جلست الامناء كل بمحله واستقامت الاحوال وذهبت الاهوال ثقل ذلك على الدباغين ومرضوا فيه وذهبوا الى الشريف الفقيه المولى عبد الملك الضرير وقالوا له : أنت الذى أوقعتنا فى هذا كله ضمانك اسقاط المكس أولا حتى صدر منا فى حق بنيس ما صدر ، والان أخرجنا مما أوقعتنا فيه اما باسقاط المكس واما باخراج بنيس من بين أظهرنا لئلا تدول له

دولة علينا والرجل قد صار عدوا لنا ، فقام الفقيه المذكور وقدم على السلطان أعزه الله وذكر له ما عزم عليه السفلة من الدباغين فأعرض السلطان أيده الله عن ذلك وقابل بالجميل ، فقال الفقيه المذكور : ان لم يكن شيء مما ذكرت لسيدنا فالاولى بى أن أنتقل الى تافيلالت ولا أبقي بين أظهر هؤلاء القوم فأسعفه السلطان وبعث جملة من الحمارين لحمله وحمل أولاده ، ولما رأى الدباغون ذلك نفخ الشيطان فيهم وعمدوا الى الحمارين فطردوهم وارتجت فاس وماجت الاسواق وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان أيده الله فاستدعى عامل فاس ادريس بن عبد الرحمن السراج وكان متهما بالخوض فى وقعة بنيس وما ترتب عليها بعد فأظهر الطاعة والامتثال وركب بغلته يريد القدوم على السلطان بفاس الجديد فقام الدباغون دونه ومنعوه من الذهاب الى السلطان وتهددوه بالقتل ان فعل ، فقعد ووقع ذلك منه الموقع لانه كان متخوفا على نفسه ، ولما رأى السلطان أيده الله تمادى هؤلاء الطغام ومحكهم ولجاجهم بعد أن بالغ فى الانة الجانب والمقابلة بالجميل ومن ذلك اعراضه أعزه الله عن الكلام فى أمر بنيس أمر بحصارهم والتضيق عليهم لعلهم يرجعون ، ثم لم يكفهم عصيانهم حتى صعدوا على منار المدرسة العنانية وعلى غيرها مما هو مطل على فاس الجديد وأخذوا فى الرمى بالرصاص حتى أصابوا بعض من كان بأبى الجلود ، ولما انتهوا من سوء الادب الى هذه الغاية أمر السلطان أيده الله بمقابلتهم على قدر جريمتهم فطافت بهم العساكر ورموهم بالكور من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة من العسكر سور فاس من جهة الطالعة وأخذوا فى النهب والقتل وعظم الخطب واشتد الكرب ، وفى أثناء ذلك بعث السلطان أعزه الله وزيره أبا عبد الله الصفار يعظهم ويعرض عليهم الامان بشرط التوبة والرجوع الى الطاعة فأذعنوا وامتثلوا وانطفأت نار الفتنة ، وانحسمت أسباب المحنة ، فعجل السلطان أيده الله بالكتابة لجميع الآفاق وتلطف واعتذر بأنهم الذين بدأوا بالحرب والبادى أظلم ومع ذلك فبمجرد ما أذعنوا الى الطاعة كف عنهم رحمة لهم وابقاء عليهم وكان هذا الحادث يوم الثلاثاء رابع ربيع الثانى من السنة .

ونص كتاب السلطان أعزه الله : وبعد ، فبعد ما كتبنا لكم في شأن ما تلقانا به أهل فاس من الفرح والسرور والاحتفال في جميع الامور ، اختبرناهم وبلونا أحوالهم فألفينا أحوالهم تصدق أقوالهم ، فأمرناهم حينئذ برد المستفادات لحالها المعتاد كما فعلنا بمكناسة وغيرها من البلاد ، فامتثلوا طائعين وجدوا في دفعها مسارعين ، ومن جملة من أمنا عليها ابن شقرون المراكشي الامين فلم نشعر بالكاغين أصحاب فعلة بنيس الا وقد ملئوا رعبا وتخوفوا أن يركبوا في المؤاخذة بها مركبا صعبا ، فطلبوا اخراج بنيس من بين أظهرهم وابعاده ، وهم حينئذ عند السمع والطاعة المعتادة ، فلم نساعدهم فازدادوا تخوفا وظهر منهم طيش أبان منهم تشوشا وتشوفا ، فتصدينا بحول الله وقوته لتربيتهم وتأنينا كل التأني في مفاجأتهم ، وأحجمنا حياء من معاجلتهم تأدبا مع حرمهم الاكبر سيدنا ومولانا ادريس الازهر ، ومراعاة لجماعة أهل الله الاحياء والنائمة ، واعذارا وانذارا لتكون الحجة عليهم شرعا وطبعا قائمة ، حتى ابتدأونا وكسروا الحرم فقابلناهم والبادي أظلم ، فما كان الا كلمح البصر أو هو أقرب حتى ظهر نصر الله فهدمت دور وصوامع، وخربت فنادق ومصانع كانوا يضربون منها ويتترسون بها ، ونهبت حوانيت ودور واستلبت أيدي الجيش أقواما منهم وأسرت أسرى وأخذوا نكالا للآخرة والاولى ، لكنا بمجرد ظهور سطوة الله القاهرة فيهم والفتح أمرنا بالنداء في الحين بالعفو والصفح ، وكف أيدي القتل والاسر عنهم ابقاء عليهم وشفقة لهم حتى يظهر مآل أمرهم ، ويصفوا كدر غمرهم ، وفي عصر ذلك اليوم ورد العلماء والشرفاء والرؤساء والعرفاء ضارعين صارخين شفعاء على شرط أداء الحقوق والتزام الشروط والبقاء على ما كانوا عليه قيد حياة مولانا المقدس من اللوازم والمغارم فشفعناهم على الشروط المذكورة ، وقبلناهم على التزام الحدود المحصورة ، وأعلمناكم لتفرحوا بنصر الله وتكونوا على بال من حقيقة الواقع ، ولئلا تصيخوا للاخبار الكاذبة مسام المسامع ، أو تلتفتوا الى أقاويل المرجفين الذين لا يدينون الله بدين ، ولا يريدون الا فتنة المؤمنات والمؤمنين ، والسلام ، في رابع ربيع الثاني سنة احدى وتسعين

ومائتين وألف اه ، ثم ان السلطان أعزه الله قبض على عامل فاس ادريس السراج وعلى ولده واثنين آخرين معه من رؤوس الفتنة وغربهم الى مراكش ، وولى على فاس القائد الجيانى بن حمو البخارى أحد قواده واستقامت الاحوال .

وكان مما قيل من الشعر فى هذه الوقعة قول صاحبنا الفقيه الاديب أبى عبد الله محمد بن ناصر حركات السلاوى حفظه الله :

لله ياتلك التى تأوى الفنا ... لا تنقضى ما كان صبرى قد بنى
كلا وقد هيجت منى لوعة ... قد أوشكت فى مهجتى أن تهدنا
وأتيت موطن مصرع العشاق تـ ... ـم بكيت حتى كدت تبكى الموطنا
لو كانت الاجبال تعقل لانثنت ... تبكى لما بك رأفة وتحننا
فبأى رأى ياحميمة قد غدا ... منك البكا عوض الترنم والغنا
وبأى ذنب قد فجعت قلوبنا ... وسقيتنا كأس الاسى بدل الهنا
أو ما كفاك من المتيم مهجة ... ما شأنها الا معاناة العنا
صب له فى كل يوم عبرة ... وتلهف يقتده قد القنا
كيف اصطبارى والحبيب مصارمى ... والدهر مغرا بالوشاية بيننا
دعنى فعدلك للمتيم ضلة ... شر عليه من مقاساة الضنا
تالله لارقأت لعينى عبرة ... حتى ترى وجه المليك الايمنا
السيد الشهم السرى الاصيد الـ ... ـفخم النهى الباهى الهمام الصيدنا
الاعظم المستعظم العذب الحلى الـ ... ـمستعذب الحسن الثنا المستحسنا
قد حاز فى الاشراف كل فضيلة ... ملأ المسامع حسنها والاعينا
ومكارما ومحاسنا ومفاخرا ... لو ذاق لذتها الكفور لآمنا
فلذاك سيدنا المقدس خصه ... بمآثر ما تنتهى فتدونا
ورث الخلافة كابرا عن كابر ... لا كالذى يأتى اليها ضعيفنا
عشقته عشق ابن الملوح خدنه ... وصبت اليه صبا العيون الى الرنا
وله وقد لبته قبل دعائه ... ألقت أزمتها وقالت : ها أنا
ملك به الملك الاغر تشيدت ... أركانه فى العز محكمة البنا

أضحى بـه يختال فخرا قائلا ... لسواك ياركن الورى لن أركنا
والدهر سلم والحظوظ بواسم ... والنصر يقبل من هناك ومن هنا
والسعد قـد القى عصا تسياره ... فـى عصره متـاليـا أن يقطـنا
حسنت بطلعته الدنـا فكأنها ... حلى بـه هدا الزمان تزينا
ان المزايـا والعطايا والحجـ ... ـأخـلاق سيـدنا تنـاه أودنـا
لا لا تقس قيسا بـه فى النبل أو ... فى الفضل معقاعا واحنف فى الانا
أوفى الشجاعة عامرا أوفى الندى ... معنا وفى الافصـاح قس الالسنـا
فهـم لـو اطلعوا عـلى خصلاته ... لغـدت ظنونهم بـذاك تيقنـا
فاستصغروا مـا كان يصدر منهم ... وأتـى جميعهم اليـه مذعنا
ليت الملوك السالفين قد احضروا ... فرأوا مليكـا مالكـا حسن الثنـا
ولو انهـم علموا ضخامة ملكـه ... قالوا : لنـا ملك ولكـن قدونا
ولو أنهم سمعوا بعظـم سماحـه ... تاقوا وقالوا : ليته فى عصرنا
ولو أنهـم قد أبصروا اقدامـه ... بهتوا وقالوا : ليس ذا فـى طوقنا
هـذا الامير ابن الامير ابن الامير ... ابـن الامير المالكى رسن الدنا
هـذا العصامى العظامى الـذى ... وسع الامـاكـن فضلـه والازمنـا
ما زال يسمـح بالجوائز واللهـا ... حتى اقد تخذ السماحة ديدنا
فخـم تتيـه تلذذا بحديثـه ... حتى نظـن الارض قـد مادت بـنا
طبع الفؤاد عـلى مودته فما ... ندعـو لـه بـالنـصر الاهيمـنا
ياأيها الملـك السميذع والـذى ... ما كـان مشبهـه مضى فى غربنـا
ما زلت تجتاب البـلاد بسيرة ... عمـريـة تـذر المعـاصى مذعـنا
وتبين للناس الرشاد وسبلـه ... وتريهـم نهـج السـواء البيـنا
وتدمـر العـاتى بأبيض صارم ... وتقـوم المعـوج بالسمـر القـنا
لولا البغاة مـن الانام وجورهـم ... مـا فارقت بيض السيوف الاجفنا
لكـن بحلمك قـد حقنت دماءهم ... ما أوشكت مـن بغيهـم أن تحقـنا
وأنمت فى ظـل الامان جفونهم ... لولاك لـم يـك لامرىء أن يأمـنا
ولقـد تركتهم وكـل قبيلة ... تثنى عليك ثنـا القلـوب على المنـا

حتى أتيت الحضرة الفاسية الـ ... غـراء معتجـرا بأثـواب السـنا
والملك من فرط السرور بك ازدهى ... ولـه فـم بجميـل ذكرك أعلنا
وأتاك أهلهـا قـولا : هـل لنا ... ياماجـدا مـن عطفة تشفى الضنى
ياطالمـا اشتـاقت اليـك قلوبنا ... شوق الفقـير الى ملاقـاة الغنـى
فمنحتهم بعـد الضراعة عـزة ... وكسوتهم بعـد الاسا ثوب الهنـا
هـذا ومـا صبحتهـم بكريهة ... حتى جنى جهلا بفضلك مـن جنا
شربوا كؤوس الحتـف لولا أنهـا ... أبقـت عليهـم رأفـة وتحنـن
وأتاك أربـاب البصائر قولا : ... يـالا تؤاخـذنـا بزلـة غـيرنـا
فصفحت عنهم صفـح مقتدر ولـم ... تترك جيوشك فيهـم أن تثخنا
وحبوتهم بعـد الاسى بمسرة ... منعت قلـوب النـاس أن تتحـزنا
ففدى بغيتـه المصافى واننى ... بندامة الكسفى من قد شيطنا
لو كان فى الاحسان شىء يتقـى ... لنهـاك طبع الجـود أن لا تحسنـا
ان الكريـم اذا تمكن مـن أذى ... صاحت بـه أحلامـه فتحننا
مثـل الشجاع اذا سطى يوم الوغا ... أضحى يرى طعم الردى حلو الجنا
لا كالجبان فلـو تكلف نجـدة ... صـدتـه خشيتـه الحمـام فأقبنا
وكذا اللئيـم اذا أراد تفضلا ... جاءته أخلاق اللئـام فأشقنا
لو أن جودك فـى الورى متفرق ... ما كان فيهـم من بـرى متمسكـنا
ولو أن بأسك قـد تفرق بينهـم ... ما كان يمكـن لامرىء أن يجبـنا
لـو لـم تكن مولى خميس أرعن ... لكفتك هيبتـك الخميس الارعنا
لو أن من أثنى عـلى هرم رأى ... يوما علاك لقـال : غيرك مـا عنا
شهد الانـام بأن مجدك باهـر ... لم يجحدنه جاحـد فنبرهنا
يدعونك الحسـن الرضى طرا ولو ... شوركت فى حسن دعوك الاحسنا
يا أيها الشهم السرى ومـن بـه ... أضحى على الاقطار يفخر قطرنـا
انـى امتدحتك والمحبة شافعـى ... ومحبـة الاشراف نعـم المقتنى
وتحصنى أبـدا بعـزة ركنكم ... ومعزز مـن بالكرام تحصنا
لا زالت أمداحى لاقصى مجدكم ... متـواليـات أو يصـدنى المنا

تالله لا قمنا بشكركم ولو … أعضاؤنا كانت جميعا ألسنا
فلنمدحنك في الحياة وان نمت … قامت عظامتنا بمدحك بعدنا
خذها اليك خريدة فكرية … طلعت بغيظ قلوب أبناء الزنا
بهرت قلوب ذوى النهى بمحاسن … منعت خرائد فكرهم أن تحسنا
فاصرف اليها منة عين الرضى … وامنع بفضلك حسنها أن يغبنا
دامت اليك من المهيمن نصرة … تدع المعاند ضارعا مستهجنا
بمحمد المختار جدك خير من … قد أوضح النهج القديم وبينا
صلى عليه الله ما جن الدجى … وأمالت الريح الجنوب الاغصنا
والآل والصحب الصناديد الذرى … والمانحى قصادهم نيل المنا

ثم شرع السلطان أعزه الله بجمع العسكر وتنظيمه زيادة على ما كان في حياة والده فألزم أهل فاس بخمسمائة ، وألزم أهل العدوتين بستمائة، وألزم غيرهما من الثغور بمائتين مائتين ، ولم يتخذ من مراكش ولا أعمالها شيئا فصعب على الناس ذلك وجمعوا منه ما قدروا عليه واعتنى السلطان أعزه الله به فكان يباشر عرضه وترتيبه بنفسه ، وفي أيام مقامه بفاس نبغ نابغ بأعمال وجدة يقال له : أبو عزة الهبرى من هبرة بطن من سويد وسويد من عرب بنى مالك بن زغبة الهلاليين ، وكان هذا الرجل فيما زعموا يخط في الرمل ويتعاطى بعض السحريات فتبعه بعض الاوباش الذين لا شغل لهم وتأشبوا عليه ودنا من أطراف الايالة وقوى حسه وكان السلطان أعزه الله عازما على النهوض الى تلك الناحية وتمهيدها ونفى الدجاجلة عنها فاستعد غاية الاستعداد وجدد الفساطيط وكسى الجنود فرسانها ورماتها قديمها وحديثها وعرضها كلها ، ثم نهض من فاس منتصف رجب سنة احدى وتسعين ومائتين وألف ، ولما بات في الليلة الثانية بآيت شغروسن أغار على المحلة ليلا أبو عزة الهبرى ومعه سعيد بن أحمد الشغروسنى ويقال انه ادريسى النسب فماجت المحلة بعض الشيء ثم تراجع الناس وأخذوا مراكزهم وصوبوا المدافع وآلات الحرب نحو عدوهم فشردوهم فكان ذلك آخر العهد بهم وقبض على عدد من أصحابه وقطعت رؤوس منهم ، وتقدم

السلطان أعزه الله فى جموع مؤلفة من الجيش السعيد المظفر وأنجاد نظام العسكر وغزاة القبائل الغربية بربرية وعربية الى بنى سادان وآيت شغروسن فاوقع بهم وقتل وأسر وانتسفت الجيوش زروعهم وبعثرت أرضهم وديارهم فلجأوا الى بنى وراين فأمر السلطان أيده الله بقتال الجميع ، ثم جاء بنو وراين متنصلين متبرئين الى السلطان منهم فقبلهم وولى عليهم رجلا من أعيانهم ، ثم جاء بنو سادان وآيت شغروسن تائبين خاضعين فعفا عنهم ووظف عليهم مائة ألف مثقال وزيادة أربعمائة من الخيل فأذعنوا لادائها واستوفاها السلطان أعزه الله منهم فى أوائل شعبان من السنة ، ثم تقدم الى تازا فدخلها فى أوائل الشهر المذكور ، ولما احتل بها قدمت عليه وفود قبائلها متمسكين بحبل الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فرحين مغتبطين وبكل ما أمكنهم من الخدمة متقربين ، وجاءت عرب الاحلاف ومن جاورهم حاملين هوادجهم المحلاة بأحسن حليهم وشاراتهم التى يستعملونها فى مواسمهم وزيهم فقابل السلطان أعزه الله كلا بما يجب من المجاملة وحسن المعاملة ما عدا ثلاث فرق من غياثة المجاورين لتازا وهم بنو أبى قيطون وأهل الشقة وأهل الدولة فانهم كانوا يضرون بأهل تازا ويغيرون عليهم فألزمهم السلطان أيده الله بأداء ما تعلق لهم بذمتهم فأدوه فى الحال ، ثم وظف عليهم ثلاثين ألف ريال أخرى لبيت المال فأدوها أيضا عن طيب أنفسهم ومن عداهم من أهل غياثة فانما أدوا الزكوات والاعشار وأظهروا حسن الطاعة والامتثال ، وفى هذه الايام جىء الى السلطان بالهبرى أسيرا فانه لما خرج السلطان أعزه فى طلبه وطلب غيره أبعد فى الصحراء ولم تزل تلفظه البلاد وتتدافعه الشعاب والوهاد الى أن ساقته خاتمة النكال الى قبيلة بنى كلال وهم على أربع مراحل من تازا فقبضوا عليه وجاءوا به الى السلطان أسيرا حتى أوقفوه بين يديه مصفدا كسيرا ، فأظهر الهبرى الجزع وتضرع وخضع فحقن السلطان أعزه الله دمه وأمر به فطيف به فى المحلة على جمل ثم أمر ببعثه الى فاس فسجن بها بعد أن طيف به فى أسواقها ثم مضى السلطان أعزه الله لوجهه حتى بلغ قصبة سلوان على طرف الايالة

المغربية من جهة الشرق فوفدت عليه قبائل تلـــك النواحي وأهدوا ومانوا وأظهروا غاية الفرح والسرور .

حكي من حضر أنهم كانوا يزدحمون عليه لتقبيل يده وركابه ووضع ثيابه على أعينهم تبركا به ، وفي أوائل رمضان من هذه السنة في ليلة الخامس أو السادس وقع تناثر في الكواكب وتداخل واضطراب عظيـــم على هيئـة مفزعة بعضها مشرق وبعضها مغرب وبعضها الى هيئة أخرى فكان الحال كما وصف الاعمى بقوله :

كأن مثار النقع فـوق رؤوسنا   وأسيافنا ليـل تهاوى كواكبه

دام ذلك الى قرب السحر وأقام السلطان أعزه الله بهذه البـلاد حتى عيد بها عيد الفطر وكان المشهد هنالك عظيما والموسم مخيما ، وحضر بنو يزناسن ومعهم كبيرهم الحاج محمد بن البشير بـــن مسعود فأهدى هـدية كبيرة وولاه السلطان على تلك القبائل من بني يزناسن وغيرها، وقفل أعزه الله راجعا فأدركه فصل الشتاء بتلك الجبال والفيافي فاشتد البرد وقلت الاقوات وهلك بسبب ذلك عدد كثير من الجند ولحق الناس مشقة فادحة ، وأظهر السلطان نصره الله يومئذ من الشفقة والبرور ما تناقله الناس وتحدثوا به فانه كان يسير بسير الضعيف ويقف على المرضى حتى يصلح من شأنهم ويأمر بدفـن من يدفن وحمل من يحمل ، واذا سقط لاحد دابته أو رحله وقـــف عليه بنفسه حتى يعان عليه وهكذا الى أن دخل حضرة فاس بحيث أدرك به عيد الاضحى من السنة فعيد بها وتفرغ للنظر في أمر العسكر يقـوم عليه بنفسه ويعرضه على عينه ويتصفح قوائم مؤنه ورواتبه فاطلع أيده الله على مـا كان يدلسه القائمون على ذلك من الزيادة الباطلة فعزل مـــن عزل وأدب مـــن يستحق التأديب ، ثم قبض على كبير العسكر السوسي وهـــو الحاج منو الحاحي وكانت فيه شجاعة واقدام الا أنه كان مفرطا فـي التهور والادلال على الدولة وكبرائها فأدى ذلك الى الانتقام منه بالضرب والسجن والاحتياط على ماله وضياعه ولا زال مسجونا الى الان ، ثم سرح من السجن واستوطن مراكش عام ألف وثلاثمائة وخمسة ، وفي هذه المدة شرع السلطان أعـزه

الله في بناء داره العالية بألله العامرة المزرية بمصانع المعتمد وقباب الزهرة وذلك في البستان المعروف ببستان آمنة داخل فاس الجديد عمد أعزه الله الى ناحية من ذلك البستان فقطع ما كان بها من الشجر وبنى فيها قبة فارهة فائقة الحسن بديعة الجمال يقال انه ضاهى بها بعض قباب المعتمد بن عباد باشبيلية ، ثم بنى الدار الكبرى بازائها وهي من عجائب الدنيا حسبما بلغنا بالغ أيده الله في تنجيدها وتنميقها وأودعها من النقش العجيب والترخيم البديع والزليج الرفيع المزرى بخمائل الزهر وقطائف الهند وبديع الطلوس بحيث جزم كل من رأى ذلك بأن مثله لم يتقدم في دولة من دول المغرب وجلب لقبابها الابواب من بلاد الاروام يقال ان ثمن أحد الابواب خمسة عشر ألف ريال مسامره من الفضة المذهبة وعوده من أفضل أنواع العود لا تعرف له قيمة وفيه من التخريم والنقش ما يدهش الفكر ويحير النظر وباقي الابواب من البلور الصافي المذهب المودع فيه كل نقش غريب ، وبها خوخات مركبة بهيئة بديعة كل ذلك قد عمه الذهب النضار الذي يدهش الابصار ، وجلب لذلك من الاثاث الرومي ما قيمته ألوف من الريال ، وفيها من الفرش والحائطيات المزخرفة ما لا يدرى ثمنه ولا يعرف معدنه وموطنه الى غير ذلك من المقاعد الحسنة والمنازل المستحسنة الرائقة الطرف البديعة الصنعة والرصف ، وفي مدة مقام السلطان أيده الله بفاس بلغه عن ولد البشير بن مسعود بعض استبداد فاقتضى نظر السلطان أعزه الله أن يبعث من قبله عاملا لجباية تلك النواحي فعقد لاخيه المولى على على جيش وأضاف اليه القائد أبا زيد عبد الرحمن بن الشليح الزرارى بمنزلة الوزير والظهير وبعثهما الى ناحية وجدة وكان ابن الشليح المذكور يومئذ يتولى عمالة تازا وكان أهل وجدة وأعمالها يكرهون ولاية ولد البشير عليهم ويحبون ولاية ابن الشليح اذ كان له ذكر وصيت في تلك الناحية وربما كاتبه عرب آنقاد وكاتبهم ، ولما أحس ولد البشير بذلك انصبغت العداوة بينه وبين ابن الشليح فلم يكن الا كلا ولا حتى وجه السلطان أيده الله ابن الشليح المذكور واليا على وجدة وأعمالها وجابيا لاموالها وناظرا في شؤونها وأحوالها ، فقامت

قيامة ولد البشير وعلم أنه لا يصفو له عيش معه فعزم علـى أن يطرده عن تلك البلاد ويرده من حيث جاء ، وكـان ولد البشير هـذا حسن الطاعة للسلطان الا أنه انفسد أمره بما ذكرناه ، ولما قرب ابن الشليح مـن أرضه خرج اليه في خيله ورجله ولما التقت مقدمة الجيش بهم انتشبت الحرب بينهم وقامت الفتنة على ساق وكان غرض ولد البشير أن يضـم اليه أخا السلطان وجيشه ويقوم بخدمتهم ويطرد عنه عدوه فقط فلم يستقم له ذلك وكان رأيه هذا خطأ اذ ليست هذه بطاعة كما لا يخفى ، ثم انهزم الجيش وعمدت بنـو يزناسن والعرب الى المحلة فانتهبوها وعاد عبد الرحمن بـن الشليـح الى السلطان أعزه الله وهو بفاس فأخبره الخبر وبإثر ذلك كتب ابن البشير الى السلطان يتنصل من أمر ابن الشليح ومحلته وأنه لازال على الطاعة لم يبدل ولم يـغير وانما الذى انتهب المحلة هم السفهاء من غـير اذن لهـم ولا موافقة على ذلك ، وحتى الان فكل ما ضاع من تلك المحلة يؤديه بأكثر منـه ، فطوى له السلطان أيده الله عليها وأرجأ أمره الى وقت آخر ، وكان قد اتصل بـه في ذلك الوقت خبر أبي عبد الله محمد الكنتافي صاحب جبـل تينملل ، وكان أصل هذا الرجل أنه كان من أشياخ قبيلته وكان المتولى عليهم هـو قائد الجيش السوسي أبو اسحق ابراهيم بن سعيد الجراوى ، وكان الكنتافي هذا أحذر من غراب وأمنع من عقاب قد اتخذ حصنا في رأس جبل تينملل حيث كان ظهور مهدى الموحدين حسبما مر في أخبارهم ، وتحصن بهوصار يؤدى للقائد الجراوى كل ما يأمره به من غير توقـف الا أنه لا ينزل اليه ، فلما توفى الجراوى المذكور وولى السلطان على الجيش السوسي وما أضيف له وصيفه القـائد أحمد بن مالك ضايق الكنـتافي بعض الشيء وسار معه بغير سيرة الجراوى قبله فأنف الكنتافي من ذلك وأعلن أنه في طاعـة السلطان ومتقلد بيعته يموت عليها ويبعث عليها ولا يقبل ولاية أحمد بـن مالك ولو ألقى في النار ، فكتب أحمد بن مالك الى السلطان وهـو بفاس يعلمه بأن الكنتافي قد خلع الطاعة وفارق الجماعـة وأشاع المرجفون بأنه يحاول الاستقلال بالامر التفاتا الى ما كان لسلفه من أهل ذلك الجبـل منذ سبعمائة

سنة ، وربما حن هو الى ذلك أيضا ، وقد حكى ابن خلدون أن أهل ذلك الجبل كانوا فى زمانه على هذا الاعتقاد

تخرصا وأحاديثا ملفقة   ليست بنبع اذا عدت ولا غرب

واستأذن أحمد بن مالك السلطان أعزه الله فى غزو هذا الكتانى فأذن له فبعث اليه كتيبة من الجند ففضها الكتانى فازداد المرجفون تقولا وتخرصا ، ثم بعث اليه ابن مالك جيشا آخر أعظم من الاول فهزمه الكتانى أيضا وقبض على جماعة منهم باليد فمن كان من جيش السلطان سرحه اظهارا للطاعة ومن كان من القبائل المجاورة له ضرب عنقه وكانوا عددا وافرا ، فتفاحش أمر الكتانى فى الحوز وكاد يستحيل الى فساد فبعث ولده الى حضرة السلطان بفاس وكتب له بشرح قضيته وانه مظلوم من قبل أحمد ابن مالك وما ارتكبه فى حق الجيش انما هو مدافعة عن نفسه وأنه لم يقتل جنديا قط وبالغ فى التنصل وتقديم الشفاعات والذبائح والعارات فأرجأ السلطان أعزه الله أمره ونهض من فاس منتصف رمضان سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف فوصل الى رباط الفتح ليلة عيد الفطر فاتفق أن وقع بها نادرة وهى أن جماعة من شهود اللفيف اثنى عشر جاءوا الى القاضى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم رحمه الله ليلة التاسع والعشرين من رمضان وشهدوا عنده أنهم رأوا هلال شوال بعد الغروب رؤية محققة لم يلحقهم فيها شك ولا ريبة ، فسمع القاضى شهادتهم وسجلها وكتب للسلطان بذلك وهو بقرميم فارتحل السلطان فى جوف الليل ودخل داره وأصبح من الغد معيدا وعيد أهل العدوتين وأعمالهما والجم الغفير من أهل المغرب الذين حضروا مع السلطان ، ولما كان ظهر ذلك اليوم وهو التاسع والعشرون من رمضان حقق الفلكيون من أهل الدولة أن العيد لا يمكن فى ذلك اليوم وتكلموا بذلك وفاهوا به فكثر الكلام بذلك وكان جل الناس على شك أيضا ، ولما حان وقت الغروب ارتقب الناس الهلال والسماء مصحية ليس فيها قزعة فلم يروا له أثرا فأمر السلطان أعزه الله بالنداء وأن الناس يصبحون صياما لان رمضان لا زال فصام الناس من الغد وبعد ذلك ظهر الهلال ظهورا معتادا

وتبين كذب الشهود فسجنوا ثم سرحوا بعد حين ، ولما قضى السلطان أعزه الله سنة العيد نهض الى مراكش فلما قرب من زاوية ابن ساسى بين بلاد الرحامنة وزمران نزل هنالك على الرحامنة وكانوا قد حصل منهم اعوجاج وتمرض فوظف عليهم من الاموال ما أثقل ظهورهم وفرض عليهم من العسكر والخيل ما امتحنوا في أدائه ولم يقم عنهم حتى أدوا جميع ذلك وحتى خرج الاشراف والمنتسبون من أهل مراكش الى السلطان للشفاعة فيهم والرغبة اليه في دخوله منزله ، فقبل السلطان أيده الله شفاعتهم وارتحل عنهم فدخل مراكش آخر ذي القعدة من السنة ، وكانت مدة مقامه على الرحامنة ستة عشر يوما وكان يوم دخوله الى مراكش يوما مشهودا ، وفي رابع ذي الحجة بعده قبض على مائتين وثمانين شخصا من أعيان أولاد أبى السباع وكانوا قد عاثوا في ذلك الحوز على عادتهم وعظم ضررهم واستطار شررهم وخرجوا على عاملهم السيد عبد الله بن بلعيد وصالوا على القائد أبى حفص عمر المتوكى وكان القتل بينهم وبين شيعة عاملهم ابن بلعيد المذكور ففر الى السلطان بفاس فأرخى أعزه الله لهم الحبل وأطال عليهم الرسن وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن زروال الرحمانى صورة حتى اطمأنوا بذلك وأنسوا ، ولما قدم أعزه الله مراكش ضرب البعوث على قبائل الحوز فناب أولاد أبى السباع في ذلك ثلاثمائة فارس فقدمت مراكش بخيلها وأسلحتها ، وكان السلطان أيده الله يومئذ قد أخذ في عرض بعوث القبائل داخل مشور أبى الخصيصات فجاء أولاد أبى السباع للعرض فلما توسطوا المشور المذكور أغلقت الابواب وقبض عليهم وجردوا من السلاح وحملوا الى السجن وكانوا مائتين وثمانين كما قلنا ، ثم وجه السلطان أعزه الله الى حلتهم القائد العربى الرحمانى مع كتيبة من الجيش فنزلوا عليهم وأغرمهم ستين ألف ريال فأدوها في الحال بعد بيع ماشيتهم بأبخس ثمن ، وحينئذ بعث السلطان الى عاملهم عبد الله ابن بلعيد فاستدعاه من فاس وقدم وولاه عليهم فاطمأنوا وأطاعوا وجد السلطان أيده الله في جمع العساكر والاستعداد الى أواخر صفر من سنة

ثلاث وتسعين ومائتين وألف فقدم عليه أبو عبد الله محمد الكتاني صاحب الجبل مستأمنا بالمرابط أبي علي الحسن بن تيمكيلشت فقابله السلطان بالعفو والصفح وأكرم وفادته وولاه على اخوانه وانقلب الى أهله مسرورا ، ولما حضر عيد المولد الكريم احتفل السلطان أيده الله غاية الاحتفال على عادة أسلافه الكرام قدس الله أرواحهم وجعل في عليين غدوهم ورواحهم وتشنفت الاسماع بالامداح النبوية في الليلة المباركة بالمسجد المعد لذلك وأنشدت قصائد لادباء العصر ، وبعد العيد كسا السلطان نصره الله جميع الجيش والعسكر والكتاب حتى الامناء والطلبة ، وفي مهل ربيع الثاني من السنة المذكورة خرج من مراكش يؤم بلاد الغرب فجعل طريقه على ثغر الجديدة فأقام بها أياما بعد أن زار تربة بني آمغار برباط تيط وتفقد أحوال ثغر الجديدة ووقف على أبراجها وأسوارها وباشر في الرماية بالمدفع وكان رميه صوابا بحيث أصاب الغرض أعزه الله وأهدى له جميع تجارها من المسلمين والنصارى واليهود فقبل ذلك وكافأ عليه ، وكان أعزه الله حين عزم على النهوض من مراكش قد كتب الى عامله على مدينة أنفي وهو القائد الاجل الانصح أبو عبد الله الحاج محمد بن ادريس بن حمان الجراري أن يتقدم الى ثغر الجديدة ويقيم هنالك حتى يأمره بما يكون عليه عمله فامتثل القائد المذكور ولما قدم السلطان أعزه الله الى الثغر المذكور اجتمع به القائد المذكور وطلب منه أن يجدد له ظهيرا بالتوقير والاحترام حسبما كان عليه هو ووالده من قبله مع السلطان الاعظم المولى عبد الرحمن وابنه السلطان المرحوم سيدي محمد رحمهما الله فأجابه أعزه الله الى ذلك وكتب له ظهيرا يقول فيه ما نصه : الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وجعل في الصالحات طيه ونشره يستقر بيد ماسكه خديمنا الارضى الطالب محمد بن ادريس الجراري ويتعرف منه أننا بحول الله وقوته أنزلناه المنزلة التي كان بها هو ووالده عند أسلافنا الكرام ولحظناه بعين الرعاية والبرور والاحترام هو وأولاده واخوته فلا يروا من جانبنا العالي بالله الا الخير لانهم

خدام أبناء خدام ودارهم دار المحبة والنصيحة فلا نسلمهم ولا نفوتهم ولا نضيع لهم سالف خدمتهم ولا نكشف عنهم جلباب حرمتهم بحـــول الـله وقوته والسلام صدر به أمرنا المعتز بالله فـــى تاسع ربيع الثانى عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف ، ولما قضى السلطان أعزه الله أربه من ثغر الجديدة نهض الى آزمور فتلقاه أهلها بالفرح والسرور والبهجة والحبور ، فهش لهم وقابلهم بما يناسب مودعا لهم بخير وزار ضريح الشيـــخ أبى شعيب وأبـى عبد الله محمد واعدود رضى الله عنهما وقدم لضريحهمـا ذبائـــح وطـاف بأسوار البلد وأبراجه وأمر بتحصين برج هنالـك كان مقابـلا للمرسى ، ثم خرج من آزمور بعد يوم أو يومين فانتهى الى مدينة آنفى فدخلهـــا فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى المذكور وعزل عنها القائد أبا عبد الله محمد ابن ادريس الجرارى وولى مكانه الحاج عبد الله بن قاسم حصار السلاوى ، ثم كتب الى أبى عبد الله الجرارى المذكور بولايته على الجديدة وأعمـــالها ونص كتابه اليه : خديمنا الارضى الطالب محمد بن ادريس الجرارى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ، فانـا أعفيناك من ولاية الدار البيضاء وولیناك على الجديدة ولم نعزلك عنها سخطا لسيرتك ولا هضما لجانب خدمتك ، وانما اقتضت المصلحة ذلك تقديما للاهم فالاهم وأنت مـنا والينا ودارك دار الخدمة والصلاح فلا نسلمكم ولا نفوتكم ولا نهضم لكـــم جانبا والسلام فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى عـــام ثلاثة وتسعـــين ومائتين وألف اه .

واعلم أن هذا العامل من أمثل عمال السلطـان نصره الله وأعقلهـــم وأرجحهم وأنصحهم قد استعمله الملوك الثلاثة المولى عبد الرحمن وابـــنه سيدى محمد وابنه المولى الحسن رضى الله عنهم فظهرت كفايته ونصيحته ، وحمدت ولايته وسيرته ، وهو الان بهذا الحال حفظنا الله واياه والمسلمين آمين ، ولما احتل السلطان أعزه الله بالدار البيضاء طاف فـــى أبراجها وأمر الطبجية بنصب الاغراض المسماة بالقربيات فى البحر ثم أمر برميها وهـــو حاضر وربما باشر معهم ، ثم اجتاز بعد الفراغ على بـــاب المرسى ومحـل

وضع السلعة للتجار بها فوقف عليه وتأمله كما فعل بثغر الجديدة ووعد باصلاح المون على شاطىء البحر لان البحرية يتعبون فيه وقت انزال السلع ووسقها، وأقام بالدار البيضاء بالمحلة خارج البلد يومين وأهدى اليه تجارها من النصارى واليهود والمسلمين ، وأظهر النصارى الفرح وأكثروا من تعليق الصناجق وايقاد الحراقيات بالليل وارسالها فى الجو فقابلهم السلطان أعزه الله بالجميل وحمل النصارى منهم على خيل مكافأة لهم على هديتهم فطاروا بذلك فرحا حتى أنهم كتبوا بذلك لاهل دولتهم ، ونشروه فى كوازيطهم وأجوبتهم ، وفى هذه المدة وجه السلطان أعزه الله خديمه الانجد الفاضل أبا عبد الله الحاج محمد ابن الحاج الطاهر الزبدى الرباطى باشدورا وسفيرا عنه الى دول الافرنج مثل دولة افرانسا ، ودولة النجليز ، ودولة الطاليان ، ودولة البلجيك ، واستصحب معه هدايا نفيسة وأموالا طائلة صيرها فى وجهته تلك ورافقه فى سفارته هذه الامين الارضى السيد بناصر ابن السيد الحاج أحمد غنام الرباطى برسم القيام بخطة الامانة والقهرمانية ، وصاحبنا الفقيه الاديب فلكى العصر وحاسبه الشريف أبو العلاء ادريس بن محمد الجعيدى السلاوى برسم القيام بخطة الكتابة ، فوصلوا الى أهل هذه الدول وقضوا الغرض على أكمل الوجوه وأحسنها وعادوا مسرورين فى أواخر شعبان من السنة ، وفى هذه الوجهة قيد صاحبنا أبو العلاء المذكور رحلته البديعة المسماة بتحفة الاحبار بغرائب الاخبار قد اشتملت على كل نادرة وغريبة ، وأفصحت عن صنائع الفرنج وحيلها العجيبة ، وعند قفوله وقدومه على حضرة السلطان أيده الله مدحه بقصيدة جيدة مطلعها :

أسالم دهرى فى المرام وفى القصد ... فينقض ما أبرمت للصلح من عقد
وأسأله الرحمى فيبدى ازوراره ... ونفرته عنى فياعظم ما يبدى
وكم لى أسترضيه وهو مغاضب ... ولا يرعوى عما جناه على عمد

ومنها فى آخرها :

وهذى بنات الفكر منى هدية ... الى الملك المنصور ذى الجود والرفد
فان اهملت عدلا فانى مهمل ... وان صادفت وقت القبول فياسعدى

وما كنت فـى باب القريض مبرزا ... شهيرا ولكنـــى تعاطيته جهـدى
لاجل امتحانى لذت فيـــه بربنـا ... فأصبحت ذا وجد وقد كنت ذا فقد
فها أنا ضيـف زائر لحماكم ... وحسبى رضاكم فهو نفس المنى عندى
ويا ربنا أعط الامير مرامـــه ... وظفره بالمطلوب منـــك وبالقصد

ثم ان السلطان أعزه الله نهض من الدار البيضاء ومعـــه الجند الوافر والعسكر المجر والجم الغفير من قبائل الحوز وأهـل دكالة وتامسنا فأوقـــع بعرب الزيايدة أهل تامسنا ، وتقدم الى رباط الفتح فدخله غرة جمادى الاولى من السنة فمكث به نحو سبعة أيـــام وعبر الى سلا فزار أولياءها ودخـــل مسجدها الاعظم وصلى الظهر به وأمـه فى صلاته يومئذ صاحبنا الفقيه العلامة البارع أبو محمد عبد الله بن الهاشمى بن خضراء ودخل السلطان أعـزه الله خزانة الكتب العلمية بالمسجد المذكور وتأملها ومعه يومئذ شيخنا الفقيه العلامة القاضى سيدى أبو بكر بن محمد عواد فطلب مـن السلطان أيده الله أن يزيد فى شراء الكتب للخزانة المذكورة فأذن له بأن يشترى من ذلك ما ثمنه نحو مائة ريال ففعل وهى يومئذ بالخزانة المذكورة ، ووصل أيـده الله علماء العدوتين ومجاهديها على العادة ، وقـد كنت أنشأت قصيدة فى غرض من الاغراض فلما اتفق قدوم السلطان أيـــده الله هذه المـــرة حولتها الى مدحه ، ونصها :

قلب كواه مـــن النوى مقبـــاس ... فغدا بـــه الوسواس والخنـــاس
ونحول جسم يشتكى ألم الضنى ... وجوى بـــه تتصاعـــد الانفـاس
والدمع فى الوجنات محمرا غـدا ... ولدى الوشاة بـــه انتفى الالباس
ان الالى يستعذبـــون مـلامـــه ... مـــا أن لهـــم بعذابـه احساس
قدما عذلت ذوى الغرام سفاهـــة ... حتـــى غدوت بمنسميـــه أداس
وحسبته حلـــو الجنى فأساغنـى ... من بأسه مـــا لا يسيـــغ الباس
ان الذيـــن علقتهم قد انجـــدوا ... بمها الخدور ودونها الحراس
أبدا أؤمـــل فى حياتى وصلهـــم ... واليوم قـــد غلب الرجاء اليـاس
ما كنت أحسب قبـل المامى بهـم ... ان الظبـــاء لهـــا البيوت كناس

تحكي بدور التم يخفي ضوءها   ضوء الشموس اذا بهن تقاس
من كل خود كاعب يهدى لنا   نشر الخزامى عطفها المياس
تسبى بقد السمهرى وباسم   يرمى الشعاع كأنها النبراس
وكأن هاتيك الخدود وفاحما   فى ظلها ورد حواه الآس
لله ما عيش تقضى بيننا   فكأنما أيامه الاعراس
طاب السرور لنا به وتأرجت   آصاله وافترت الاغراس
أيام روض اللهو غض نوره   ومنادمى فيه المنى والكاس
بالله ياقلب استفق ودع الهوى   ان الهوى غول النهى الفراس
أو ما رأيت المخلدين الى المنا   سكنوا الثرى وعراهم الافلاس
واعمل ليوم لا تخس شعيرة   فيه اذا ما ينصب القسطاس
وابك الذنوب بكاء خندف بعلها   لما جلا عن ربعها اليأس
واذا حوت كفاك فابن مبادرا   مجدا تخلده لك الانقاس
من غير تبذير لمالك لا تكن   حلو الجنا فتلوكك الاضراس
كم من فتى جاز الحضيض الى الذرى   وبنى على لم تبله الارماس
واذا وعدت فكن لوعدك منجزا   كيما ترى لك فى الفخار غراس
فالمنع فى جنب الوفاء ضيعة   والتبر فى جنب المطال نحاس
واذا حصلت على الرياسة فاذكرن   من كان يجمعه بك الايناس
واحذر مناصبة الدنى فربما   خان الحسام وطاشت الاقواس
كم يغن يوما عن كليب مجده   لما حشاه بالقنا جساس
واذا تصاحب فاصحبن مهذبا   راز النهى وله بهن مراس
فالمرء ويحك انما يذرى به   ويزينه الاصحاب والجلاس
واذا البذى جفاك يوما فاحتسب   فالجهل بالطبع الكريم يساس
واذا عرتك ملمة فاصبر ولا   تكن الجزوع وهمك الايجاس
واحفظ لسانك واله عن عيب الورى   كل امرىء بفعاله منقاس
وادأب على حفظ العلوم وكن بها   ذا خبرة وملاذك الاطراس
فالعلم أنفع للفتى وأجله   ما قد وعاه القلب لا القرطاس

وارو الحديث وكن بـه متأدبا ... والفقه حققه يطعك قياس
وأقم بعلم النحو لفظك ولكن ... فيـه المقدم اذ بـه الايناس
كل العلوم اذا نظرت رأيتهـا ... والنحو مصباح لهـا وأساس
واكتب من الشعر المهذب نبذة ... فالشعر أفضل ما وعـاه الراس
ان لم تقله فكن لـه مستحضرا ... ان رمت نطقـا يرتضيه النـاس
كم من وضيع قد علا بقريضه ... رتبـا تشرفه وحسبك شاس
اذ خلصته من الاسار وقـده ... أبيات علقمة الفتى القنعاس
واذا قصدت أخا النوال بمدحة ... فاقصد فتى لـه فى الندى آراس
مثل الامام أبى على الرضى ... حسن الذى هـو فى العلى نبرس
الماجد الملك الهمام المرتضى ... فخر الملوك سنامهـا والراس
شملت بلاد الغرب رأفته وقد ... بهج الزمان وعمت الارغاس
وحبا الورى من نيله حتى لقد ... طاب السرور وطابت الانفاس
سعدت بمقدمه سلا وتقدست ... مراكش الحمراء منه وفاس
أبدا سيوف العزم منه على العدا ... برق وغيث نوالـه بجاس
شهم بصير بالامور مجرب ... يقظان من داء الضلالـة ياس
حلب الزمان شطوره فمتى اعتمى ... داء الخطوب فرأيـه النطاس
يلقى الوفود بحشمة وطلاقة ... لا يختشى منـه أذى وشماس
فى الجود كعب والبسالة عامر ... والحلم قيس والذكاء ايـاس
فالله يحفظه ويحفظ ملكـه ... حتى يصيب عداه منـه عماس
ويشيد للاسلام من عزماته ... عـزا تطأطىء دونـه الاجناس
وينيله مجـدا ينسى ذكره ... فى عزة قعساء ليس نقاس
فليعل ملك بنى على وليدم ... ما خلدت مروان والعباس

وقد تبعنى صاحبنا شاعر العصر الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات فى روى هذه القصيدة دون بحرها وهى من ميلادياته قال :

أدر كؤوسك فالسراء فى الكاس ... واشرب على طرب بروضك الكاسى
وقم لتنظر وجـــه الدهر مبتهجا ... مستبشرا بعــد تقطيب وتعباس
والافق طاق وذا النسيم منطلق ... مسكى نشر خلال الجـو جواس
والارض تضحك من بكا الغمام كما ... يشكو الكئيب على مستهزىء قاسى
كأنهـا وهـى بالربيع حالية ... عواطل قد تحلت يوم أعراس
والورق من ضحك الازهار نائحة ... كنـوح صب على أحبابـه آسـى
والدوح زاهيـة الافنـان زاهرة ... تهدى البهاء الى البهار والآس
كأنمـا الزهر اذ تـراه منتشرا ... على جداولهـا الحباب فى الكـاس
كأنما طيب نشره شمائل من ... قد ساد بالمكرمات سائر النـاس
امامنا الحسن المحلى بطلعته ... عن الورى كل أزمة وقسقاس
كسا الرعية أثواب الرضى جددا ... من بعد ما اشتملت بكل ادراس
سبط الرسول وفرع من سلالته ... طيب الفروع ترى بطيب أغراس
خليفـة الله مـن دانت لعزتـه ... شم الملوك برغم كل دمناس
أنداهم فى الندى كفا وأشجعهم ... قلبا وأسطاهـم بكل دعـاس
من ذا ينازله عند الجلاد وهل ... يهول الليث يوما صوب ولاس
قد عمه النصر فى ورد وفى صدر ... وحفـه اليمن مـن ساق الى راس
مولى تردى رداء المكرمات فقل ... ما شئت فى شيم لـه واتـواس
لم يمض مشبهه على الحقيقة فى ... بنـى أميــة أو أبنــاء عبـاس
من ذا يدانيه فى حلم وفى كرم ... ومن يضاهيه فى الاقدام والبـاس
ياكم بـه قـوى الضعيف وامتلأت ... كف الفقير وأثرى رب افلاس
سلا كمثل سلا الغرا وضرتها ... أو مثل مراكش وحضرتى فاس
فكم بها من مآثر لـه كرمت ... ليست تعـد بأقـلام وأنقـاس
بل كل مصر وقرية لـه ديم ... تهمـى لاهلهما بكـل ارغـاس
فـدا الامير أدام الله عزتـه ... طول المدى كل أنفس وأنفاس
اليكـها أيها الجحجاح مائسة ... أزرت طـلاوتها بـكل ميـاس
خريدة مـن بنات الفكر غانية ... لرقمها يتمنى كـل قرطـاس

جاءتك تطلبك القبول عائذة ... بالله من شر وسواس وخناس
فليهنها أنها تشرفت بك اذ ... حوت معانى من مديحك الراسى
وأنها لك قد وافت مهنئة ... بليلة ذات اسفار واهلاس
أكرم بها ليلة غراء قد فضلت ... بافضل الرسل كل ذات اغباس
اذ أشرق الكون من أنوار مولده ... حتى كفاه سناها كل نبراس
والشرك فى الهون قدأضحت طوائفه ... مستيقنين حلول البؤس والباس
اذ هالهم أمر أحمد وأوقعهم ... فى حيرة عبثت بهم وابلاس
تيقنوا أنه ما كان يخبرهم ... بشأنه كل قسيس وشماس
وأصبحت جملة الاصنام ساقطة ... منكسات الرؤوس أى تنكاس
وفى انصداع البناء أصبحت عبر ... لهم كذا فى خمود نار أفراس
والجن لا تصل السماء اذ منعت ... منها بشهب لرميها وحراس
ومن يرم منهم للسمع مسترقا ... ينحط محترقا منها بمقباس
محمد صفوة البارى وخيرته ... من خلقه الجن والاملاك والناس
جاءت شريعته البيضا مطهرة ... للدين من كل أدران وأدناس
ولم تزل أمد الاعصار رافعة ... عن الهدى كل شبهة وتدلاس
أصل الهدى والندى فليس يشبهه ... هطال غيث ولا تيار رجاس
فلا تقسه بشىء فى مكارمه ... فما ترام خلاله بمقياس
فانه البحر فى فضل وفى كرم ... وفى الشجاعة ضيغم بأخياس
كانوا به يتقون فى الوغا بدلا ... عن اتخاذ مغافر وأتراس
أسرى به الملك الاعلى لحضرته ... والروح مونسه أتم ايناس
والليل أحرس ليس فيه يسمع من ... صياح ديك ولا عواء لواس
حتى دنا فتدلى ثم كلمه ... وقد رأى ربه بمقلة الراس
ونال من فضله عزت جلالته ... مالا يسام بأوهام وأحداس
فآب والدين أسست قواعده ... على أصول حميدة وأساس
تراه كالقمر المنير فى غسق ... من الدجا بين أصحاب وجلاس
غدا يحدث والملا يصدقه ... وليس يرتاب غير المائق الماس

دعـا على المعتدى عتيبـة فغـدا ... يومـا بدعـوتـه قتيـل همـاس
ورد عـين قتادة فصـار بها ... بعـد العمى ذاتمقـل وايـنـاس
والماء من كفه السمحاء سال فكـم ... من وارد عذبه الروى وكم حاسى
هو الرسول الـذى جمت فضائله ... فليس تحصر أو تحصى باطـراس
مديم ذكـر فان تذهـل لواحظه ... فالقلب ليس بذاهـل ولا نـاسى
فالارض طـاولت السماء قائلـة ... لخير رسل ببطن خـير ارمـاس
كـل النبيين طـرا لائذون بـه ... كمثل نـوح ويونس والياس
كذاك موسى وعيسى والخليل بـه ... لدفـع بـاس بيـوم الحشر ابـاس
ياأكرم الخلق ياخير الورى شرفا ... يامن أتـانا بتطهير وتقداس
أشكوك داء أسـاى فأسه كـرما ... فمـا لداء الاسى سواك مـن آسى
قسا الزمان وفى قسم النوائب لـم ... يعدل فياويحه من قاسم قاسى
لكن قصدتـك والكريم قاصده ... مـا ان يـرد بخيبـة ولا يـاس
وقـد توسلت للمولى بجاهك أن ... يشد بالشرعـة البيضـاء أمـراسى
وأن يحسن أعمـالى ومعتقـدى ... فيـه ويكشف بلبـالى ووسـواسى
وأن يعاملنـى بالعفو عـن زللى ... وأن يبـدل أقـلالى بـاقعـاس
وان يهـىء أسبـاب السعادة لى ... حتى أنيـخ بذاك البيـت عرماسى
اذ قلت مـن أم طيبتى ومات بها ... نـال الشفاعة فى أهـل وفى ناس
صلى عليك اله العرش مـا نفحت ... نوافح الزهـر من دوح وأخياس
صلى عليك اله العرش مـا اعتصمت ... بك الخلائق من عار ومن كـاس
صلى عليك اله العرش مـا رمقت ... بيض القراطيس يوما سود أنقـاس
والآل مـا قال نشوان بحبهـم ... ادر كؤوسك فالسراء فى الكـاس

ثم نهض السلطان أعزه الله من رباط الفتح فى عاشر جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف قاصدا مكناسة وجعـل طريقه على زمور الشلح فخرجوا اليه متذللين خاضعين متقربين اليه بالهدايا والضيافات فضرب عليهم الاتاوة والبعث فانقادوا ، ثم دخل أعزه الله مكناسة ثامن عشر الشهر المذكور فمكث بها أياما يسيرة ثم نهض الى فـاس فمكث بها أيـامـا يسيرة

كذلك ريثما اجتمعت اليه الجنود وخرج قاصدا بلاد وجدة وبنى يزناسن وكبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود ، وكان خروجه من فاس منتصف جمادى الثانية من السنة فاجتاز بتازا وأناخ على قبيلة غياثة جاعلا الهضبة المعروفة بذراع اللوز أمامه قبلة ووظف عليهم المؤنة قيل انه وظف عليهم مائة صحفة من القمح والشعير فدفعوا شيئا يسيرا وعجزوا وتعللوا بأن هذا الذى جرت العادة أن يدفعوا للملوك من قبل ، وكانت هذه القبيلة لم يهجها هيج منذ قديم لتحصنهم بجبالهم وأوعارهم ، ولهم استطالة على أهل تازا يركبونهم كل خسف ، فظهر للسلطان أعزه الله قتالهم فقاتلهم يوم الخميس أواخر الشهر المذكور واقتحم عليهم حصنهم المعروف بالشقة وهو خندق بين جبلين فيه واد وعلى حافتيه بناآت ودور ، فحرق ذلك كله وهدمه وانتسف ما فيه من قمح وشعير وادام ، وغير ذلك وقطع منهم رؤوسا يسيرة ، ولما كان الغد وهو يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر المذكور ركب السلطان أيده الله وركب معه أهل المحلة الا قليلا وقدم المدافع والمهاريس أمامه واقتحم الشقة فتبعه الناس ودخلوا بلاد غياثة وتوسطوها وقاتلوا أهلها فهزموهم والسلطان أمام الجيش فى موكبه فسار حتى بلغ المداشر ورمى عليها من الكور والبنب شيئا يسيرا ، وكانت غياثة قد وضعت الكمائن على الانقاب وشحنوها بالرماة وتركوا منفذا واحدا يفضى الى مهواة متلفة ذات شقوق غامضة وأشجار شائكة وصخور متراكمة لا يدرك قعرها ولا يبصرها الا من وقف عليها ولما وغل الجيش فى مزارعهم ومداشرهم خرجت الكمائن من خلفهم ورموهم عن يد واحدة بالرصاص فدهش الناس وتذكروا فعلهم القديم من الانهزام عن الملوك بلا موجب اذ لم يكن فى شوكة غياثة هؤلاء وكثرتهم ما ينهزم منه ذلك الجيش اللهام ولو تلبثوا يسيرا وقاوموهم لهزموهم فى الحال كما هزموهم أول مرة ، ولكن العادة العادة فولوا مدبرين لا يلوون على شىء وتكاثر الرصاص على موكب السلطان حتى سقط حامل الراية وجرح المولى عرفة أخو السلطان وقتل سيدى محمد بن الحبيب نقيب الاشراف بالعدوتين ، وأما الجيش وقواده

فانهم لما انهزموا صرفوا وجوههم الى المهواة التى ذكرنا وقصدوها على عمياء وقد ارتفع دخان البارود وغبار الخيل فتهافتوا فيها تهافت الفراش فى النار لا يعلم اللاحق ما وقع بالسابق الى أن امتلأت من الخيل والرجال والاثاث وما كادت وكان ذلك قضاء من الله وتمحيصا منه فهلك من الناس والخيل مالا يحصى ، وبقيت أشلاؤهم ناشبة فى تلك الاوعار تلوح مثل المجزرة ، وترجل السلطان أعزه الله عن فرسه حتى خلص من تلك الشقوف ثم ركب واجتمع الناس عليه وراجعوا بصائرهم بعد الكائنة ثم انشمر غياثة بعدها الى رؤوس الجبال وتركوا المداشر والجنات فاقتحمها السلطان بعد يومين أو ثلاثة عليهم فلم يقف أمامه منهم أحد فعاث فيها وحرقها وجعلها حصيدا كأن لم تغن بالامس ، وكتب أيده الله بذلك الى الآفاق وذكر فى كتابه أن الخيل والرماة قد انتسفوا بلادهم انتسافا ودوخوها أماما وخلفا حتى أشرفوا على بلاد جيرانهم وأناخوا فيها بكلكلهم وجرانهم ، ثم توجه السلطان نصره الله الى نواحي وجدة فانتهى اليها أوائل شعبان من السنة فتلقاه بنو يزناسن خاضعين تائبين فعفا عنهم لكونهم ثغرا من ثغور المسلمين وعصبة تدخر لنصرة الدين ، الا أنه عزل عنهم ولد البشير وبعث به مسجونا الى فاس وولى عليهم قوادا منهم من أهل الحزم والنجدة ووظف عليهم قدرا صالحا من المال فشرعوا فى دفعه فى الحال والتزموا رد ما تعلق بذممهم من المظالم وصلحت أحوالهم واستقام أمر تلك الناحية ، ولما قضى السلطان أعزه الله غرضه منها قفل راجعا الى فاس فدخلها ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم وكتب بذلك الى الامصار يقول : هذا ، وقد كتبنا لكم هذا بعد القفول من حركتنا السعيدة ، وحلولنا بحضرتنا العالية بالله بفاس بالفتوحات الجديدة والانعامات المزيدة ، حلول عز وظفر واسعاد ونصر من لدنه لم يكن بحيلة ولا استعداد ،وذلك بعد الفراغ من ترتيب تلك القبائل وتطهيرها مما تعلق بها من الرذائل ، ونلنا بفضل الله فى هذه الحركة من أثر الخير واليمن والبركة ما أثلج الصدور ، وحمدنا غبه فى الورود والصدور ، وتركنا أهل تلك النواحي وساكنى جبالها والضواحى

على أحسن ما يكون صلاحا واطمئنانا ، وسلوكا للجادة المخزنية بالقلب والقالب سرا واعلانا ، وأبقينا طائفة من جيشنا السعيد عند قبائل الريف زيادة في الاطمئنان والتأليف بقصد استيفاء ما بذممهم من الواجب ، واستخلاص ما تعلق بهم من الحقوق التى ألزموها ضربة لازب ، وذلك كله من تيسير الله ورفده وفضله على عبده ، فما النصر الا من عنده ، فأما نحن فلا حول لنا ولا قوة ولا أنصار مرجوة ، ولا نعتمد على عدة ولا عدد بل على فضله تعالى المعول والمعتمد ، عرفنا الله حق النعمة وألهمنا شكرها وحمدها ، وأجرانا على عوائده الجميلة وفوائده الجليلة التى لا يقدر قلم الواصف أن يدرك حصرها وحدها ، وقد اقتضى نظرنا العالى بالله اعلامكم بذلك لتأخذوا حظكم من الفرح بتأيبد الله ونصره ، وتخلصوا فى حمد نعمه الجزيلة وشكره والسلام فى السادس والعشرين من رمضان عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اه ، استمر السلطان أعزه الله مقيما بفاس وجد فى بناء مقاصيره ومنتزهاته ببستان آمنة من فاس الجديد ، وكتب أيده الله الى وصيفه أحمد بن مالك قائد الجيش السوسى بالمنشية من حضرة مراكش أن يبنى له على الباب المعروف بباب الرئيس من الدار الكبرى بالحضرة المراكشية قبة فارهة ويبالغ فى رفعها وتنجيدها وتنميقها ، فشرع فيها فى شوال من السنة المذكورة وكنا يومئذ نتولى احصاء صائرها وصائر غيرها من البناآت المراكشية فكان ما صير على القبة وحدها أكثر من مائة ألف مثقال وكذلك بنى بمكناسة القبة العظيمة التى طاولت السماء ترفعا وذهبت فى الجو صعدا بحيث أشرفت على ما حولها من بسيط سائس وغيره حتى صارت مثلا فى الطول والاشتهار ، وبنى أعزه الله قبة عظيمة حفيلة على ضريح الشيخ العارف بالله تعالى أبى عبد الله سيدى محمد الصالح ابن المعطى الشرقاوى بأبى الجعد فصير عليها أكثر من ثلاثين ألف مثقال تقبل الله منه .

وفى عاشر شوال من هذه السنة أعنى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف توفى الفقيه العلامة الناسك قاضى رباط الفتح أبو زيد عبد الرحمن ابن الفقيه العلامة السيد أحمد بن التهامى البريبرى ودفن بزاوية حنصالة

من البلد المذكور ، وكان رحمه الله من أمثل قضاة الوقت ومن للتحرين للعدل ، ولى القضاء برباط الفتح أكثر من عشرين سنة ، ثم تخلى عنه من غير عزل ودخل داره فلم يخرج بعد ، فاحتمل السلطان والناس ذلك واعتقدوه واستمر حاله على ذلك الى أن توفى فى التاريخ المذكور رحمنا الله واياه والمسلمين .

وفى سنة أربع وتسعين ومائتين وألف وذلك يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من محرم منها توفى الفقيه العلامة الاديب شاعر العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس المراكشي ودفن قرب ضريح الامام أبي القاسم السهيلي خارج باب الرب من مراكش ، وحضر جنازته الجم الغفير من الناس وهو صاحب كتاب الجيش رحمه الله .

وفى صبيحة يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الاول من السنة المذكورة ولد لنا ولد سميناه محمدا العربى وكان من عجيب صنع الله أنه ولد مختونا ولذا ذكرناه هنا وهو الان حى أصلحه الله وأنبته نباتا حسنا وجعله من عباد الله الصالحين ومن العلماء العاملين آمين . وفى جمادى الاولى من السنة أخذ السلطان أعزه الله فى الاستعداد بالحضرة الفاسية للحركة ستعدادا لم نتقدم له مثله حتى أنه كتب الى أخيه وخليفته بمراكش المولى عثمان بن محمد أن يوجه اليه من العدة الرومية وهى مكاحل مركبة فيها توافلها ما قدرها ألف وستمائة وعشرون مكحلة تخرج أبخاشها بالحبة الرومية ، وأن يوجه اليه أربعمائة ألف وعشرة آلاف من الحبة المذكورة ، وعشرة قناطير من البارود ، ومائة قنطار من ملحه ومدفعين ، وكتب أعزه الله الى أمناء الصائر بأن يبعثوا اليه بثلاثمائة وستين سرجا ، وستمائة كسوة من الملف للعسكر ، وخمسة عشر ألفا من البلغة ومثلها من النعالة ، وبعث أعزه الله عمه المولى الامين بن عبد الرحمن الى رباط الفتح لجمع عساكر الثغور وحشد قبائل دكالة وتامسنا والغرب وبنى حسن وغيرهم ، ووجه أخاه المولى الحسن الصغير لحشد قبائل الدير والجيش المتفرق بها ، ثم كان خروج السلطان من فاس الى مكناسة أواخر الشهر المذكور ، ولما سمعت

قبائل البربر بخروجه ارتابت وحذرت وظنت كل قبيلة أنها المقصودة ففرت مجاط وبنو مطير الى رؤوس الجبال ، وفرت عرب عامر من بنى حسن الى زمور الشلح ، وكان الناس يظنون أن السلطان يغزو فى هذه السنة برابرة الجبال والصحراء فخرج الامر بخلاف ذلك .

وفى هذه المدة وفد على السلطان أيده الله عدة باشدورات للاجناس مثل باشدور الفرنسيس . والاصبنيول ، والبرتقال ، وغيرهم ، وتكلم الفرنسيس فى شأن بابور البر والتلغراف واجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور ، وزعم أن فى ذلك نفعا كبيرا للمسلمين والنصارى ، وهو والله عين الضرر وانما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذى طهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكبت كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم ، ثم نهض السلطان نصره الله من مكناسة فى أواسط رجب فى جمع وافر وعدة كاملة فاجتاز ببلاد زمور الشلح فأظهروا له غاية الطاعة والخضوع وقدمت عليه وفودهم من كل جانب رافعين أعلامهم وشارتهم وزينتهم التى يستعملونها فى مواسمهم وأعيادهم وأدوا له من المال والمؤن والضيافات ما استكثر الناس ذلك وتحدثوا به ، ثم زحف الى عرب السهول من أعمال سلا فأوقع بهم وشرد بهم من خلفهم، وكتب أعزه الله فى العشرين من رمضان الى الآفاق يعلمهم بما أتاح الله له من الظهور والنصر والسعادة وخضوع قبائل البربر له وتباريهم فى طاعته وخدمته ، وبذلهم من الجباية ما لم يكونوا يبذلون القليل منه لغيره ، وذكر فى كتابه أن ذلك كله بمحض فضل الله ومجارى السعادة وحسن السياسة من غير ضرب ولا طعن ولا سفك دم حتى أن قبيلة بنى حكم قدأظهروا بعض الاعوجاج فقام اليهم اخوانهم من زمور فقوموا اعوجاجهم حتى فاءوا الى أمر الله وكفى الله السلطان أمرهم ، ثم ذكر فى كتابه أعزه الله أمر السهول وأنه بعد أن أوقع بهم أمر بجمع فلهم ورأى استصلاح كلهم بتأمين جلهم لعمارة بلادهم بهم ورجاء نفع ما تقدم من أدبهم .

وفى ليلة الجمعة الرابع عشر من شعبان من السنة خسف القمر

خسوفا كليا بحيث ذهب نوره واختفى شخصه حتى لم ير منه شيء ، وبقى كذلك نحو ساعتين ثم أخذ فى التجلى شيئا فشيئا الى أن عاد الى امتلائه .
وفى هذه المدة قلت فلوس النحاس بمراكش وأعمالها حتى كادت تنعدم وذلك بسبب غلاء الريال الافرنجى بمراكش ورخصه بفاس ، فكان صرفه بمراكش يومئذ بثلاث وستين أوقية وصرفه بفاس بثلاث وخمسين أوقية ، فصار التجار يجلبون فلوس النحاس من مراكش الى فاس ويصرفونها بالريال فيربحون فى كل ريال نحو مثقال ، وتمالأوا على ذلك وتوفرت دواعيهم عليه حتى قلت الفلوس بمراكش وتقاعد الناس عليها لما فيها من الربح وتعطل معاش الضعفاء بذلك ولحق الناس ضرر كثير ، فكان الرجل يطوف بالبسيطة والريال فى الاسواق فلا يجد من يصرفه له ولا يتأتى له أن يشترى من ضروريات معاشه ما قيمته أقل من بسيطة ، واتصل الخبر بالسلطان أعزه الله فكتب فى الآفاق يأمر الناس برد صرف الريال الى ثلاثة مثاقيل وربع مثقال فامتثل الناس ذلك ونودى به فى الاسواق فانعكس الحال على التجار وتقاعدوا على الريال والبسيطة وفاضت الفلوس فى الاسواق حتى صارت معاملة الناس ليست الا بها وحصل للتجار من الضرر فى رخص الريال ما كان حصل للضعفاء فى قلة الفلوس لان التجار حينئذ صاروا يبيعون سلعهم التى بذلوا فيها الريال الغالى بالقراريط النحاسية التى صار صرف الريال فيها على النصف ، فامسك الناس سلعهم وامتنعوا من بيعها وتعطلت المرافق أو كادت ، فكتب السلطان ثانيا برد أسعار السلع والاقوات على النصف مما كانت حتى تحصل المساواة بين الاثمان والمثمنات فنشأ بذلك هرج كبير وضرر للناس فى معاشهم وأبى الله الا أن تعود السكة الى حالتها التى كانت عليها وقد بينا العلة فى ذلك قبل هذا وأن السكك والاسعار لا تزال فى الزيادة ما دامت المخالطة مع الفرنج تكثر بكثرتها وتقل بقلتها ،

وفى يوم الاربعاء ثالث رمضان من السنة توفى عالم المغرب السيد المهدى بن الطالب ابن سودة الفاسى ، كان علامة متقنا فصيحا عارفا بصناعة الدرس حسن الايراد فيه بحيث فاق أهل زمانه يقال : ان له تآليف لكن

لم نقف على شيء منها رحمه الله ، ثم عيد السلطان عيد الفطر من هذه السنة بزبيدة من بلاد زعير ولم يدخل رباط الفتح على قربه منها ووفدت عليه هنالك قبائل المغرب وأهل الامصار فشهدوا العيد معه وأجازهم وكساهم على العادة ، ولما فرغ من أمر العيد عين عامل رباط الفتح وهو القائد أبو محمد عبد السلام بن محمد السوسى ، وعين الحاج عبد الكريم بن أحمد بريشاء التطاونى ، والحاج محمد بن عبدالرزاق ابن شقرون الفاسى ، للذهاب الى مادريد دار ملك الاصبنيول بقصد السفارة عنه الى دولتهم والمكافاة لهم على مجيء باشدورهم حسبما مر التنبيه عليه ففعلوا وعادوا بحيث أدركوا عيد الاضحى من السنة مع السلطان أعزه الله بمراكش ، ثم نهض السلطان بعد عيد الفطر من زبيدة يؤم البلاد المراكشية فاجتاز بتادلا وسكن قبائلها وأوقع ببنى عمير وقبض منهم على ما يناهز أربعمائة مسجون سيقت فى السلاسل والاغلال الى السجن وفر بنو موسى الى رؤوس الجبال حتى استنزلهم السلطان على الامان ودخلوا فى الطاعة والتزموا الخدمة ، ثم نهض السلطان أيده الله الى مراكش فدخلها فى عشر ذى الحجة من السنة فكان بها عيد لم يعهد الناس مثله منذ قديم ، وكتب الى الآفاق يعلم الناس بما من الله به من النصر والتأييد والفتح والعز المديد ، وأقام السلطان بمراكش فى هذه المرة مدة طويلة الى أن كان من أمره ما نذكره .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين وألف فكانت هذه السنة من أشد السنين على المسلمين قد تعددت فيها المصائب والكروب وتلونت فيها النوائب والخطوب لا أعادها الله عليهم فكان فيها أولا غلاء الاسعار وكان منشأه وابتداؤه من تثقيف السكة فى آخر السنة الماضية ، ثم عقب ذلك انحباس المطر لم تنزل من السماء قطرة وأجيحت الناس وهلكت الدواب والانعام وعقب ذلك الجوع ، ثم الوباء على ثلاثة أصناف ، كانت أولا بالاسهال والقيء فى أوساط الناس بادية وحاضرة ، ثم كان الموت بالجوع فى أهل البادية خاصة هلك منهم الجم الغفير ، وكان اخوانهم يحفرون على من دفن منهم ليلا ويستلبونهم من أكفانهم ، عثر بسلا على عدد منهم وأمر السلطان

أعزه ألله عمال الامصار وامناءها أن يرتبوا للناس من الاقوات ما يتعشون به ففعلوا ، وبعد هذا كله حدث الوباء بالحمى فى أعيان الناس وأماثلهم فهلك منهم عدد كثير ، وفى هذه المسغبة مد النصارى أيديهم الى الرقيق فاشتروه وكان ابتداء ذلك أنهم كانوا يعاملون ضعفاء المسلمين وصبيانهم بالصدقات والارفاقات ثم تجاوزوا ذلك الى شراء الرقيق منهم والامر لله وحده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين وألف فكان فى أوائلها موت الناس بالحمى كما قلنا فمات فى المحرم منها الوزير الاعظم أبو عمران موسى ابن أحمد وكان شعلة ذكاء وتمثال فطنة ودهاء غفر الله لنا وله ، واستوزر السلطان مكانه الفقيه الاخير أبا عبد الله محمد بن العربى بن المختار بن عبد الملك الجامعى من بيت الوزارة وأهل العراقة فيها ، وبلغنا عنه أنه يحب أهل الخير ويلين جانبه للضعفاء والمساكين ويحب السلطان وينصح له ويغار على جانبه المعظم وحماه المحترم ، ويتجافى عن الطمع الذى هو أصل كل مفسدة فى الدين والدنيا سدده الله . وفى ظهر يوم الاحد عاشر صفر من السنة المذكورة توفى شيخنا الفقيه العلامة القاضى سيدى أبو بكر ابن الفقيه العلامة القاضى سيدى محمد عواد كان رحمه الله من أهل المشاركة فى العلم والاعتناء به ، كثير الدرس كثير التقييد ختمنا عليه رحمه الله عدة كتب كبار جعلها الله فى ميزان حسناته ، منها صحيح البخارى نحو عشر مرات ، وصحيح مسلم ثلاث مرات ، وشفاء القاضى عياض مرارا ، وكتاب الاكتفا لابى الربيع الكلاعى مرة ، وأخرى الى غزوة خيبر ، وشمائل الترمذى مرتين بشرح أبى عبد الله محمد بن قاسم جسوس ، واحياء الغزالى رضى الله عنه ، وعوارف المعارف للسهروردى ، وتآليف غيرها من كتب النحو والفقه والبيان والكلام وغير ذلك مما يطول ذكره ، وبالجملة فقد انتفعنا عليه واستفدنا منه رحمه الله ونفعنا به ، وولى القضاء بعده الفقيه العالم أبو اسحق ابراهيم بن محمد الجريرى عرف بابن الفقيه من بيت العلم والدين والصون وهو رحمه الله يتحرى المعدلة فى أحكامه

وينتهج صريح الشرع فى جميع أموره سدده الله وكلاه ، وتولى الخطابة بالمسجد بعد شيخنا المذكور شقيقه الفقيه أبو الحسن على بن محمد عواد وهو مجيد فى الخطابة ومن أهل المروءة والدين والعلم وفقنا الله واياه والمسلمين لما يحبه ويرضاه ، وفى هذه الايام استدعى السلطان أيده الله خديمه الامين الارضى السيد محمد ابن الحاج محمد التازى الرباطى الى حضرته العالية بالله بمراكش فقدم عليه الامين المذكور وأجل السلطان مقدمه وأسند اليه أمر خراج المغرب ومراسيه ومستفاداتها وما يتبع ذلك من صوائرها وفوض اليه فى ذلك تفويضا تاما لعلمه بنصحه وأمانته وضبطه ، وهذا الرجل من أمثل أهل المغرب وأصدقهم وأنصحهم للسلطان وأشدهم غيرة على الدين والوطن حتى لو كان فى الدولة عشرة رجال على شاكلته ومذهبه لكان يظن أن يكون لها بذلك النجاح التام نسأل الله تعالى أن يصلح أمرها ويشيد بمنه عزها وفخرها . وفى ربيع الثانى من السنة ورد أمر السلطان أعزه الله على ولاة العدوتين أن يوجهوا عددا من أمنائهم وعدولهم للخدمة السلطانية بالمراسى المغربية فقدموا عليه بمراكش ، وكان فى جملتهم أخونا فى الله الفقيه العلامة الحافظ أبو محمد عبد الله بن الهاشمى بن خضراء السلاوى فقال قصيدة فى مدح السلطان نصره الله نصها :

لبيك لبيك يا خير السلاطين	أدامك الله فى عز وتمكين
دعوت عبدك فاستجاب مبتدرا	وقد أناخ على الطير الميامين
يهدى اليك تحية مباركة	أذكى وأطيب من مسك ونسرين
ممرغا وجنتيه فارحا جذلا	اذ فاز منك بتخصيص وتعيين
مؤملا راجيا بلوغ مقصده	مستبشرا برضى بالنجح مقرون
يانجح سعيى ويابشراى قدسعدت	حالى وفزت بتقريب وتأمين
من مبلغ معشرى أنى أويت الى	ظل مديد يظلنى ويؤوينى
ظل الاله على عباده وكفى	به كفيلا وذخرا للمساكين
رب السماح فما معن بن زائدة	وأين من راحتيه نهر سيحون
لله من ملك جلت مآثره	عن أن يحيط بها حصر بتدوين

دعا المعالى فانقادت ملبية — يضيق عن وصفها بطن الدواوين
له السعادة قد ألقت أزمتها — والفتح رائده فى كل ما حين
وبشر طلعته يسر ذا حزن — وأين ما حل كان خير ميمون
حامى الشريعة والرحمن ناصره — ماضى العزيمة لا يرضى بتوهين
فى كل قطر ثناء عنه منتشر — أى انتشار يفوق مسك دارين
ساس العباد بتدبير ومعدلة — وأحسن الامرفى الدنياوفى الدين
وليس يعبأ بالدنيا وزينتها — لكنه بين مفروض ومسنون
وطبق الارض عدله ونعمته — مجاله بين تسكين وتحسين
بسعده الغرب قد بدت محاسنه — فجر ذيلا على بغداد والصين
وتاه مزدريا بكل مملكة — يميس فى حلل ذوات تلوين
نعم الامام الهمام المرتضى حسن — فخر الملوك سلالة السلاطين
السيد الملك ابن السيد الملك ابـ — ن السيد الملك المعروف باللين
بحر خضم مغيث سيد بطل — بد الليوث وفرسان الميادين
دانت بطاعته العدا بأجمعها — مذألبست ملبس الصغار والهون
وفاق من قبله حلما ومكرمة — وسطوة بهرت أهل الاواوين
لاغرو ان نال مافات الالى غبروا — وشاد ما عجزوا عنه بتحصين
قديدرك الاخر الشأو الذى قصرت — عنه الاوائل فى ماضى الاحايين
تبارك الله ما أسمى مفاخره — كسبا وارثا من الشم العرانين
ولا ترى الغرس قد زكت أرومته — الا أتى الفرع منه فى أفانين
ياخيرمن أمه الراجى وأكرم من — يثنى عليه بمعرب وملحون
ويا ابن خير الانام من نبوته — له وآدم بين الماء والطين
وياملاذ الورى يامن سما كرما — يانعمة عظمت ياكنز مسكين
يامنبع الجود ياتاج الفخار ويا — مأوى العفاة وياسلوان محزون
يامن روى عن أبيه رفع سؤدده — يامن أوامره اليه تدعونى
وفدت ملتمسا رضاك ياسندى — وليس شيء سوى رضاك يرضينى
فامنن على بعطفة تصاحبنى — مدى الدهور وللعلى ترقينى

بقيت ما شئت في عز ومقـدرة ودمت في نعـم بحق جبرين

ولما وقف السلطان أعزه الله على هذه القصيدة هزت من عطفه وأمر أن يسئل منشئها عن مطلبه ، فاقترح أن يؤذن له في الافتاء وأن يعطى ظهيرا بالتوقير والاحترام وأن ينعم عليه بما يقتضي الاعتناء به ، فأنعم عليه السلطان أعزه الله بالاذن في الافتاء وبظهير الاحترام ونفذ له راتبا من أحباس جامع ابن يوسف اعانة له على الدرس به ، ثم كان نهوض السلطان أيده الله من مراكش قاصدا بلاد الغرب غرة جمادى الاولى سنـة ست وتسعين ومائتين وألف ، فاجتاز في طريقه بتادلا وأناخ على قبيلة آيت أعتاب فأوقع بهم في أوعارهم وأعز معاقلهم وأوكارهم ، وقطع منهم واحدا وعشرين رأسا ، ثم زحف الى بني موسى فأدوا الطاعة وقاموا بواجبها ، ثم سار محفوفا بالنصر واليمن الى أن دنا من مكناسة الزيتون فزحف الى بني مطير وكان شررهم قد استطار في تلك النواحي كل مطير ، فانه لما سافر السلطان نصره الله عن مكناسة سنة أربع وتسعين كما مر ، زحف بنو مطير هؤلاء الى عرب دخيسة وأولاد نصير الذين أنزلهم السلطان بسايس وبوأهم ايـاه عوض مجاط ، وأوقعوا بهم وقعة شنعاء ، وقد صبرت العرب في ذلك اليوم صبرا جميلا ، حتى ان جماعة منهم قد عقلوا أنفسهم في حومة الحرب لئلا يفروا ، وقاتل اخوانهم دونهم حتى كثرهم البربر فقبضوا عليهـم باليد وضربوا أعناقهم ، وقتلوا منهم نحو مائتين ، وهلك من البربر مثل ذلك أو أكثر ، ولما انهزمت العرب عمد بنو مطير الى مجاط فأنزلوهم بسائس على مـا كانوا عليه قبل ، ثم انطلقوا في الطرقات بالعيث والافساد فيها والنهب للمارة ، ولـم يدخروا شيئا من الشيطنة ليوم آخر ، وكثرت الشكايات بهـم على السلطان وهـو بمراكش ، فلما قدم أعزه الله قدمته هذه لـم يقدم شيئا على تأديبهم فنهض الى رأس بلادهم ومزرعة فسادهم آكراي والحاجب وغيرهما وتقرى آثارهم في تلك الجهات حـتى جاوزت عساكره الحاجب بمسايف كثيرة وتوغلت البربر في قنن الجبال ، فأمر السلطان أدام الله علاه بني مكيلـد أن يزحفوا اليهم من ناحية قبلة آكراي ، فزحفوا وانبثوا على حدودهم الى غابـة افقفاق

التى هى الحد بين بنى مكيلد وآيت شغروسن وآيت يوسى ، فحصروهم من تلك الجهات ثــم نزل بازائهم آيت يوسى وآيت شغروسن وأيت عيــاش وآيت والان من جهة الشمال وامتدوا الى حدود وادى النجاة وربط حذوهم من جهة الغرب وراء وادى النجاة القائد العربى بـن محمد الشرقى المدعو بابا محمد ووصل جناحه عليهم قبائل الغرب والحوز ؛ وصار بنو مطير فــى مثل أفحوص القطاة وضاق بهم رحب الفضاء وأيقنوا بالهلاك والبوار ولفظتهم السهول والاوعار ، ونهبت الجنود زروعهم القائم والحصيد ، واستخرجت من مخزونهم الكثير والعتيد ، ولما انتهى الحال بهم الى هذه الغاية تطارحوا عـلى السلطان بالشفاعات ، وأكثروا من التوسل بالذبائح والعارات ، فرق لهـم وأقلع عنهم بعد أن ألزمهم اعطاء خمسمائة مرهون ووظــف عليهم مائــة وخمسين ألف ريال بعد أداء الحقوق ورد المظالم ، وشرط عليهم اخراج قبيلة مجاط من بين أظهرهم ، وضمنهم طريق مكناسة وفاس وجعـل العهدة فيها عليهم جريا على عادتهم القديمة من جعلهم النزائل بها والحراس فالتزموا ذلك كله وأدوه ، وبعد ذلك نهض السلطان عنهم الى مكناسة فدخلها أواخر رجب الفرد من السنة واستمر بها الى أن دخلت سنة سبـع وتسعين ومائتين وألف ، فنهض الى فاس ولما احتل بها فرق الجيوش فــى النواحى لجبايــة الزكوات والاعشار والوظائف المخزنية ، فانتهت السرايا والبعوث الى آيت يزدق من برابرة الصحراء فأذعنوا وأدوا ما كلفوا به من الزكوات والاعشار وغيرها ، والى آيت يوسى وغيرهم فأطاعــوا وأذعنوا ، الا آيت حلى وهـم بطن من آيت يوسى فانهم انحرفوا عن عاملهم وأبوا من أداء ما وظف عليهم فأوقع بهم جيش السلطان وقطعوا منهم عددا مـن الرؤوس وساقوا مثلهــا من المساجين فعلقت الرؤوس بأسوار فاس ، وبعد ذلـك أذعن آيت حــلى للطاعة فقبلهم السلطان أيده الله وألزمهم ولاية عاملهم الذى كانوا منحرفين عنه وكان ذلك فى أواخر صفر من السنة المذكورة ، ثــم كان عيد المولد الكريم فاحتفل له السلطان على العادة ، وبعث الى حضرته صاحبنا الفقيه أبـو محمد عبد الله ابن خضراء بقصيدة ميلادية يقول فيها :

أمل المديح محبرا يامنشد ... وأعده تطريبا فذلك أحمد
هذا أوان مسرة وسعادة ... هذى الليالى الغر هذا الموعد
أو ما ترى علم البشارة لائحا ... أو ما تشاهد نورها يتردد
هذا زمان ظهور طلعة أحمد ... فى عالم الاجساد هذا المولد
طوبى لمن يروى غريب حديثه ... متأدبا ويعيده ويردد
طوبى لمن يقضى حقوق مديحه ... ويجيده نظما بديعا ينشد
فمديح خير الخلق أعظم قربة ... لكنه فى ذا الاوان مؤكد
ياليلة ما كان أعظم قدرها ... مع فجرها طلع النبى محمد
فاسرد شمائله الحسان وما له ... من معجزات بالنبوة تشهد
واذكر عجائب مولد قرت به ... عين المحب وضاق منه الاحقد
واجعل دعاءك للامام المرتضى ... ان الدعاء له لحق أوكد
واملأ بدر مديحه أسماع من ... حضروا لديه وضمهم ذا المشهد
ساس الرعية صادقا فغنت له ... أمم وقد كانت قديما تشرد
من كفه فاضت مواهب جمة ... فالكف منه للعفاة المورد
طود اتأد شامخ ذو همة ... علياء يقصر عن علاها الفرقد
ما جود حاتم طىء ما حلم أحـ ... نف ان ذالهو الحليم الاجود
أزكى الملوك أرومة وأجلهم ... قدرا وأسبقهم لامر يحمد
باهى به الغرب الممالك فاغتدى ... منه يغار قريبها والابعد

ومن آخرها :

مولاى ياتاج الملوك وفخرهم ... فليهنك العيد الاغر الاسعد
لله موسم مولد لك عائد ... بمسرة موصولة تتجدد
لا زلت ممنوحا جلائل أنعم ... ما اهتز فى روض بهى أملد
لا زلت محروسا بعين عناية ... ما رنم الحادى وجبر منشد

وفى ربيع الثانى من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ورد كتاب السلطان أعزه الله على قاضى سلا بتعيين صاحبنا الشريف الاديب فلكى العصر أبى العلاء ادريس بن محمد الجعيدى السلاوى للذهاب الى مراكش برسم

القيام على احصاء صائر السلطان بهـا بدلا عن الفقيه أبى محمد عبد الله بن خضراء ، فامتثل الشريف المذكور وسافر فى التاريخ المذكور ومدح جنا ب السلطان أسماه الله بهذه القصيدة التى يقول فيها :

لبيـك يامنقذى مـن لجـة العـدم ... سعيا على الجفن لا مشيا على القـدم
فذا أوان سعود كنت أرصـده ... وذى مناى كما فى سابـق القدم
فهـو المرام وكـل العـز يعقبه ... ولا يحـال بأنـى أحقـر الخـدم
قـصدت أعتاب ملك شامـخ بهـج ... يقرى الضيوف ويغنى صاحب العدم
أنزلت رحلى بهـا وعندها أمـلى ... وهل يخيب نزيل الجـود والكـرم
شمرت عن ساعدى والاذن واعيـة ... فهاب أهل الحسام سطوة القلـم
أرضى بـذاك الذى أضـاء مغربنا ... بعـدلـه فغـدا يميس فى نعـم
أزكى الائمـة شيمـة وأرفعهـم ... قدرا وأسبقهم لكـل مغتنـم
أميرنا الحسن المحمود سيرته ... تروع صولتـه الاسود فـى الاجم
نجل السلاطين قد أحيا مآثرهم ... ونال ما عجزت عـنه ذوو الهمـم
قد شاد للدولة الغراء مفخرهـا ... فساد عند ملـوك العـرب والعجـم
تـاج الملـوك وفخرهم وسيدهـم ... وخير من قد مضى فى غابر الامم
قد لاحظته السعود وهى فى شرف ... وكل نحس عداه وهـو عنـه عـم
النصر سابقـه والسعـد قـائـده ... والفتح يخدمه مـن جملة الخدم
والجود سيرته والحلـم حليته ... والجد عادتـه فاحذر من النـدم
ليث اذا ما أحس الحـى سطوته ... ألقـوا سلاحهـم مخافـة النقـم
غيث اذا الارض يوما مسها عطش ... غـوث توسل بـه لبـارىء النسم
مدبـر عالـم مفكـر فطن ... ومفحـم باهـر بافصـح الكلـم
كـل الفهـوم لـه ألقت أزمتهـا ... ونـوره يهتدى بـه لـدى الظلـم
بهـا يقـاوم مـن بغى ويدمغه ... بهـا يدافـع أهـل الريب والتهـم
كم دبر الروم من مكر ومن حيل ... ترجو النجاح بهـا والنجح فى عقم
يرى بنـور حجـاه كـل عـاقبـة ... وعـين تدبـيره للامـر لـم تنـم
فصـل الخطاب حبـاه الله مكرمـة ... وحكمة عظمت من أبدع الحكـم

فاطلب رضاه ودم على محبته ... مدا الدهور وجانب داعى السأم
فهو المنى لذوى الحجا وبغيتهم ... وسيب يمناه مثل الزاخر العرم
يدنى الاصول الى نيل الوصول ويحـ ... ـيينا بنعمته كالارض بالديم
مازال يحيى بها بلاد مغربنا ... فاقرع بصدقك باب الجود تغتنم
واسلك سبيل الصفا تنل به شرفا ... واقبل نصيحة من حباك واستقم
ياغاية القصد انى راغب طرب ... مستمسك بجوار منك لم يضم
مولاى يامن مزاياه وأنعمه ... فى الناس أشهر من نار على علم
مولاى أنت الذى تغنى الضعيف اذا ... ما الدهر أفضى به لقبضة الهرم
بشراك ان الفرنج سوف يدركها ... منكم صغار به تداس بالقدم
فأنت ذو مدد وهم ذوو نكد ... وأنت ذو جذل وهم ذوو غمم
مولاى جد برضاك لى وخذ بيدى ... واحرس جنابى به من سائر الالم
واجعل ثياب الرضى سترا على ولا ... يرى به حبل عروتى بمنفصم
فها أنا ذاك عند باب سيدنا ... أرجو قبولا ووصلا غير منصرم
أبقاك ربك فى عز ومكرمة ... بالله أمرك نافذ على الامم
أدامك الله منصور اللواء على ... كل الاعادى ولا برحت فى نعم

وفى آخر هذه السنة ورد كتاب السلطان أيده الله باستدعاء صاحبنا أبى محمد بن خضراء المذكور آنفا لتوليته خطة القضاء بحضرة مراكش فامتثل ووفد على أمير المومنين أدام الله علاه بحضرته السعيدة من فاس المحروسة بالله فولاه القضاء بمراكش وسار اليها وهو الآن بها محمود السيرة حسن السريرة سدده الله وكلاه ، وقال فى وفادته على الحضرة الشريفة قصيدة يمدح بها الجناب المولوى ونصها :

لبيك دمت مؤيدا ومظفرا ... ولك الكمال كما تشاء موفرا
وافى خديمك أمرك العالى الذى ... فى ضمنه اسعاده بين الورى
اذ خص دونهم باشرف دعوة ... ياسعد من أضحى بها مستبشرا
فأجاب مبتدرا اجابة صادق ... لم يلهه أهل ولا حب الذرى
وطوى المراحل كى يحل بحضرة ... يلقى بها وجه الامانى مسفرا

فبدت له الدار المنيفة يالها ... دارا أعز حمى وأبهى منظرا
ونحا الجناب المستجار بظله ... وأناخ فيه خاضعا ومعفرا
يهدى اليك تحية مختارة ... أذكى من المسك الذكى وأعطرا
ويمد كفيه بصدق داعيا ... لك بالبقاء مهنئا ومبشرا
ويجيد شكر مواهب أوليتها ... كرما وحق لمثلها أن يشكرا
ويعيد ذكر محاسن أوتيتها ... ويصوغ مدحك صوغ تبر أحمرا
ويروم اقبالا عليه بالرضى ... يافوزه ان بالرضى هو بشرا
ان ناله نجحت له آماله ... ودنت مناه وارتقى واستبشرا
يامن يؤمل رفعة وسعادة ... يمم حمى المولى الهمام لتظفرا
ملك عظيم القدر جل كماله ... عن أن تعد خصاله أو تحصرا
ملك كريم الطبع عز مثاله ... خلقا كريما لم يضاه ومفخرا
ملك جزيل الفضل عم نواله ... كل الانام وفاق غيثا ممطرا
ملك أفاض على الرعية خيره ... وأنامهم فى ظله متبصرا
ملك جميل سياسة وسريرة ... ويدل ظاهره على ما أضمرا
ملك ترقى فى سماء مكارم ... فغدا به أفق المكارم مقمرا
ملك رحيم خاشع متواضع ... ويرى اكتساب الحمد أربح متجرا
قرت به عين الخلافة واغتدى ... من سعده ذا القطر أنعم أزهرا
من أهل بيت المصطفى أكرم به ... نسبا شريفا ما أجل وأطهرا
جمع المفاخر مكسبا ووراثة ... وحوى مآثر حقها أن تؤثرا
ماضى العزيمة فى الامور مسدد ... فى رأيه الميمون ليس مقصرا
قل للمحاول شأوه فى مجده ... أو رفده أو حلمه أطرق كرا
هذا همام لا يشق غباره ... هذا همام لن يجارى ان جرى
مولاى يا أزكى الائمة شيمة ... وافيت بابك أبتغى منك القرا
لاأبتغى الا الرضى وكفى به ... فأنلنى الحظ الجزيل الاوفرا
مولاى ما عندى اليك هدية ... الا مديحك هاك منه جوهرا
نظمته فكرة مخلص متودد ... خذه اليك منظما ومحبرا

لا زلت في نعم تدوم ونصرة   وسعادة لا زلت أنت الاكبرا
لا زلت في حلل العناية رافلا   لا زلت في ملك كبير أبهرا

واعلم أن الامداح في جناب هذا الملك الجليل الشريف الاصيل كثيرة ، والقصائد المفصحة عن علو قدره وشموخ مجده وفخره شهيرة خطيرة ، لا سيما لاصحابنا السلاويين ممن ذكرناه منهم وممن لم نذكره ، ولولا خوف الاطالة لاثبتنا من ذلك ما يزرى بالحبر ويفصح بالذكرى والعبر ، وفيما ذكرناه كفاية والله يجزى كلا بنيته وخلوص طويته .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف فيها تجددت الشروط بين السلطان أعزه الله وبين أجناس الفرنج في سبيل تأكيد المهادنة وجلب نفع التجارة ، وكان من جملتها ان النصارى وأهل حمايتهم يلزمون بغرامة الوظائف المخزنية المرتبة على الابواب كسائر رعية السلطان ، وقدر ذلك الوظيف ستة بلايين لكل حمل ، وفي هذه المدة التي هي أواسط السنة المذكورة أخذ السلطان أعزه الله في التأهب للحركة والنهوض من مكناسة الزيتون قاصدا حضرة مراكش الحمراء فاحتلها في آخر السنة المذكورة وعيد بها عيد الاضحى .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف فيها تحرك السلطان أعزه الله لغزو بلاد السوس الاقصى ، فأخذ في التأهب والاستعداد لذلك وأمر قبائل دكالة وتامسنا بحمل القمح والشعير والتبن الى مرسى الجديدة ، ومرسى الدار البيضاء ليحمل منهما في المراكب الى ساحل السوس الاقصى بقصد ارفاق الجيش واعانته ، وكان السبب في ذلك أن جنس الاصبنيول كان متشوفا لتملك بعض المراسي السوسية منذ انعقاد الهدنة معه عقب حرب تطاوين ، وكثيرا ما كانت مراكبه الحربية والتجارية تتردد الى تلك النواحي فيستهوى أهلها بأسباب التجارة ونيل الارباح فربما سكنوا اليه وربما نفروا منه ، وتكلم السلطان أعزه الله مع كبرائهم في ذلك فاحتجوا بأن صلح تطاوين كان منعقدا على فتح بعض المراسي السوسية وأنهم الآن قد عزموا على الاخذ بشرطهم المذكور والا أفضى الحال الى ما لا يليق ، فرأى

السلطان أعزه الله أن من الواجب أن ينهض الى تلك البلاد ليباشر أمرها بنفسه لا سيما وكان أهلها قد بعد عهدهم باجراء الاحكام السلطانية فيما بينهم على مقتضياتها ، فنهض اليها فى رمضان من السنة المذكورة فانتهى منها الى قرب وادى نول ومهد أقطارها وولى على أهلها القضاة والعمال ، واتخذ هناك مرسى للوسق والوضع تسمى آساكا ، وكتب فى ذلك كتابا لولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح : أما بعد ، فانا لما نهضنا من مراكش بحول الله وقوته وسطوته الباهرة وصولته ، وجيوش الله المظفرة موفورة ، وجنوده سبحانه مقطورة ، وأعلامها منشورة منصورة ، نهضة معتمد على مولاه ، منقلد لما قذف فى قلبه فأبداه ، متمسك بعروته الوثقى التى من استمسك بها بلغ مناه ، وانتهينا بمعونة الله لمبدأ هذه الاقطار السوسية ، وامتطينا صهوتها وهى ذلولا فى ربوع اليمن ساعيه ، وبنود الله خافقة على مفارق الظفر وبذرى المجد ساميه ، تواردت على حضرتنا العالية بالله الوفود متناسقة متابعه، وانتظمت فى سلك السمع والطاعة والخدمة الجامعة، فتسارعوا الى ما اليه دعوا ، وتلقوه تلقى الظمآن فنهلوا وكرعوا ، وأوفدوا لوفود كبرائهم وأعيانهم وأشياخهم مصباحا ، واستضاءوا بضياء نور الله غدوا ورواحا ، ومدوا أعناق الاذعان ، وبسطوا أيدى المسالمة والابقاء عليهم والامتنان ، بعد ما كانت قد بلغت منهم القلوب الحناجر ، وارتعدت فرائصهم من هيبة الله ثم اطمأن البر وشرق الفاجر ، وانتبهت أجفان المراسم المخزنية التى عفت بعد نومتها ، فانظر الى أثر رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ، وصرفنا اليهم عنان الترتيب ، بعد أن وطأنا لهم كنف الترحيب ، وبوأنا من توسمنا فيه الاهلية للتولية على اخوانه مهادا ، وقلدناه أمرهم جمعا وفرادى ، وضربنا للكل فيها على مقتضى السياسة بمعونة الله بسهم مصيب ، وأرعيناه من مربع خدمتنا الشريفة المرعى الخصيب ، حتى وقع التمكن من أزمتهم ، وأجلسنا خاصتهم وعمالهم على أسرتهم ، فاتصلت بهم المخزنية اتصال الارواح بالاجساد ، واستنارت هذه الارجاء بنور الله استنارة عمت الحاضر والباد ، فأدوا من الطرف والهدايا ما فيه غنية لمن ركب متن المزايا ،

مع كون البلاد لم تنكح بالمخزن مدة من السنين تنيف على عدد الستين ، ولو لم تنل من هذه الفتوح الباهرة بفضل الله الا عشرا ، لكان فى جنب من قدم عهده بالمخزنية كثرا ، ولكان ما عودنا سبحانه الا الجميل ، اذ هو المتصرف الغنى القاهر القوى الكفيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ثم ولينا عليهم من القضاة من فيهم الكفاية لاقامة شرائع الدين ، ولم نأل جهدا فى انتخابهم من أمثل المقلدين ، علما بأن الشرع عليه المبنى ، وبه يعمر المغنى ، ويغزر الحس والمعنى ، ثم تطارح شرفاؤهم ومرابطوهم على أعلى جنابنا باقرارهم على عوائدهم ، وابقائهم على أعرافهم ومحاتدهم التى عندهم عليها ظهائر أسلافنا المقدسين ، أئمة المسلمين وأمراء المومنين ، وكذا ظهائر من غبر من الملوك المتقدمين رضوان الله عليهم أجمعين ، فانتهجنا نهجهم وسمكنا بحول الله أوجهم ، وساعدناهم فأقررنا وجددنا لكل ظهيره ، واجريناه على ما أسس له من المجد وجعلناه نجيه وسميره ، وحيث كان القصد الاهم من هذه الوجهة المباركة هو حماية ذمار هؤلاء المسلمين ، والدفاع عن بلادهم ورقابهم وأموالهم مما طمحت اليه نفوس المؤملين ، وكان ملاك ذلك هو فتح المرسى بوادى نول بمحل يسمى آساكا بأرض قبيلتى تكنة وآيت باعمران ، اذ بفتحها يستقيم أمر الدفاع ويسهل على أهل ذلك المحل البيع والابتياع ، يقينا بأن سد أبواب الضرر من الامر المحتوم ، وارشاد الضال فى الشرع من المقرر المعلوم ، تسابق القبيلتان المذكورتان اللتان تلقيتا جنابنا العالى حين عبرنا وادى والغاس وقصدنا بجيوس الله بلادهم قصد طبيب آس ،فتلقوا ركابنا السعيد بمحل يعرف بآمطاو قرب مرسى تسمى باكلو ، اذ هو الطرف الموالى لآيت باعمران المسمى بالساحل ، واليه شدت هذه المراحل ، وبين آمصاو ومحل المرسى الذى أريد فتحه مرحلتان وبثلاث عشرة ساعة ميقاتية مقدرتان ، فأتوا بشرفائهم وفقهائهم ومرابطيهم وأعيانهم وأشياخهم المالكين لقيادهم فقوبلوا بما قوبل به أمثالهم ، وناسب أن يتصف به حالهم ، ثم ولينا عليهم عدة من العمال جعلناهم بحول الله عدة فى تلك الاعمال ، وحينئذ وقع الكلام معهم فى شأن المرسى ، فامتثلوا

ما أمرناهم به من فتحها امتثال من أضحى يتقلب فـــى رضـــا الله ورسوله وأمسى ، ثم وجهنا معهم سرية من أعيا نالجيش معتبره ، ومعهم مـــن الفقهاء والمهندسين مـن يعتد بهم في رسم تلك المرسى وتخطيطها على نهـج القواعد المقرره ، والاعمال المحرره ، اقتضى المقام والحال تسبيقها رفقـا بعباد الله ، واعتبارا بأن الله سبحانه قد قضى الغرض ووهبه وأسداه ، وما تشاءون الا أن يشاء الله ، قل ان الفضل بيد الله ، وما بكـم من نعمة فمـن الله ، ثـم أقمنا في المحل المذكور لانتظارهم في تشييد منارهم ، فان انقلبـوا بالمقصود فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وان لم يشفـوا الغليل شددنا بحـول الله لذلك المرسى عزمات الرحيل وقطعنا تلـك المفازات ، هـذا وقد نصبنـا قائدا من قواد جيشنا السعيد مختارا من ذوى الرأى السديد ، وأقمناه بقصبة تيزنيت محل المخزن في القديم ، بقصد أن يكون اعانـة لسائر عمـال القطر السوسى من وادى والغاس الى منتهى وادى نـول وكليميم ، يتفاوضون معه فيما عسى أن يعرض لهم من المهمات ، ولا سيما اذا كان المخزن بعيدا عن هذه الشرفات ، بعد ما عرفناهم بأنا أقمناه مشرفا للتفاوض معه وبصيرة على ما قصدنا من فتح ذلك المرسى ، ايثـارا للنعمى ودفعـــا للبؤسى ، ففرحوا بذلك فرح الظمآن الوارد ، والضال الواجد ، ووقـع الاشهـاد عليهم بكل ما فصلناه ، وأبرم عقده معهم على نحو ما رسمناه ، فكان ذلك تمـام العمل الذى قصدناه ، والمورد الذى أردناه وانتحيناه ، والله تعالى يخلص فى ذاته العمل ، ويجعل هذه الوجهة المباركة بفضله ومنه مـن الجهاد المتقبـل ، انه جواد كريم متفضل غنى حليم والسلام فـى متم شعبان عـــام تسعـة وتسعين ومائتين وألف ، انتهـى كتاب السلطان أيده الله .

وفي أواخر صفر سنة اثنتين وثلاثمائة وألف قام نواب الاصبنيول مـن مراسى المغرب الاقصى بعد أن أقاموا بها نيفا وعشرين سنة لاستيفاء ما وقع الصلح عليه في حرب تطاوين ، وكان جملة المال المصالح عليه عشرين مليونا من الريال الكبير ، وكان السلطان سيدى محمد بـــن عبد الرحمن رحمه الله قد دفع منه عشرة ملايين معجلـة والعشرة الباقية هـى التى استوفاها

الاصبنيول فى المدة المذكورة أقام أمناءه مع أمناء السلطان بمراسى المغرب ، فكان كل فريق يستوفى نصف الداخل حتى تـم العمل ، وفى صبيحة يـوم الاثنين ثانى ربيع الثانى من السنة المذكورة توفى الشيخ المنور الذاكر الخاشع أبو عبدالله محمد الهاشمى الطالبى من صلحاء أهل سلا ، وكانت وفاته فجاءة تعشى تلك الليلة عشاء خفيفا على عادته وصلى العشاء وتلا أوراده منفردا فى بيته كما كان يفعل ثم أصبح ميتا من غير أن يحضره أحد ، وكان قد ناهـز الثمانين وشاخ وابيضت لحيته ورأسه ، وحضر جنازته الجم الغفير مـن أهل العدوتين سلا والرباط وازدحموا على نعشه وتناوبوه تبركا به ، وصلى عليه بالمسجد الاعظم من سلا عقب صلاة الظهر ودفـن بالبيت القبلى مـن داره ، وتردد الطلبة الى قبره مدة لقراءة القرآن والبردة وغيرها مـن الامداح ، وعظم مصاب الناس بموته وكيف لا وقد كان مصبـاح العدوتين بل وغيرهما فى زمانه مع ما أكرمه الله تعالى به من التواضع وحسن الخلق ولين الجانب مع الناس بحيث لم يعهد ذلك ولم يرو الا عن السلف الصالـح ومن سلك سبيلهم من أمثالهم رضى الله عنهم ، وكان مجلسه مجلس علم وحياء ووعظ وذكر للاولياء والصالحين وسيرهم واخبارهم لا يسمـــع فى مجلسه لغو ولا خوض فى دنيا انما هو سرد الاحاديث وأخبار الصالحين ونحو ذلك ، محافظا على الصلوات وقيام الليل والاذكار وبذل المعروف والامر بـــه مـا أمكن ، وبالجملة فقد كان فى سيرته واخلاقه على مقتضى السنة النبوية وآثار السلف الصالح رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم ومحبة أمثالهـــم آمين . وبعد غروب الشمس من ليلة الجمعة فاتح ذى الحجة مـــن السنة المذكورة توفى الفقيه العلامة البارع أبو عبد الله محمد بن المدنى كنون عالم فاس والمغرب وصلى عليه عقب صلاة الجمعة بجامع الاندلس من فاس حرسها الله ، ودفن بالموضع المعروف بالقباب ، وكان رحمـــه الله فقيها عالمـــا متضلعا قوالا بالحق صادعا به لا يهاب فى ذلك كبيرا ولا صغيرا ، ولقـــد امتحن فى ذلك مـــن قبل السلطان فلم يقل ذلك من غربه ، ولم يوه من صرامته ولا حده ، وله عدة تآليف من أحسنها اختصار حاشية الرهونى على مختصر الشيخ خليل جدد

الله عليه الرحمات آمين .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة وألف ففى ليلة العشرين من صفر منها وقع فى النجوم تناثر كبير ورمى شديد تشريقا وتغريبا وغير ذلك على خلاف المعتاد حتى لقد أذكرت قول بشار بن برد الاعمى فى وصف الحرب :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ودام ذلك من وقت الغروب الى نصف الليل ، وفى هذه الايـام كانت بين جيوش الرجل المنصور القائم ببلاد الحبشة والنـوبة المتسمى بالمهدى وبين جيش النجليز حروب عظيمة بعد العهد بمثلها ، وكان للمهدى المذكور على النجليز غاية النصر والظهور ولولا أن التعرض لخبره ليس من موضوع الكتاب لشرحت ذلك فان أمره عجيب جدا ، وفى أواسط ربيع الاول من السنة المذكورة ورد أمر السلطان أيده الله بتسريح ما كان موظفا على أبواب المدن والقرى مما كانت تؤديه العامة على أحمال السلـع والتجارات مـن المكوس ، وكتب فى ذلك الى عامل سلا وقته بمـا نصه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسم السلطان أيده الله : خديمنا الارضى الحاج محمد بن سعيد السلاوى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد ، فقد شرح الله صدرنا لرفع العطاء فى سائر الابواب بالمدن والمراسى عـن كـل ما يمر به عليها داخلا وخارجا ، وأصدرنا أمرنـا الشريف لامـين المستفادات بثغر سلا المحروس بالله كغيره بانهاض المشترين لابـوابه الجالسـين للقبض بهـا والمتصرفين فى شؤونها لحال سبيلهم ، واعمال الحساب مع مشتريها المذكورين على ما تصرفوا فيه الى يوم الانهاض ، وتوجيه القائمة بذلـك لحضرتنا العالية بالله وغير الابواب من الاماكن المعطى فيها وعليها تبقى على حالها حتى ننظر فى أمرها بحول الله ، وأعلمناك لتكون على بال والسلام فى ثانى ربيع الاول عام ثلاثة وثلاثمائة وألف ، ولما ورد هذا الكتـاب فرح الناس بـه ودعوا للسلطان بالنصر والتايد من خالص نياتهم ، نطلب الله تعالى أن يتمم نعمته على المسلمين بتسريح ما بقى موظفا من مبيعات الاسواق ويريح الناس مـن شؤمه فانه لا شىء أشأم من هذه المكوس عـلى الدول نسـأل الله العافية ،

وفي عاشر جمادى الثانية من السنة المذكورة خرج السلطان مولاى الحسن أيده الله من حضرة مراكش غازيا بلاد السوس الاقصى وما وراءها من عرب معقل وسائر قبائل الصحراء لما بلغه من اضطراب الرعايا بتلك البلاد وخروجهم على ولاتهم ، وأن بعض تجار النجليز قد تسور على مرسى بتلك السواحل يسمى طرفاية ووصل يده في البيع والشراء ببعض القبائل الذين هناك وأراد أن يبنى بالمحل المذكور ، فنهض السلطان أيده الله لحسم مادة هذا الفساد ، ولما توسط بلاد السوس وأصلح أحوالها وثقف أطرافها كتب كتابا الى ولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه : وبعد ، فانا بحول الله القوى المعين الفاتح لما أغلق كما يشاء في الحين أو بعد حين ، المؤيد بعنايته عبده في كل مصدر ومورد وتحريك وتسكين ، كتبنا اليكم هذا يوم حلولنا وسط خدامنا قبائل آيت باعمران ، بحبوحة مجامع قبائل السوس الاقصى ومناخ الاعيان ، نعلمكم بما واجهنا المولى سبحانه في هذه الحركة المباركة من تعاقب المنن والايادى وابتسام ثغر الزمان ، بما أملناه من العلى المنان ، في هذا النادى لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وبيده مقاليد السموات والارض وهو الولى والنصير والسميع والبصير ، فكان من أمر هذه القبائل السوسية والقساملة الساحلية أن تلقوا ركابنا السعيد أفواجا أفواجا ناشرين أعلام الفرح تجاه جيوش الله المظفرة سرى وادلاجا حاشدين جموعهم مصحوبة بأعيانهم ومن يعتد به من فقهائهم وشرفائهم ومرابطيهم من غير أن يكون جمعهم خداجا مستنتجين للفوز بخاطرنا الشريف مقدمات الامتثال والسمع والطاعة لله ولرسوله استنتاجا ، مقدمين بين يديهم هداياهم متترسين بأبنائهم واخوانهم وسراياهم ، مادين أعناق الامتثال ، عاضين بالنواجد على الخدمة وصالح الاعمال ، فأتوا بمؤنتهم على قدر الاستطاعة ، ومهدوا لسلوك الجيش السعيد ما صعب من طرقهم حتى صارت مسلوكة مشاعة ، ونحن في كل ذلك نعاملهم بالبرور ، ونبسط البشر اليهم ونقابلهم بما ارتسم فيهم من السرور ، وها نحن بحول الله جادون في الخلوص الى المقصد الذى لاجله نقلنا هذه الخطوات ، واستعملنا فيه الفكر

وأسهرنا أحداق الاعتبارات ، من صرف النظر لفتح مرسى آساكـا ، مركز سواحل وادى نول ، ومجمع القبائل العربية والبربرية ومنتهى ذلك المسكون ولاسيما من جاءت بينهما كـالام والعنصر وهما كـالتوأمـين لهـا يستمدان منها ويرضعان خلاصة لبن ثديها ، وهمـا القبيلتـان الباعمرانية والتكنية ومن تراكم عليهمـا وارتدف ، مـن قبـائل العرب والبربر أو كـان على حكمهما فيما ارتضع وارتشف ، هذا ان كانت تصلح لذلك وتعود منفعتها على المسلمين والاسلام بعـد الاستخـارة مرارا فى اختطاطها وتتحقـق بصلاحيتهـا كشفا واستبصارا ، ونتوخى فى الاقدام على ذلك بحول الله الاسد مـن الانظار ، والمنهاج القويم الجارى على اعتراف هاتيـك الاقطار ، ثـم ان كانت موافقة للاصلح أقدمنا وان لم يظهر وجه المصلحة أعرضنا عنها الى غيرهـا ، قـال الله العظيم : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلهـا) وما آل اليـه الامر نعلمكم به ونشنف آذانكم بما سنح من سره ، فانه لكـل عمـل نتيجة بعد العنوان ، والله المولى المستعان والهـادى الى سواء السبيل ، وهـو نعـم المولى ونعـم الوكيل والسلام فى تاسع شعبـان الابرك عام ثلاثـة وثلاثمـائة وألف . ثم تجاوز السلطان أيده الله قطر السوس الاقصى الى صحراء كليميم فوفدت عليه هناك أشياخ عرب معقل وكبراؤها خاضعـين مطيعـين ، وفرحوا بمقدم السلطان ووطئه بلادهم غاية الفرح حتى لقد اتخـذوا موضع خبائـه الذى كان مضروبا به مزارا يتبركون به الى الآن ، اذ لـم يكونوا هـم ولا آباؤهم من قبل رأوا سلطانا بأرضهم ولا سمعوا بوصولـه اليهـا ، وأجـروا خيولهم وابلهم بمحضره ولعبوا عليها بالبارود ، اذ عـادة عرب الصحراء أن يسابقوا على الابل كما يسابقون على الخيل ، ومن هناك وجه السلطـان أيـده الله كتيبة من جيشه الى مرسى طرفاية فغيروا ما كان أحدثه أولئك التجـار من النجليز بها ، وطمسوا أعلامه وفر من كان بها من النصارى الى بابوراتهم التى كانت على ذلك الساحل ، وأمر أيده الله ببناء مرسى آساكـا واتخـاذها محلا للوسق والوضع هناك ، ورتب الحامية والعسات بتلـك السواحل مـن آكادير الى كليميم ، وكتب بذلك كله الى ولاة المغرب ، وقفل راجعا فأوقـع

فى رجوعه بقبيلة ذاوتنان من أهل السوس الاقصى ، ثم كانت عاقبة القضية النجليزية أن قام فيها أرباب دولتهم وقعدوا وخبوا فى التشغيب على عادتهم ووضعوا حتى وقع الصلح على مال دفعه السلطان اليهم تسكينا للامر ودفعا لما هو أعظم والامر لله وحده .

وفى عشية يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية من السنة المذكورة غيمت السماء غيما كثيفا اسود وذلك بمراكش ونواحيها وهبت ريح سوداء مع رعد قاصف ثم نزل برد مثل البيض وأعظم ، وتهدمت بمراكش دور كثيرة ومات تحت الهدم خلق كثير نيفوا فيما قيل على المائة وفر الناس الى أضرحة الاولياء بعد أن ودعوا عشائرهم وأحبتهم ولزموا الاستغفار والتضرع الى الله تعالى حتى انجلى الغيم بعد نحو ساعتين والحمد لله على حلمه بعد علمه وعلى عفوه بعد قدرته .

وفى هذه السنة اشتد حرص أجناس الفرنج على تنقيص صاكة الاعشار وطلبوا من السلطان أيده الله أن يحط عنهم من صاكة السلع الموسوقة التى كانت مسرحة من قبل وأن يسرح لهم ما كان مثقفا قبل ذلك وأبدأوا فى ذلك وأعادوا وقاموا فيه وقعدوا ، فلما رأى السلطان أيده الله شدة حرصهم وتكالبهم كتب كتابا الى الرعية يستشيرهم فيه ويقول بعد الافتتاح : أما بعد ، فقد كان طلب منا بعض نواب الاجناس بطنجة على وجه الخير والمحبة فيما سلف من أعوام تجديد شروط التجارة بقصد تسريح الاشياء الممنوعة الوسق كالحبوب مطلقا والانعام والبهائم ونحو ذلك ونقصان صاكة الخارج ذاكرين أن تسريح ذلك فيه النفع لبيت المال وللرعية وهذه مدة من خمسة أعوام ونحن ندافع ونسدد ونقارب بما يقتضيه الوقت والحال عملا بقول سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فى وقائع وقضايا « سددوا وقاربوا » لابقاء ما كان على ما كان ، اذ لا أقل من ذلك سيما فى هذا الزمان الذى أشار اليه صلى الله عليه وسلم بقوله : « يأتى على الناس زمان يمر فيه الحى على قبر الميت فيقول : ليتنى مكانك » وحاشى لله أن نتسبب للمسلمين فى غلاء أو نوافق لهم على ضرر وكفى بالله شهيدا ، وكيف والله سبحانه قد استرعانا عليهم

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته» والآن قد اشتد حرصهم على ذلك وتمالأوا فيه على كلمة واحدة وصمموا عليه ولما أفضى الحال الى ما أفضى اليه مما لا ينبغي ولم يمكن الا الاعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعتد به استشرنا فيه جميع من يشار اليه بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء والدهاء موثوقا بدياناته وأماناته فلم يشيروا فيه بخير واتفقوا على أن لا مصلحة في تسريح ذلك أصلا ، وبينوا ما يترتب على الكل من المفاسد ففصل الحيوان أول ما يترتب على تسريحه من الضرر غلاؤه على ضعفاء الرعية بل يؤدى الى فقده بالكلية من هذه الايالة ، وأشياء أخر لا يفي بها التعبير هنا ، وفصل النقص من الصاكة يترتب عليه ضعف المدخول الذى منه يقوم المخزن الجيش والعسكر ومصالح الرعية وأعظمها تضعيف الرعية بالقبض منهم كتضعيف المكوس وضرب الخراج عليها تقوية لبيت المال والجيوش ، وما أبداه بعض نواب الاجناس الراغبون في تسريح ذلك من المصالح المالية العائدة على رعيتنا السعيدة على مقتضى ما ظهر لهم ردوه بما يطول شرحه ولا يفي به قرطاس ولما رأينا الامر استحال الى أسوأ حال أو كاد تداركنا هذا الخرق بالرفء وجنحنا الى السلم امتثالا لقوله تعالى : (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) الآية ، وارتكبنا أخف الضررين ، فاقتضى نظرنا الشريف أن ظهر لكم درءا لتلك المفاسد المقدم على جلب المصالح أن يساعدوا على تسريح أشياء بقصد الاختبار ، من تلك الامور الممنوعة الوسق كالقمح والشعير وذكران البقر والغنم والمعز والحمير ثلاث سنين فقط ، على شرط الاختبار في المنفعة التى ذكروها في تسريحه ، الكل بأعشاره المعلومة في مثله على أن يكون تسريح ذلك في وقت غلته مع وجود الخصب مدة من ثلاثة أشهر وبعد مضيها يثقف ، ولا يسمع كلام من أحد في تسريحه ولا يقبل منه عذر فيه ، وفي العام المقبل اذا كان صالحا يسرح ثلاثة أشهر بقصد الاختبار أيضا ، واذا كان ناقصا لا يقع اختبار بتسريحه المدة المحدودة ، ويبقى متفقا على أن ذلك ليس بشرط وانما هو على سبيل الاختبار حتى يظهر ، ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة فان ظهر لكم ذلك فالامر يبقى

بحاله ، وان ظهر لكم ما هو أسد وأحوط فى الدفاع عن المسلمين فاعلمونا به اذ ما أنا الا واحد من المسلمين ، وأعلمناكم بما كان امتثالالقوله تعالى : (وشاورهم فى الامر) والا فما (عند الله خير من اللهــو ومن التجارة والله خير الرازقين) والسلام فى سابع رجب الفرد الحرام عــام ثلاثــة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أعزه الله . ولما قرىء هذا الكتاب على خاصة الناس وعامتهم أجابوا كلهم بأن الرأى ما رآه السلطان وفقه الله الا ما كان من بعض العامة الاغمار الذين لم يجربوا الامور ولا اهتــدوا الى النظــر فى العواقب فانهم قالوا : ما نعطيهم الا السيف لكن لم يلتفت اليهم .

وقد كتبت فــى هذه المسألة جوابا مطولا رأيت اثباته هنا خشية ضياعه ونصه : اعلموا حفظكم الله أن النظر فى هذه النازلة يكون من وجوه ، أحدها من جهة الفقه والحكم الشرعى ، ثانيها من جهة الرأى والسياسة وهذا لابد أن يجرى على ضابط الفقه أيضا ، ثالثها من جهة الفهم عن الله تعالى والنظر فى تصرفاته سبحانه فى هذا الوجود بعين الاعتبار ، فأما الوجه الاول فاعــلم أن الفقهاء رضوان الله عليهم قد نصوا على أنه لا يجوز بيــع آلة الحرب مــن السلاح والكراع والسروج والترسة ونحو ذلك من الكفار الحــربيين لمــا يخشى من تقويهم بذلك على المسلمين ، هذه علة المنع وهى تفيــد أمرين : أحدهما أن كل ماهو فى معنى السلاح مما يفيدهم تقوية حكمه حكم السلاح فى المنع وهو منصوص عليه فلا نحتاج الى التطويل بجلبه . ثانيهما ان مــــالا يتقوون به يجوز بيعه منهم كيف ما كان ، وعدم التقوى يكون بأحد وجهين: اما بكون ذلك المبيع ليس مــن شأنه التقوى به فى الحرب كبعض المأكولات والملبوسات وغير ذلك مما هو مسرح لهم اليوم وقبله بزمان . واما بكونــه من شأنه أن يتقوى به فيها ولكنه عديم الفائدة بالنسبة الى حالهـــم اليـــوم لما تقرر من أنهم صاروا من القوة والاستعداد والتفنن فى أنـــواع الآلات الحربية الى حيث صارت آلاتنا عندهم هى والحطب سواء ، والدليل على ذلك أنهم يبيعوننا أنواعا من الآلات الحربية تقضى العجب من جودتها واتقانها ، ومع ذلك فينقل لنا عنهم أنهم لا يبيعوننا منها الا مــا انعدمت فائدته عندهم ،

لكونهم ترقوا عنها الى ما هو أجود منها واستنبطوا ما هو أتقن وأنفع الا فيما قل ، وعلى هذا فتنبغي اليوم الفتوى بجواز بيع سلاحنا منهم فضلا عن غيره لجزمنا بأن ذلك لا يفيدهم فى معنى التقوى شيئا ، وان كانت هنـاك فائدة فهى كلا فائدة ، هذا اذا لم نتوقع ضررا منهم عند امتناعنا مـن البيع ، فاما اذا كنا نتوقعه منهم كما هو حالنا اليوم فيرتقى الحكم عن الجواز الى ما هو فوقه وللضرورة أحكام تخصها . فان قلت : فقد أقدمت بهذا الكلام على مـا لم يقدم عليه أحد قبلك فى استجازتك بيـع السلاح من الحربيين . قلت : انما ذكرت السلاح توطئة لما الكلام فيه حتى يؤخذ حكمه بالاحرى ، ثـم انى ما أقدمت عليه الا بالقاعدة الفقهية لا مجازفة كما أقدم مـن قبلى على اجازة بناء الكنائس بأرض المسلمين لاجل الضرورة الداعية الى ذلك ، فقد أفتى علماء الاندلس فى القرن الخامس بالاذن للنصارى فى احداث الكنائس بأرض العنوة وبما اختطه المسلمون من الامصار ، مع أن الموجود فـى كتب السلف هو المنع ، وما ذلك الا لان الاحكـام المرتبة على الاعراف تختلف باختلاف تلك الاعراف ، قال القرافى فى كتاب الاحكام فـى الفرق بـين الفتاوى والاحكام فى السؤال التاسع والثلاثين مـا نصـه : « ان قلت : ما الصحيح فى هذه الاحكام الواقعة فى مذهب مالك والشافعى وغيرهما المرتبة على العادة والعرف اللذين كانا حاصلين حالة جزم العلماء بهـذه الاحكـام فهل اذا تغيرت تلك العوائد وصارت تدل على ضد مـا كانت تدل عليه أولا فهل تبطل هذه الفتاوى المسطورة فى الكتب ونفتى بمـا تقتضيه هذه العوائد المتجددة أو يقال نحن مقلدون وما لنا احداث شرع لعدم أهليتنـا للاجتهاد فنفتى بما فى الكتب المنقولة عن المجتهدين ؟ فالجواب ان اجراء هذه الاحكام التى مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الاجماع وجهالة فى الدين بل كل ما هو فى الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة الى ما تقتضيه العادة المتجددة ، وليس ذلك تجديدا للاجتهاد مـن المقلد حتـى تشترط فيه أهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد» اهـ . ونحوه له فى كتاب الفروق

ونقله عنه الائمة واعتمدوه ، فبان من هذا أنه لا معنى للافتاء اليوم بمنع بيع شيء من الكفار أيا كان الا المصحف والمسلم وما في معناهما لانهم بلغوا اليوم من القوة الى الحد الذى لم يكن لاحد في ظن ولا حساب الا أن يريد الله كفايتنا اياهم بامر من عنده فهو سبحانه ولى ذلك والقادر عليه وذلك ظننا به تعالى . فان قلت : ههنا مضرة أخرى تمنع من بيع ما طلبوه وهى التضييق على المسلمين فى معايشهم ومرافقهم لانهم اذا أكبوا على شراء هذه الاشياء فلا بد أن تغلو وترتفع أثمانها وفى ذلك من الاضرار بالمسلمين ما لا يخفى ولذا أفتى الائمة بمنع الحكرة فى كل ما للناس به حاجة من طعام وادام وعروض ، فان كان فى الحال سعة ولم يضر الاحتكار بالناس جاز فى الطعام وغيره ، قلت : والناس اليوم والحمد لله فى سعة وأما حصول التضييق عليهم فى معايشهم ومرافقهم بسبب تسريح وسق هذه الاشياء للنصارى فمشكوك فيه قد يحصل وقد لا يحصل ، والشك مطروح فى نظر الشرع بخلاف المضرة المتوقعة منهم عند المنع والمحاربة فمقطوع بها نظرا للقرائن القوية والعادة . فان قلت : بل الغالب حصول التضييق لا انه مشكوك فقط ، قلت : ليس بغالب ، فقد رأيناهم منذ أزمان وهم مكبون على وسق أشياء كثيرة مثل القطانى وغيرها ومع ذلك لم يحصل فيها والحمد لله الا الرخاء ، بل الحق ان هذا من علم الغيب لا ينبغى لاحد أن يحكم عليه بغلبة ولاقلة ، لان الحكم فى ذلك بالتخمين من باب التخرص على الله تعالى فى غيبه وهو حرام على أن النصارى اذا اشتروا منا شيئا من ذلك فانما يشترونه بالثمن الذى لهبال ويعشرونه بالصاكة التى لها بال فتحصل الارباح للرعية وللسلطان وهذه منفعة مقطوع بها ، واما الغلاء فمشكوك كما قلنا ، والحاصل ان الابحاث والتفريعات فى هذا الموضوع كثيرة ، وفى هذه النبذة كفاية لمن استبصر والله الموفق ، وأما الوجه الثانى وهو النظر من جهة الرأى والسياسة ولا بد فيه من الفقه أيضا اذ كل سياسة لا تستضىء بنور الشرع فهى ضلال فنقول : لايخفى أن النصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد والمسلمون لم الله شعثهم وجبر كسرهم على غاية من الضعف والاختلال ،

واذا كان كذلك فكيف يسوغ فى الرأى والسياسة بل وفى الشرع أيضا أن ينابذ الضعيف القوى أو يحارب الاعزل الشاكى السلاح وكيف يستجاز فى الطبع أن يصارع المقعد القائم على رجليه أو يعقل فى النظر أن تناطح الشاة الجماء الشاة القرناء كما قال الشاعر :

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه   وقد حيل بين العير والنزوان

فالمحاربة على هذا الوجه مما لم تقل به سياسة ولا وردت به شريعة ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلق عند ربه وأكرمهم لديه قد صالح المشركين يوم الحديبية صلحا قال فيه بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم : نحن المسلمون فكيف نعطى الدنية فى ديننا ، ورد أبا جندل رضى الله عنه الى المشركين وهو يرسف فى قيوده ويصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين كيف أرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى والقصة مشهورة لاحاجة الى التطويل بها ، وقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب أن يعطى عيينة بن حصن والحرث بن عوف وهما قائدا غطفان ثلث تمر المدنة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه حتى رده عن ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضى الله عنهما حين أحسوا من أنفسهم بمقاومة العدو ، وأين نحن منهم دينا ويقينا وبصيرة وثباتا فى الحرب ، وقد أفتى الفقهاء رضوان الله عليهم لاجل هذا الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجواز عقد الهدنة مع الكفار على اعطاء المال ، انظر المختصر وغيره ، فاذا كان اعطاء المال مجانا جائزا عند الضرورة فكيف لا يجوز اعطاء بعض المتمولات بأثمانها التى لها بال ، وأيضا فهؤلاء الاجناس انما دعونا فى ظاهر الامر الى السلم لا الى الحرب وغاية مطلوبهم فى هذه النازلة الاستكثار من ضروب المتاجرة التي ينشا عنها فى الغالب كثرة الممازجة بيننا وبينهم ، ولعمرى ان فى اختلاطهم بنا وممازجتهم لنا لمضرة وأى مضرة وما يعقلها الا العالمون ، ولكنها تستصغر بالنسبة الى مضرة المحاربة ، وليس من الرأى والسياسة أن يدعوك خصمك الى السلم فتدعوه الى الحرب ما وجدت الى السلم سبيلا ، وهذا هو الذى فعله رسول الله صلى الله عليه

وسلم يوم الحديبية فانه قال لاصحابه لما اغتاظوا من ذلك الصلح وقال بعضهم والله ما هذا بفتح : «لقد صدنا عن البيت وصد هدينا بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم من الامان » الى آخر ما قاله صلى الله عليه وسلم ، والى هذا ونحوه الاشارة بقوله تعالى : (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) ذكر تعالى ذلك عقب قوله : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) اشارة الى أن الصلح يجوز ولو كان بالمسلمين قوة واستعداد كما نبه عليه بعض المفسرين فكيف ولا قوة ولا استعداد الا أن يتداركنا الله بلطف من عنده ، واختلف المفسرون هل الآية منسوخة أم لا والصحيح كما فى الكشاف وغيره ان الامر موقوف على ما يرى فيه الامام مصلحة للاسلام وأهله من حرب أو سلم ، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا أو يجابوا الى الهدنة أبدا اه . وهذا مذهبنا ومذهب غيرنا ولذلك جازت عندنا الهدنة وان على مال كما مر فدلت الآية الكريمة على أن السلم أولى من الحرب وهذا هو المعلوم المسلم شرعا وطبعا ، أما الشرع فهذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى : (والصلح خير) وقوله : (والفتنة أشد من القتل) وهاتان الا يتان وان نزلتا فى شىء خاص لكن يجوز الاستشهاد بهما فيما نحن فيه وفى غيره اذ هما من الكلام الجامع الجارى مجرى المثل والحكمة ، وعن على رضى الله عنه : «ما دعوت الى المبارزة قط وما دعانى أحد اليها الاأجبته ،» فقيل له فى ذلك فقال : «الداعى الى الحرب باغ والباغى مصروع ،» وأما الطبع فلا يحتاج الى شاهد لان كل عاقل يعلم أن السلم خير من الحرب . وقد قال شريك لمعاوية رضى الله عنهما فى مقاولة جرت بينهما : «انك ابن حرب والسلم خيرمن الحرب» وقال الحصين بن نمير السكونى لابن الزبير رضى الله عنه يوم مات يزيد: اذهب معى الى الشام لادعو الناس الى بيعتك فلا يتخلف عنك أحد فقال ابن الزبير: أمادون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فلا ، وجعل ابن الزبير يجهر بذلك فقال له الحصين : أكلمك سرا وتكلمنى جهرا ، وأدعوك الى السلم والخلافة وتدعونى الى

الحرب والمناجزة، كذب من زعم أنك داهية العرب اه، فقد عاب عليه ذلك . من جهة الرأى كما ترى ، وأنشد صاحب الكشاف وغيره لدى قوله تعالى: (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) قول العباس بن مرداس رضى الله عنه:

السلم تأخذ منها ما رضيت به   والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وفى كتاب الفتن من صحيح البخارى ما نصه · كان السلف يستحبون أن يتمثلوا بهذه الابيات عند الفتن :

الحرب أول ما تكون فتية   تسعى بزينتها لكل جهول

حتى اذا اشتعلت وشب ضرامها   ولت عجوزا غير ذات حليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت   مكروهة للشم والتقبيل

قال القسطلانى : المراد انهم يتمثلون بهذه الابيات ليستحضروا ما شاهدوه وسمعوه من حال الفتنة ، فانهم يتذكرون بانشادها ذلك فيصدهم عن الدخول فيها حتى لا يغتروا بظاهر أمرها أولا اه . ولا شك أن هذه حالة العامة الاغمار الذين لم تضرسهم الحروب ولا حنكتهم التجارب تجدهم اذا ظهرت مخايل فتنة نسال الله العافية استشرفوا اليها وتمنوا خوضها وربما تألى بعضهم وقال : والله لئن حضرتها لافعلن وأفعلن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «لا تتمنوا لقاء العدو» وحال هذا الغمر المتألى هو الذى أفصح عنه المتنبى بقوله :

واذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

فهذا القطر المغربى تدارك الله رمقه على ما ترى من غاية الضعف وقلة الاستعداد فلا تنبغى لاهله المسارعة الى الحرب مع العدو الكافر مع ما هو عليه من غاية الشوكة والقوة، وقد تقرر فى علم الحكمة أن المعاندة والمدافعة انما تحصل بين المتضادين والمتماثلين ولا تحصل بين المتخالفين ، وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل وانما هو من باب التخالف فافهم ، بل لو فرضنا أن أهل المغرب اليوم مماثلون للعدو فى القوة والاستعداد لما كان ينبغى لهم ذلك لانه ليست العدة وحدها كافية فى الحرب ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها بالذى يغنى فيها شيئا ، بل لابد مع ذلك

من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها على قلب رجل واحد ولا بد مع ذلك من ضابط يجمعهم وقانون يسوسهم حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد يقوم جميعا ويقعد جميعا ، وهذا معنى ما صح فى الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم : «المومن للمومن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» فان لم يكن ضابط وقانون فلا بد من نفاذ البصيرة فى الدين وقوة اليقين والالفة فيما بين المسلمين والغيرة على الوطن والحريم وجودة الرأى والتمرس بالحروب ومكايد المشركين ، وأهل المغرب اليوم الا القليل منسلخون من هذا كله أو جله ، فقد توالت عليهم الاجيال فى السلم والهدنة وبعد عهد أسلافهم فضلا عنهم بالحرب وشدائدها ومعاناة الاعداء ومكايدها وانما همهم مأكولهم ومشروبهم وملبوسهم كما لا يخفى حتى لم يبق من هذه الحيثية فرق بينهم وبين نسائهم ، وليس الخبر كالعيان ، فكيف يحسن فى الرأى المسارعة الى عقد الحرب مع أجناس الفرنج وما مثلنا ومثلهم الا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء والآخر مقصوصهما واقع على الارض لا يستطيع طيرانا ولا يهتدى اليه سبيلا ، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذى هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذى يطير حيث شاء ؟ وهل يكون فى ذلك ان كان الا هلاك هذا وسلامة ذاك بل وغنيمته فان ذاك ينقر هذا متى وجد فيه فرصة للنقر ويبعد عنه ويطير اذا لم يجدها وهكذا يستمر حاله معه حتى يثبته أو يملكه بالكلية ، وليس فى طوق هذا الا أن يدفعه عن نفسه فى بعض الاحيان اذا تأتى له ذلك ، ولكن الى متى فهكذا حالنا مع عدونا فانه بقراصينه الحربية ذو أجنحة كثيرة فهو علينا بالخيار يهجم علينا فى ثغورنا اذا شاء ويبعد عنا فلا ندركه متى شاء ، وقصارانا معه الدفع عن أنفسنا اذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الاعراب من خلفنا وهيهات فقد جرب ذلك مرارا فصح والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كما قال عليه السلام ، والكلام فى هذا الفصل أيضا طويل وفيما أشرنا اليه كفاية . فان قلت : أراك قد صيرت الجهاد الذى حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم محض فتنة وقد زهدت الناس فيه وقطعت آمالهم منه بهذا

الكلام . قلت : أعلمت ياأخى ما هو الجهاد الذى حث عليــه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم ؟ اعلم أن الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرك والطغيان على اعلاء كلمة الرحمن لينساقوا بذلك الى الدخول فى دين الله طوعا أو كرها ، ولتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الشيطان هي السفلى مــع نفاذ البصيرة وخلوص النية والغيرة على دين الله ، وكل ذلـك بشرط القــوة المكافئة أو القريبة منها ، ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكرنا كــان الى الفتنة أقرب منه الى الجهاد ، بل نقول ان الجهاد الشرعى قد تعذر منذ أحقاب فكيف تطلبه اليوم فان كنت تسارع الى الحرب لتدركه جهلا منـك بحقيقة الامر فاعلم أنك انما تسارع الى ايقاد نار الفتنة وايجاد العدو السبيل عليك وامكانه من ثغرتك وتسليطه على السبى لحريمك ومالك ودمــك نسأل الله العافية ، اللهم الا أن تكون ممن اختارهم الله وأهلهم لذلك وكتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه كما نسمع اليوم عن امة الحبشة والنوبة الذيــن يقاتلون عساكر النجليز على تخوم صعيد مصر وغيرها فقد تواتر النقل وصح الخبر أن دولة النجليز قد بارت حيلها مع هؤلاء القوم وأنهـــا وجهت اليهم العساكر من الديار المصرية بكل قوة وشوكة مــرة بعـد اخرى فمحقوهم محقا مع أنهم لا يقاتلونهم فى الغالب الا بالحراب على عادة السودان فى ذلك والنصر بيدالله، وأما الوجه الثالث وهوالفهم عنالله تعالىوالنظر فىتصرفاته سبحانه فى هذا الوجود بعين الاعتبار فهذا حق الكلام فيه أن يكـون مـن أرباب البصائر المتنورة والقلوب المطهرة لا من أمثالنا الذيـن أصبحوا على أنفسهم مسرفين ، وفى أودية الشهوات منهمكين تداركنا الله بلطفه ، لكنـا نقول وان كان القول من باب الفضول : اذا نظرنا ما عامل الله تعــالى به عبده أمير المؤمنين مولانا الحسن أيده الله وجدناه والحمد لله مصنوعا لــه مصحوبا بالعناية الالهية ، مكلوء بعين الرعايـــة الربانية تصحبه السعادة أينما توجه ويختار لهفى جميع ما يحاوله، ولا تنجلى مهماته الا عنما يسر الصديق ويسوء العدو ، فالحمد لله على ذلك حمدا كثيرا وهو مع ذلك جميل الظـن بربه ، حسن العقيدة فى توكله عليه ، مفردا وجهته اليه حريصا على استصلاح

رعيته ، ذا غيرة تامة على الدين والوطن بحيث فاق بذلك وغيره من خصال الخير كثيرا من ملوك عشيرته الذين تقدموه ، واذا كان كذلك فمن الرأى الذى لا رأى فوقه أن نفوض اليه فى ذلك ونثق بحسن رأيه ويمن نقيبته ونجاوبه فى هذه النازلة بأن الامر فى ذلك اليه لا الى غيره اذ هو الذى طوقه الله أمرنا وكلفه النظر لنا والنصح لدينا ، وان كان لا بد من المشورة فليست الا مع أهل الحل والعقد ، وقد قال العلماء : أهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الامر الخاص لانه يشترط فى كل من ولى النظر فى أمر ما من الامور العلم به فما اختاره أمير المؤمنين اخترناه ، وما انشرح له صدره وأمضاه أمضيناه ، وكيف لا وماعوده الله الا خيرا وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم الآية ، وعسى أن يكون فيما طلبه هؤلاء الاجناس فساد أمرهم وصلاح أمرنا وذلك الظن به تعالى وما هو عليه بعزيز، فيكون تدميرهم فى تدبيرهم وقد استروحنا والحمد لله نسيم الفرج مما كنا فيه قبل اليوم ، تمم الله علينا نعمته آمين ، وأيضا ففى التفويض فى هذه النازلة ضرب من التبرى من الحول والقوة فحيث ساقت الاقدار الينا هذا الامر فينبغى أن نتلقاه بالرضى والتسليم بخلاف ما اذا استعملنا فيه حيلتنا ورأينا فيكون من باب الدخول فى التدبير وشتان ما بين التفويض والتدبير ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصرى كان الله له فى عاشر شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف . اه . ثم ان الله تعالى لطف فى هذه النازلة بمنه اللطيف الجميل ، وكفى مؤنتها من ذلك المطلوب بشىء قليل ، وذلك أن السلطان أيده الله سرح لهم وسق القمح والشعير ثلاث سنين ووضع عنهم من صاكتهما نحو الربع لا غير ولم يحصل والحمد لله للرعية ضرر قط .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة وألف فيها كتب السلطان مولاى الحسن أيده الله الى علماء فاس كتابا يستفتيهم فى حكم التجارة فى الاعشاب المرقدة والمفسدة ويستشيرهم فى تسريحها وامساكها ، ونص ذلك الكتاب بعد الافتتاح : أحباءنا فقهاء فاس الاجلة المرضين وعلماءها المرشدين سلام عليكم

ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ، فطالما قدمنا رجلا وأخرنا أخرى في تسريح الطابة التي هي الاعشاب المرقدة والمفسدة ونحوها وكان تسريحها من أهم الامور لدينا وآكد من تسريح غيرها كالابواب لما نجده في نفسنا لها من الاستقباح ونستقذره من أمرها في الغدو والرواح ، مع مزيد ثقلها على فؤادنا وكونها أحرج في روعنا ، وكان أسلافنا قدسهم الله اجتهدوا في قطعها وحسم مادتها بكل ما أمكنهم وأفضى بهم الحال الى احراقها مرارا ولما رأوا تمالؤ الرعاع والسفهاء والمقلين والمعدمين عليها ارتكبوا فيها ما يحصل به التضييق على مستعمليها وتمنع منهم فلا يلحقها الا من عنده ما يشتريها به وهم في أولئك الرعاع قليل مع النظر لما يحصل لبيت المال من النفع الكثير فحيزت لجانب المخزن لتحصيل المقصدين المذكورين ، وحيث قذف الله في قلبنا تسريحها ورفض درن ما يحصل منها تعارض لدينا أمران: وهما ابقاؤها بيد المخزن وتسريحها ، أما الاول فهو الذي فررنا منه وبينا علله ، وأما الثاني وهو التسريح فمقتضاه اغراء الرعاع والسفهاء على استعمالها ولا سيما مع انحطاط ثمنها فيتناولها القوى والضعيف فيصير ذلك ذريعة الى اباحة ما كانوا ممنوعين منه فيتجاهرون به ولا يخشون رقيبا ، ويأتي منها من بعر النصارى ما لا حصر له فيعشر كسائر المعشرات المباحة وتنبني على ذلك مفاسد هي أعظم من كونها محوزة وأشكل الامر فلتبينوا المخلص من ذلك بما تقتضيه قواعد الشريعة المطهرة حتى نخرج من عهدة ذلك فان الخطب عظيم والسلام في الثالث والعشرين من المحرم عام أربعة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله . وأجاب عنه علماء فاس وفرهم الله بجواب طويل مرجعه الى حرمة استعمال تلك الاعشاب والتجارة فيها حسبما عليه الجمهور من الفقهاء والصوفية رضوان الله عليهم ، ولما كان المقصود الاهم للسلطان أيده الله هو الاشارة بكيفية التخلص من ورطة تسريحها والحصول على السلامة مما عسى أن ينشأ عنه من المفاسد المرموز اليها في الكتاب الشريف كتب الى بعض الاحبة من فاس بقصد المذاكرة في النازلة فأجبته عنها بما نصه : اعلم حفظك الله أن ما أجاب به سادتنا فقهاء فاس من

حرمتها ووجوب تخلى المخزن عن بيعها هو الحق الذى لا محيد عنه لما اشتملت عليه تلك الاعشاب من المفاسد العديدة التى كل واحدة منها كافية فى الجزم بحرمتها وقد بينا شيئا من ذلك فى كتاب الاستقصاء عند الكلام على حدوثها ودخولها لبلاد المغرب أيام المنصور السعدى فلينظره من أراده فانه كاف فى هذا الباب ، وأما ما أشار اليه الكتاب الشريف من أن مصلحة احتياز المخزن لها واستبداده ببيعها هى التضيق على مستعمليها حتى لا يتناولها منهم الا الملى بثمنها دون الفقير الخ فهى مصلحة موهوبة أو معدومة لجزمنا بأن الحامل لمتعاطيها على استعمالها انما هو التبذل وقلة المروءة ورقة الديانة وخسة النفس وسقوط الهمة كما أن الوازع لمن لم يتعاطاها انما هو كمال المروءة ومتانة الديانة وشرف النفس وعلو الهمة لا فقدان ذلك الثمن التافه كيف لا وهى لا يتعاطاها فى الغالب الا الفقراء المقلون ، فمصلحة التضيق عليهم فى ثمنها مفقودة كما ترى ، واذا كان كذلك فالواجب شرعا ومروءة هو تنزيه منصب الامامة الاسلامية والخلافة النبوية التى هى أهم الخطط الدينية والمناصب الشرعية عن التجارة فيها وتطهير تلك الساحة الكريمة من التلوث بأقذارها اذ لا يناسب ذلك حال مطلق المسلمين فكيف بجناب أمير المؤمنين ، وأيضا ففى تناول ذلك الجناب لها بالتجارة والاستبداد بالربح تهييج للعامة عليها واغراء لهم بتعاطيها كما قرره علماء فاس حفظهم الله ، ولو نهوا عنها لما انتهوا بل ربما احتجوا بانها لو كانت حراما ما احتازها المخزن واستبد بربحها ، ومن العادة المقررة أنه لايمتثل الا قول الممتثل ولا يؤتمر الا بامر المؤتمر ، ولما انبرم الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش يوم الحديبية وأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا أمسكوا ولم يفعلوا حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس فقالت أم سلمة رضى الله عنها : يانبى الله أخرج ثم لا تكلم منهم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج صلى الله عليه وسلم ولم يكلم أحدا منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا

حتى كادوا يقتتلون اه . فكذلك نقول هنا ان العامة مهما رأوا الامير تعاطى شيئا تعاطوه ، واذا رأوه نبذ أمرا نبذوه لان العامة مولعون بالاقتداء بالامير ومن في معناه من الكبراء حسبما قرره ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران من تاريخه ، واما التخوف من الاتيان بها من بر النصارى واشتغالهم بالتجارة فيها باسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها وما ينشا عن ذلك من المفاسد فهو مأمون بمقتضى الشروط المنعقدة بيننا وبينهم حسبما تضمنه الشرط الثانى والخامس والسابع من شروط التجارة المنعقدة مع النجليز خصوصا وغيره عموما سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف ، فقد صرح فى الشرط الثانى منها بأن هذه الاعشاب ونحوها من جملة الممنوعات دخولا وخروجا ، ثم نبه على ذلك أيضا فى الخامس والسابع فلينظره من أراده وانما يكون لهم بعد تخلى السلطان عن بيعها أن يجلبوا منها ما يحتاجونه لانفسهم فقط لا أكثر منه كالخمر الا ترى أنهم اليوم انما يجلبون منها ما يشربونه ويتبايعونه فيما بينهم ولا سبيل لهم الى التجارة بها فى أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها فكذلك هذه الاعشاب حكمها حكم الخمر حذو النعل بالنعل ، واذا امتنع المخزن من التجارة فيها مع بقاء منع الرعية منها أيضا فلا حجة للنصارى فى ذلك ولا متكلم لهم فيه اذ ليس فى امتناع المخزن حينئذ الا تأكيد المنع الذى كان قبل وانما تكون لهم الحجة اذا بيعت لبعض الرعايا دون بعض لان حاصل شروط التجارة الخمسة عشر ومدارها على أن رعايا الاجناس يكون لها ما لرعية الايالة المغربية من التحجير والاطلاق والتخصيص والتعميم بحيث لا يستبد أحد من الفريقين بنوع من أنواع التجارة دون الآخر الا ما للمخزن فيه غرض ومصلحة فى تثقيفه من أشياء مخصوصة فانه يثقفه بنظره اذا شاء ويسرحه كذلك متى شاء ، وان اقتضى نظره أن يستبد بأرباح شىء من ذلك دون رعايا الفريقين فله ذلك وانما الممنوع أن يبيح لرعيته دون رعايا غيره أو يبيح لبعض الاجناس دون بعض هذا هو الممنوع فى الشروط ، أما هو فى خاصة نفسه ومصلحة ملكه فله أن يستبد من تلك الممنوعات بما شاء ، هذا حاصل تلك الشروط وان طالت وامتدت ، اذا علمت هذا فكيف

يتخوف عند امتناع السلطان من بيع تلك الاعشاب مع استمرار منع الرعية منها أيضا الاتيان بها من بر النصارى ومتاجرتهم بها فى أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لها الخ . هذا لا يتوهم ، نعم يتخوف من ذلك اذا امتنع السلطان من بيعها وأذن للناس فيه وأطلق لهم ، يد التصرف به ، وليس هذا مراد السلطان أيده الله وان أوهمه لفظ الكتاب الشريف حيث قال : طالما قدمنا رجلا وأخرنا أخرى فى تسريح الصاكة الخ . ولعل الكاتب أو الملى عليه لم يحرر مراد السلطان أيده الله فنسج الكتاب على ذلك المنوال وأوهم أن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن يمتنع من بيع تلك الاعشاب تقذرا لها وتأففا منها ويبيحها لرعيته من المسلمين وغيرهم ، ومعاذ الله أن يكون هذا مراده كيف وهو أيده الله من أخشى الملوك وأتقاهم لله وأحبهم لرعاياه وأحدبهم عليها وأحرصهم على جلب النفع لها ودفع الضر عنها وأعلمهم بقول جده عليه الصلاة والسلام «لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لاخيه المؤمن ما يحب لنفسه» فقد بان لك من هذا التقرير أن الواجب شرعا ومروءة هو المبادرة الى رفض التجارة فى تلك الاعشاب وتطهير ساحة الامامة الاسلامية من قذرها ، قال الله تعالى فى وصف رسوله صلوات الله عليه (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) وكما يجب على أمير المؤمنين أيده الله تطهير ساحة الخلافة منها يجب عليه السعى فى تطهير ساحة المسلمين أيضا منها لما أسلفناه آنفا . فان قلت : أما ما ذكرته من المبادرة الى تطهير ساحة الخلافة منها فسهل متيسر ان اشاء الله . وأما تطهير ساحة المسلمين منها فيظهر أنه فى غاية الصعوبة لان العامة اذا حملوا على رفضها كرة وألجئوا الى ترك استعمالها بالمرة ضاق بهم المتسع وساءت أخلاقهم وحاصوا حيصة حمر الوحش ، وربما صدر منهم مالا ينبغى من الاعلان بالخلاف والمجاهرة بالعصيان .

ومن وصايا ارسطوطاليس الحكيم لتلميذه الاسكندر : ياسكندر تغافل عن العامة ما أمكن ولا تلجئها أن تقول فيك الا خيرا ، فان العامة اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل ، أو كلاما هذا معناه ، والحاصل ان فطم العامة

عما اعتادوه من بعض الجهالات وصرفهم عما مرنوا عليه من بعض الضلالات في غاية الصعوبة ولا يتيسر ذلك الا لمن هيأه الله له من نبي مرسل أو ولي كامل أو امام عادل ، واذا كان صرف العامة عن هذه المفسدة التي اعتادوها ونشأوا عليها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن يؤدي الى الهرج والخلاف جزما أو ظنا فالواجب هو تركهم على ماهم عليه لان تغيير المنكر له شروط منها أن لا يؤدي الى منكر أعظم كما هو مقرر في الاصول والفروع .

قلنا : كل ما قررته في هذا السؤال حق لا محيد عنه ، ولكن نحن لا نقول ان أمير المومنين أيده الله يحمل العامة على رفضها كرة ويلجئهم الى تركها بالمرة ، بل يسلك معهم في ذلك سبيل التدريج كما سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحريم الخمر على العرب ، فان الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم والعرب من أعشق الامم للخمر وأشدهم بها ولوعا وأكثرهم لها حبا حتى كانت شقيقة روحهم ومغناطيس أنسهم قد اتخذوا لها المجالس الحفيلة واختاروا لها القينات الجميلة ، وضربوا عليها بالمعازف والدفوف ، وحكموا لها على غيرها من مألوفاتهم بغاية الشغوف ، حتى نسبوا بها في أشعارهم ، وتوجوا بها بنات أفكارهم ، وبالجملة فلا يؤثر عن أمة من محبة الخمر ومدحها ما أثر عن العرب ، فلذلك لما انصرفت عناية الشرع الكريم الى تحريمها كان ذلك على سبيل التدريج كما هو معلوم في الكتاب والسنة حتى تم مراد الله ورسوله من العرب فرفضوها بالكلية ، وسماها الشارع أم الخبائث زيادة في التنفير منها ، وما حرمت آلات اللهو الا من أجلها ومبالغة في تحريمها اذ هي وسيلة اليها كما حققه الغزالي رحمه الله في كتاب السماع من الاحياء ، وفي تفسير الخازن بعد سرده كيفية التحريم ما نصه : والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيرا فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق عليهم فلا جرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق ، قال أنس رضي الله عنه : حرمت الخمر ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر اه

اذا علمت هذا فنقول كذلك ينبغي لامير المؤمنين أيده الله أن يسعى فى تطهير رعيته من خبث هذه الاعشاب التى لا شيء أخبث منها كما أوضحته فى كتاب الاستقصاء ، ويسلك معهم فيها سبيل التدريج صارفا همته اليه ومستعينا بالله ومتوكلا فى ذلك عليه ، فانه لايصعب ذلك عليه ان شاء الله .

اذا كان عون الله للمرء ناصرا تهيا له من كل صعب مراده

وقال البوصيرى لسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أقول ولامير المؤمنين من حال جده قسط والحمد لله :

كل أمر تعنى به تغلب الاعيان فيه ويعجب البصراء

وكيفية التدريج فى ذلك أن يأمر أيده الله علماء المجالس وخطباء المنابر ووعاظ الكراسى بالتواطؤ على ذم تلك الاعشاب وتقبيحها فى نفوس العامة وابداء معايبها لهم ، وشرح مفاسدها لديهم ، والتغليظ فى ذلك بابلغ ما يمكن ، ومن قدر على تأليف ألفه أو شعر نظمه أو رسالة أنشأها ، ويستمرون على ذلك ثلاثة أشهر أو أربعة أو أكثر من ذلك ، فان ذلك لابد أن يؤثر فى نفوس العامة بعض التأثير فان الهمم اذا تواطأت على شيء أثرت فيه بعون الله لا سيما هم أهل الخير ، وفى الحديث يد الله مع الجماعة ، ثم بعد مضى هذه المدة وتقرر قبحها فى نفوس العامة يكتب أمير المؤمنين أيده الله الى قضاته ويأمرهم بتفقد الشهود وأئمة المساجد فمن عثروا عليه أنه يستعمل شيئا من تلك الخبائث أسقطوا شهادته وحظروا امامته ، وأن لا يقبلوه ولو فى اللفيف ، ويوالى الكتابة والاعتناء بذلك مدة مثل الاولى أو أكثر ، فيزداد قبحها فى نفوس العامة وتعزف نفوس كثير منهم عنها ، ثم بعد هذا كله يكتب لولاة الامصار وعمال البوادى أن يتقدموا الى رعاياهم بمنع ازدراعها وادخار شيء منها أو التجارة فيه بوجه من الوجوه ، فاذا تم هذا الغرض على هذا الوجه تخلى هو حينئذ عن بيعها وأمر باحراق باقيها وسد حاناتها المسماة فى عرفنا بالقهاوى ويمنع الناس من استعمالها فى المجامع العامة كالاسواق ونحوها ، ويشدد فى ذلك ويعلن بالنداء فى جميع الايالة المغربية بان حكم هذه الاعشاب حكم الخمر فكما لا يتجاهر

بالخمر في الاسواق ونحوها كذلك لا يتجاهر باستعمال هذه الاعشاب فيها ، ومن فعل ذلك أدب أدبا يليق به ويرتدع به غيره ، فهذا أقصى مـا يفعله السلطان والتوفيق بعد ذلك بيد الله ، واذا تم هذا العمل في نحو ثلاث سنين فهو قريب ، واذا يسر الله ذلك كان فيه بشرى للمسلمين وعنوانا لهم على تجديد دينهم ، ولعمرى ما كان أمر الخمر في العرب الا أرسخ من أمر هذه الاعشاب في الناس اليوم بكثير ، وان الشبهة كانت فيها أقوى منها في هذه ، وذلك مظنة سهولة زوالها وتطهير البلاد والعباد منها وما ذلك على الله بعزيز . قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصرى لطف الله به في خامس عشر ربيع الثاني سنة أربع وثلاثمائة وألف .

ثم ان السلطان أيده الله رفض التجارة فيها وأحرق ما كان محوزا لجانب المخزن منها ومنع تجار الاجناس من جلبها الى قطر المغرب الا القدر الذى يستعملونه في خاصة أنفسهم منها بشرط تعشيره وقصر نزوله على مرسى طنجة دون سائر المراسى المغربية والحال على ذلك لهذا العهد .

ولما دخلت سنة خمس وثلاثمائة وألف غزا السلطان مولاى الحسن أيده الله آيت ومالومن برابرة فازاز وهم بطن من صنهاجة يشتمل على أفخاذ كثيرة مثل ظيان وبنى مكيلد وشقيرين وآيت سخمان وآيت يسرى وغيرهم أمم لا يحصيهم الا خالقهم ، قد عمروا جبال فازاز وملأوا قننها وتحصنوا بأوعارها منذ تملك البربر المغرب قبل الاسلام بأعصار طويلة ، فلما كانت السنة المذكورة خرج السلطان من مكناسة الزيتون عاشر رمضان منها بقصد غزو هذه القبائل العاصية وتدويخ بلادها اذ لم تكن تبذل الطاعة الا للواحد بعد الواحد من ملوك دول المغرب في الاعصار المتراخية حسبما يعلم مما أسلفناه في هذا الديوان من أخبارهم وأخبار غيرهم ، فانتهى السلطان الى تلك الجبال ودوخها ثم الى قصبة آدخسان التى بناها المولى اسمعيل رحمه الله فوفد عليه هناك جل تلك القبائل وبذلوا الطاعة وأظهروا الخضوع وبذلوا المؤن والانزال للجيش والهدايا للسلطان الا ما كان من آيت سخمان فانهم أظهروا الطاعة أولا كغيرهم وطلبوا من السلطان أن يبعث معهم طائفة من

الجيش ليدفعوا لهم المؤن وما وظف عليهم من الهدايا والانزال فارسل معهم السلطان مائتى فارس وعقد عليهم لابن عمه الشريف الفاضل الناسك مولاى سرور بن ادريس بن سليمان ، وجده سليمان هذا هو أحد ملوك هذه الدولة العلوية حسبما تقدم ، فلما توسطوا حلة آيت سخمان مع العشى تناجوا فيما بينهم والشيطان لا يفارقهم فاتفقوا على الغدر بأصحاب السلطان وفرقوهم على مداشرهم وحللهم ، فلما كان وقت العشاء الاخيرة أظهروا علامة بينهم وسعت كل طائفة الى من عندها من أصحاب السلطان فأوقعوا بهم فقتلوا منهم نحو العشرين على ما قيل وأفلت الباقون بجريعاء الذقن ، وكان فيمن قتل منهم كبيرهم الشريف مولاى سرور المذكور ، وكان من خيار عشيرته رحمة الله عليه رموه برصاصة وطعنوه بتفالة ، وكانت هذه الفعلة الشنعاء باشارة كبيرهم على بن المكى من بقية آل مهاوش الذين تقدم الخبر عنهم فى دولة السلطان مولاى سليمان رحمه الله ، ثم أسروا من ليلتهم تلك فلم يصبحوا الا بآيت حديدو وآيت مرغاد وغيرهما من قبائل البربر وتفرقوا شذر مذر وبقى منهم نفر يسير على ما قيل ، فقبض عليهم من الغد وضربت أعناقهم ، وقال بعض من حضر الوقعة انهم لما فعلوا فعلتهم هربوا من تحت الليل وتركوا زروعهم وأمتعتهم فى مداشرهم ، ولما انتهى الخبر الى السلطان بعث فى طلبهم طائفة من عسكره وضم اليهم خيل شقيرين اخوانهم وكانوا راكبين مع السلطان مظهرين للطاعة فانتهبوا أمتعتهم وانتسفوا زروعهم وهدموا أبنيتهم وحرقوا بيوتهم وأبلغوا فى النكاية ، وتحامت خيل شقيرين ذلك ابقاء على اخوانهم وتعصبا للبربرية وربما دسوا اليهم من أعلمهم بالحال ، وأمرهم بالابعاد فى الارتحال ، ولما أطلع السلطان على خبيئة شقيرين أمر بنهب حللهم وأسر من ظفر به منهم وقتله فأوقع بهم جيش السلطان وقعة شنعاء فأسروا منهم عددا وافرا وضربوا أعناق نحو الثلاثين منهم وانتهبوا حللهم ومداشرهم حتى كأن لم تغن بالامس ، ومن الغد جاءت نساؤهم وأطفالهم فاستجاروا بالمدافع واستغاثوا بالسلطان فرق لهم وسرح مساجينهم وكساهم وعفا عنهم ، وكان هذا كله فى أواخر ذى القعدة

من السنة المذكورة أعنى سنة خمس وثلاثمائة وألف ، ثم قفـل السلطان راجعا فدخل مكناسة الزيتون أواخر ذى الحجة خاتمة السنة المذكورة .

ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة وألف فيها غزا السلطان جبـال غمارة فخرج من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة فسلك تلك الجبال ودوخها وزار تربة الشيخ الاكبر والكبريت الاحمر أبا محمد عبد السلام ابن مشيش رضى الله عنه ، ثم تقدم الى مدينة تطاوين فدخلها يوم الاربعاء ثامن المحرم من السنة التى تليها أعنى سنة سبع وثلاثمائة وألف فأقام بها نحو الخمسة عشر يوما وزار صلحاءها وتطوف فـى معالمها وتبارى وجوه أهل تطاوين وكبراؤهم فى الاهداء اليه وبذل المجهود فـى الاعتناء بحاشيه وجيشه وأعجب ذلك السلطان وحاشيته ورأوا منهم ما تقر به أعينهم وأنعم عليهم السلطان بعشرة آلاف ريال لبناء قنطرة يرتفقون بها فى واديهم المحيط بمدينتهم لكن لم يحصل مقصود من ذلك لعدم اتقان بنائها فتهدمت فى الحال وضاع ذلك المال ، ثم سار السلطان مـن تطاوين الى طنجة ثـم منها الى العرائش ثم عاد الى فاس فاقام بهـا الى أواسط شوال من السنة المذكورة ، ثم غزا آيت سخمان الذين قتلوا ابن عمه مولاى سرور فأوقع بهـم وقبض على نفر منهم ولم يتمكن منهم على مـا ينبغى ، ثم سار الى مراكش فأعرس لجماعة من بنيه وبناته ووفدت عليه الوفود من أقطار المغرب بالتهنئة وتبارو‌ا فى الهدايا والتحف على ما ينبغى وبالغ السلطان فى اكرامهم وافاضة الانعام عليهم واستمر أيده الله على كرسى ملكه وأريكة عـزه وسلطانه والايـام سلم له والدنيا مهنأة بعزه ونصره والرعية طوع نهيه وأمره الا ما كان مـن نواب أجناس الدول فانهم أكثروا التردد اليه، والاقتراحات عليه، والتلونات لديه ، فمرة بالنصائح الفارغة ومرة بالتظلمات الباطلة والحجـج الواهية ، وأخرى بطلب التخفيف من الاعشار والتنقيص مـن الصاكات الى غير ذلك مما لا تكاد تقوم له الجبال الراسية ، وهو يدافعهم ويراوغهم وحيدا لا ناصر له ولا معين الا الله الذى أيد به الدين ، وعصم به الاسلام والمسلمين .

ولما كانت سنة عشر وثلاثمائة وألـف خرج السلطان مولاى الحسن

أيده الله غازيا صحراء تافيلالت وقبائلها فخرج اليها من فاس عقب عيد الاضحى من السنة المذكورة فقضى الاوطار من تمهيد تلك الاقطار على ما ينبغي ، ثم كتب كتابا الى ولاة المغرب يصف فيه الحال وما قاساه في تلك السفرة من الحل والارتحال ، فقال في كتابه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسمه المبارك ما نصه : وبعد ، فان الله تعالى لما أقام عبده بمحض الفضل والاختيار وأورثه الارض وعمر به الاقاليم والديار ، لم تكن لناهمة فيما عدا السعي في صلاح المسلمين ، وانتظام أمورهم وجمع كلمة المؤمنين ، ولم نأل في ذلك جهدا حتى يسر الله سبحانه قبل في الوصول الى سائر قبائل رعيتنا السعيدة ، وتخللنا أراضيهم كلها بجيوش الله المصحوبة بالعناية المزيدة ، فلم نترك من الاقاليم الا النزر الغير المعتبر، أو ما كان في الوصول اليه الا مجرد المشقة والضرر ، وتفقدنا من أحوالها الامور وأجريناها على ما يرضي الله من الاستقامة في الورود والصدور ، وكان مما بقي علينا الوصول اليه هذه الاصقاع الصحراوية والمعاقل البربرية ، التى كان يفهم قبل أنها صعبة المرتقى عديمة وجوه الارتقا ، فاستخرنا الله تعالى وتوكلنا عليه وفوضنا الامر كله اليه ، وعلمنا أنه تعالى اذا أراد أمرا هيأ له الاسباب ، وفتح الى الوصول اليه المغالق والابواب ، وكل شيء منه واليه كما قال ابن عطاء الله في حكمه : «اذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب اليك ، وما من نفس تبديه الا وله فيك قدر يمضيه» فنهضنا من حضرتنا العلية فاس المحمية واستقبلنا هذه النواحي البربرية ، ونصر الله وفتحه يتواليان علينافي كل أوان ، ويتجددان ما تجدد الملوان ، ونعم الله لدينا متسابقة وتدبيرات قدرته الجليلة لنا محكمة العقد متناسقة ، فجاوزنا بلاد آيت يوسى مرورا وعبرنا بلاد بني مكيلد عبورا ، ووجدناهم جميعا منقادين للطاعة أتم انقياد ، ملقين لجانبنا العالى بالله الرسن والمقاد ، واقفين مع النهي والامر ، لم يتخلف عنهم في ذلك زيدهم ولا عمرو ، واستقبلنا بجيوش الله المنصورة وجنوده الموفورة قبيلة آيت أزدك الذين هم بيت القصيد وعتبة الوصيد ، فسبقت لهم من الله الهداية وطويت عنهم أعلام الضلالة والغواية ، وتلقونا بأوائل بلادهم

خائفين وجلين ومن سطوة الله فزعين ، فجنحنا للعفو ايثارا له وحرصا على حقن الدماء وعدولا عن القتال نظرا للصبيان والعجائز والشيوخ وضعفاء الحال ، ومعاملة بالصفح لمن كان منهم ضل وغوى أخذا بقول الله تعالى : (وان تعفو أقرب للتقوى) وبعد أن تحققت منهم التوبة وسعوا فى تحصيل مرضات الله وخاطرنا الشريف بما محا عنهم الهفوة والجبوة ، وصير سيئاتهم حسنات وأبعدهم عن المثلات ، فقابلناهم بما أزال دهشتهم وفزعهم وكشف جزعهم ، فانشرحوا وسايروا ركابنا الشريف فى زيهم وجموعهم بسرور ونشاط ، مغتبطين بمقدمنا السعيد أتم اغتباط ، الى أن خيمنا عليهم باوطاط ، فأظهروا من حسن الامتثال والطاعة ما وصلوا به الى الغاية وقاموا بواجب المحلة السعيدة من الضيافات والمبرة وشرعوا على الفور فى دفع ما وظفناه عليهم من الاموال ، متسارعين الى الاداء فى الحال ، منقادين لكل ما أريد منهم من الاعمال ، فنهضنا للتخييم بمركز بلادهم على وادى زيز ، وحادى الميامين يحدو بالفتح المبين والنصر العزيز ، فاستوفينا منهم فيه ما بقى من المفترض ، وحصلنا منهم بعناية الله على غاية الغرض ، ثم ارتحلنا عنهم مصحوبين بكتيبة منهم معتبرة وافرة العدد كثيرة العدد مشتملة على عدد له بال من خيولهم وصناديد رجالهم وحللنا ببلاد آيت مرغاد ، فتلقوا ركابنا الشريف بطاعة وخضوع وانقياد ، مظهرين الاذعان فى كل ما منهم يراد ، وقاموا بأداء الفرائض والنوافل مبتهجين بطلعتنا الشريفة فى سائر المنازل ، وكل ذلك بتيسير الله وتسديده وارشاده وتوفيقه وارادته وتسهيله كما قال صاحب الحكم : «ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك» ، مع سياسة صدقت بها أنباء الكتب وادخرت بها المرهفات فى الحقب، وحقنت الدماء باراقة مداد الاقلام ، وصينت الاعراض وأغنى الكلام السياسى عن الكلام ، ودوخنا بلادهم كلها غورها ونجدها على ما هى عليه من الوعورة وتعاظم الجبال التى يخال أنها تنادم القمر ، وتصافح الكوكب مهما بزغ وظهر ، فسبحان الله ما أعظم شأنه واوضح برهانه ، الى أن حللنا بمركز أرضهم بتادغوست وبها قرار قطب رحاهم فى جاهليتهم المفسد على بن يحيى

المرغادي الذى طالما حذره الانذار ولسان حاله يقول : لا حياة لمن تنادى ، فوقع القبض عليه ووجهناه مصفدا الى مراكش على سنة الله فيمن زلت به القدم ، وصار حليف التأسف والندم، وأراح الله منه العباد وطهر منه البلاد، وفيما قبل ذلك كنا وجهنا من يستوفى من آيت حديدو ما وظف عليهم فى المغارم ، ويأتى من عندهم بما هو لهم لازم ، فلم يظهر منهم ما يفيد ورجع الموجهون بغير طائل ولا عتيد ، فترصدنا من أعيانهم وأهل الحل والعقد منهم جماعة وافرة تقرب من المائتين وقبضنا عليهم بأجمعهم جزاء وفاقا حتى يؤدوا جميع ما فرض عليهم بحول الله ، وتوجهنا والسعادة تقدمنا والميامين تحفنا وصحبة ركابنا الشريف من جيش آيت مرغاد قدر كثير العدد، قوى المدد . مشتمل على ألوف من الخيل والابطال ، وليوث الحرب والنزال ، الى أن وصلنا الى قصر السوق فوجدنا به جيش خدامنا آيت عطة فى انتظار جانبنا الشريف لمصاحبة ركابنا السعيد المنيف ، وهم فى عدد عديد ، وقوة ما عليها من مزيد ، يقربون من الاربعة آلاف فارس وكلهم ليوث عوابس ، ومعهم من رماة اخوانهم عدد كثير معتبر ، كأنهم سيل اذا انحدر ، فنهضوا مع جانبنا العالى بالله فى جموعهم وكثرة عددهم وعددهم الى مدغرة فتبركنا منها بمواطىء الاسلاف وتعاهدنا أمور أهلها بحسن مباشرة واسعاف، وأنعمنا على شرفائها بعشرين ألفا من الريال ، ووجهناها اليهم صحبة ولدنا مولاى عبد العزيز أصلحه الله وفرقت فيهم صلة لهم وأداء لحقوق القرابة والاتصال، وتزودنا من دعائهم الصالح بمقبول مستجاب ، يرجى أن لا يكون بينه وبين الله حجاب ، ونهضنا عنهم الى بلاد عرب الصباح فتلقوا مواكبنا السعيدة فى زيهم بفرح وانشراح ، وقاموا بالواجبات من الميرة والضيافات ، ودفعوا فى الحين جميع المفروضات ، ونهضنا من بلادهم الى تافيلالت بقصد زيارة جدنا الاكبر القطب الواضح ذى السر الاظهر ، مولانا على الشريف رضى الله عنه ونفعنا به ، فخرج أهلها من جميع الشرفاء والعامة للاقاتنا رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا وكهولا أفواجا أفواجا ، جموعا وفرادى وأزواجا ، وحصل لهم ابتهاج عظيم برؤيتنا ، وامتلاوا فرحا وسرورا بمقدمنا ، وانشرحت

هنالك الخواطر وسرت الضمائر ، وأدينا واجبا بصلة رحم من هنالك من ذوى القرابة والرحم ، وكا نذلك عندنا من الامر المهم ، وأنعمنا عليهم بعشرين ألف ريال أخرى كأهل مدغرة وجهناها اليهم مع ولدينا مولاى عبد العزيز ومولاى بلغيث حفظهما الله وقسمت فيهم صلة ، وأقمنا هناك ثمانية عشر يوما بقصد الاستراحة والزيارة ومشاهدة آثار الاسلاف قدسهم الله وما أجلها مآثر وأعظم سناها فى تلك المظاهر ، وعاينا ما لهم من الاملاك والاصول وتفقدناها بما أحيا مواتها كفاحا ، وازدادت به بهجة ونجاحا ، فلله الحمد بداية ونهاية ، وله مزيد الشكر أولا وغاية نساله سبحانه أن يجعل ما ارتكبناه فى ذلك كله خالصا لوجهه ، جاريا على سبيله المستقيم ونهجه ، ويتقبله بأحسن قبول ، ويبلغنا فى صلاح المسلمين غاية المأمول ويجعل فى طاعته الحركة والسكون ، وعلى حوله وقوته الاعتماد والركون ، وقد نهضنا الى حضرتنا الشريفة المراكشية سائلين من الله سبحانه الاعانة والقوة والتيسير وبلوغ الامنية ، وأعلمناكم لتكونوا مستبصرين بما كان ، وتفرحوا بفضل الله وفتحه ونصره فى الاسرار والاعلان ، وهو المسئول سبحانه أن يجعل البداية عنوان الاختتام ، ويبلغنا من كل خير غاية المرام والسلام فى خامس عشر جمادى الاولى عام أحد عشر وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله .

وكان رجوعه الى مراكش على طريق الفائجة ، ولما انتهى الى ثنية الكلاوى أصاب الناس ثلج كثير وبرد شديد تألموا منه حتى السلطان ، ثم خلصوا منه بعد عصب الريق ، وفى مدة غيبة السلطان هذه حدثت حرب شديدة بين زناتة الريف وبين نصارى الاصبنيول من أهل مليلية وما والاها فمحقتهم زناتة محقا وشردوا بهم من خلفهم استئصالا وقتلا ، وكان السبب فى ذلك أنهم اقترحوا على السلطان أن يزيدهم فى مساحة أرض مليلية على عادتهم فى كثرة الاقتراحات والتلونات فأسعفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار الحد المشترك بين الفريقين قريبا من تربة ولى الله سيدى وارياش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر ينتابونه

للزيارة ويتبركون به ويدفنون عنده موتاهم ، فلم يحل لنصارى مليلية بناء العسات وغيرها الا بمحل يشرف على تربة الولى المذكور ويكشف عنها ، فراودهم أهل الريف عن التخلى عن ذلك الموضع والبناء بغيره فأبوا وأصروا على الامتناع وربما لسعوهم بما أحفظهم من الكلام المؤلم على عادتهم فى ذلك فان هذا الاصبنيول منذ كانت له الغلبة فى حرب تطاوين وأهل المغرب معه فى عناء شديد من كثرة ما يتعنت ويتجنى عليهم ويسمعهم من محفظات الكلام وصريح الملام لا سيما أوباشهم ورعاعهم ، وتالله لقد سمعت أذناى من ذلك ما يضيق له الصدر ولا ينطلق به اللسان ، واذا رفعت الشكاية بهم الى أكابرهم غمصوا الحق وجادلوا بالباطل هذا دأبهم وديدنهم والى الله وحده المشتكى وله سبحانه العتبى حتى يرضى ولا حول ولا قوة إلا به ، فلما سلكوا هذا المسلك ونحوه مع أهل الريف أذاقوهم من بأسهم شديد العقاب وأليم العذاب كما هو معلوم ، فلما احتل السلطان أيده الله بحضرة مراكش من هذه السفرة قدم عليه وفد الاصبنيول يطلبون الانصاف من أهل الريف فى هذه النازلة واستصحبوا معهم سربا من الحمام الطيار بالمكاتيب والاخبار ، ودار الكلام بينهم وبين السلطان فى النازلة وحكم فيها من لم يكن ذا بصيرة بمعضلات النوازل من غافل أو متغافل ، فوقع الفصل على أن يدفع السلطان عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الريال ، وتم الصلح على ذلك ، وكانوا فى تلك المدة كلما دار بينهم وبين السلطان كلام فى القضية أطاروا به الحمام الى أرباب دولتهم بمادريد ، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وفى آخر هذه السنة كانت وفاة السلطان مولاى الحسن بن محمد رحمة الله عليه ورضوانه فانه خرج من مراكش فاتح ذى القعدة من السنة المذكورة غازيا قبائل البربر الذين بجبال تازاز لا سيما آيت سخمان الذين اغدروا بأصحابه وابن عمه حسبما تقدم قريبا ، وكان رحمه الله قد قدم من حركة تافيلالت وهو مريض مرضا خفيفا فى الظاهر ولكنه مزمن فى الباطن ، فكان يتكلف معه الخروج للناس وينفذ القضايا ويجلس للوفود ويجيزهم

ويفعل جميع الامور المخزنية ، ثم خرج من مراكش في التاريخ المذكور على ما به من الالم والمرض وتحامل حتى انتهى الى وادى العبيد من أرض تادلا فأدركه أجله هنالك في الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس ثالث ذي الحجة الحرام متم عام أحد عشر وثلاثمائة وألف ، وحمل في تابوت الى رباط الفتح ودفن بازاء جده الاعلى سيدى محمد بن عبد الله رحمة الله على جميعهم آمين .

وكانت مدة خلافته احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وكان رحمه الله من خيار الملوك العلوية وأفاضلهم بما نشر من العدل وأصلح من الرعايا وأبقى من الآثار بالمغرب وثغوره ، فالله تعالى يجبر كسر المسلمين فيه ويعوضهم أجرا عن مصابه آمين .

وبايع أهل العقد والحل نجله الارضى الابر المرتضى مولانا عبد العزيز ابن مولانا الحسن نصره الله نصرا عزيزا وفتح له فتحا مبينا آمين ، وهو الآن على كرسى ملكه بفاس المحروسة كما ينبغي وعلى ما ينبغي وقد تسرب اليه جماعة من نواب الاجناس كعادتهم مع والده من قبله فقدموا عليه حضرة فاس مظهرين أنهم انما قدموا للتهنئة ومرادهم خلاف ذلك (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وما ظنك بمن يزعم أنه قدم للتهنئة وهو مقيم بالحضرة هذه مدة من أربعة أشهر يتجسس الاخبار ويتطلع العورات ويترصد الغفلات ، ويحصي الانفاس لعله يظهر له خلة أو تمكنه فرصة ، نسأل الله تعالى أن يرد كيده في نحره ، ويعديه بعاره وعره آمين . ولعمرى ما الحامل على هذا ونحوه الا قلة الحياء من الله ومن الناس ، والا فما معنى الاقامة في سبيل التهنئة أربعة أشهر ، ثم انظر ما يزاد منها بعد ذلك ، وكان مما يؤثر من كلام النبوة الاولى «اذا لم تستحى فاصنع ما شئت» وحسبنا الله ونعم الوكيل .

واعلم أن أحوال هذا الجيل الذى نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذى قبله غاية التباين وانعكست عوائد الناس فيه غاية الانعكاس ، وانقلبت أطوار أهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم لا في سككهم

ولا فى أسعارهم ولا فى سائـــر نفقاتهم بحيث ضاقت وجـوه الاسباب على الناس وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش حتى لو نظرنا فى حال الجيل الذى قبلنا وحال جيلنا الذى نحن فيه وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمتضادين، والسبب الاعظم فى ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم مـن أهـــل الاربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم فـــى الآفاق الاسلامية ، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته اليها جذبة قوية ؛ وأنا أحكى لك حكاية تعتبر بها وتستدل بها على ما وراءها وهى أنى ذاكرت ذات يوم رجلا مـن أهل جيلنا فى هذا المعنى فقال لى : ان لى راتبا سلطانيا أقبضه فى كل شهر قدره ثلاثون أوقية قال : فكنت فى حدود الستين ومائتين وألف أقبض فيـه عشر بسائط لان صرف البسيطة يومئذ ثلاث أواق ، فلما أخذت السكة فى الارتفاع بعد الستين صرت أقبض فيه تسع بسائط وفلوسا ، ثم بعد ذلـك بسنةأو سنتين صرت أقبض ثمان بسائط وفلوسا ، ثم سبع بسائط وفلوسا وهكذا الى أن صرت اليوم فى أعوام التسعين أقبض فى الثلاثين أوقية بسيطة واحدة وشيئا من الفلوس اه . فانظر الى هذا التفاوت العظيم الذى حصل فى الجيل فى مدة من ثلاثين سنة أو نحوها ؛ فقـــد زادت السكك والاسعار فيها كما ترى نحو تسعة أعشار ، والعلة ماذكرناه ويكثر بكثرة الاختلاط والممازجة مع الفرنج ويقل بقلتها ، والدليل على ذلك أن أهل المغرب أقل الامم اختلاطا بهم فهم أرخص الناس أسعارا وأرفقهم معاشا وأبعدهم زيا وعادة من هؤلاء الفرنج ، وفى ذلك من سلامة دينهم مـــا لا يخفى ، بخـلاف مصر والشام وغيرهما من الامصار فانه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان فليتامل هـذا الذى ذكرناه وليعرف منه سر الله فى خلقه .

واعلم أيضا أن أمر هؤلاء الفرنج فى هذه السنين قد علا علوا منكرا وظهر ظهورا لا كفاء له ، وأسرعت أحواله فـــى التقدم والزيادة اسراعا متضاعفا كتضاعف حبات القمح فى بيوت الشطرنج حتى كـاد يستحيل الى فساد ، وعلم عاقبة ذلك وغايته الى الله تعالى المنفرد بالغيب .

وأعلم علم اليوم والامس قبله ولكننى عـن علم ما فى غد عم

وهذا ما قصدنا جمعه من هذا الكتاب ، والله الملهم للصواب ، (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



تقريظ الطبعة الاولى

لكتاب الاستقصـــا

تقريظ العلامة الاديب السيد
احمد بن المأمون البلغيثى الحسينى

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله عـلى سيدنا ومولانا محمد النبـى الكريم وعلى آله وصحبه ذوى المجد الفخيم .

الحمد لله الذى أنعم علينا بالكمال الانسانى ، وتكـرم الينـا بأحسن التقويم فى النطق اللسانى ، نحمده وله الحمد فى الاولى والآخرة على نعمه التى لا تحصى ، ونشكره على منته التى لا تعد بالاستقصا ونصلى ونسلم على نبيه سيدنا ومولانا محمد أفصح من بالضاد نطق ، المنزل عليـه فـى حكيم الذكر (وكذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق)، وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن قص علينا قصصهم من أئمة الدين صلاة وسلاما ندرك بهما مدارك الكمال، ونبلغ بهما منتهى الآمال أما بعد ، فيقول العبد الفقير الى مولاه الغنى الكبير أحمد بن المأمون الحسنى العلوى البلغيثى السجلماسى أصلا ودارا الفاسـى منشئا وقرارا ، تقبل الله صالح أعماله وبلغه فى الدارين غايـة آمالـه ، لما أن وقفت على هذا التاريخ المفيد وقوف طالب مستفيد ألفيته مرغوب اللبيب ومحبوب الحبيب ، قد جمع فأوعى وبلـغ من الاتقان غايـة المسعى ، حيث احتوى على أخبار الاقطار المغربية واستقصى أهم الاوطار من أنبائها الشهية ، فطابق اسمه مسماه ، ووافق لفظه معناه .

كتاب رأيت الحسن فيـه مفصلا … كمـا نصل الياقوت بالدر ناظمه
فكان لـه نشر يفـوح وبهجة … كما افتر عن زهر الرياض كمائمه

ولعمرى انه لتاريخ تشد اليه الرحـــال ، وتعتكـف بجامعه الازهر جهابذة الرجال ، اذ أغنى وأقنى ، وبلغ الناظر فيه ما تمنى ، يغنى عن غيره من الموضوعات فى فنه بصحة أسانيده المرفوعات على أعلام حسنه تناديك منه سطوره والطروس ، لا تلتفت لغيرى فـلا عطر بعـد عروس ، وكيف لا ومؤلفه العلامة من هو فى غرة هذا العصر علامة الطالـع الاسعد ، والسند الاصعد ، المحقق النقاد ، والمشارك فى جميع الفنون بالذهن الوقاد ، المرتوى من نهر كل فضيلة بما راق وحلا ، أبـــو العباس سيدى أحمـد الناصرى الدرعى شمس ثغر سلا ، أبقى الله بركته وأدام فى اكتساب المعالى حركته، فلله دره من مؤلف ألف بين الكمالات ، وشنف السمع بأصح المقالات ، فى هذا التاريخ الذى أرخت فى صحائف الكمال آياته ، وخلدت فى دفاتر المجد فضائله وكراماته ، وقد زاده رونق الطبع نورا على نور، وأفاده اجتلاء على منابر الظهور ، فقرب نوره لمقتبسه ، وسهل ملكه لملتمسه ، ولما ملـك حسنه خاطرى وفؤادى ، وسلك بى منهـــج قصدى ومرادى ، وصرت بـه أنشط من ظبى مقمر ، وأسلط عليه من ذئب متنمر ، تشوفت لانشاء امتداحه وتشوقت لاملاء امداحه ، بمالا أعـده فى شىء مـن طبقات الفصـاحة عنـد فرسان هذا الميدان ، ولكن عذرى عند الواقف عليه أنـه لقطة عجلان ما له فى الادب يدان ، فقلت فى ذلك مؤرخا تمـام طبعه فى بداعـة صنعـه ورقة طبعه بقول وسيط من بحر البسيط .

أخبار أهل الهوى مازال يرويها	أحبار كأس رحيق الراح يرويها
حتى اذا سمعوا العشاق مخبرها	هاموا وقامـوا بألحـان تواتيهـا
لكنهم أبدا فى الدهر ما سمعوا	ما نالنى فى هوى خود أفديهـا
خود بها الصب قد لذ العذاب له	لما غدا وهو مطـروح بناديهـا
يرجو رضاها ولم تسمح بوصلته	وبالتذلل والشكـوى يناديها
قد استرقته فى شرع الغرام وما	رقت لما بـه مـن نـار يقاسيها
حتى استبان لهـا انى على تلف	وأن مابى منهـا ليس تمويهـا
جـاءت الى عـلى فـور تعللنـى	بالعطف من طلعة سبحان باريها

فأتحفتني بحنف الرمز من مقل ... السيف حاجبها والحسن كاسيها
ان أومأت بلحاظ جرحت كبدى ... أو أعرضت بلغت روحى تراقيها
ماحيلتى فى الهوى وما دواكبدى ... العطف يجرحها والهجر يبليها
انى خلعت عذارى فاعذرونى فى ... حب الملاح فان القلب يبغيها
فهل ملام على من صار ذا وله ... بغاة سلبت عقلى معانيها
اذا بدت لاولى الالباب شمتهم ... صرعى وطرحى جميعا فى مغانيها
ياحسن ما حدثتنى عند ما عطفت ... فى شأن من ببعادى كان يغريها
قالت لك الوصل منى ليس يعقبه ... هجر على رغم من يبغى لك التيها
تخال نعلق لماها عند ما نطقت ... أخبار تاريخ الاستقصاء تمليها
ذاك الكتاب الذى فاقت صناعته ... كل التواريخ بالاتقان عاديها
لله ما قد حوى من كل واقعة ... يلهيك عن نغمة الالحان راويها
ومن محاسن أحوال تتوق لها الا ... سماع من كل ذى لب يدانيها
ومن نوادر قد كانت لذى أدب ... تود اذن العلا ان لو تحليها
أغنى وأفنى بأخبار مصححة ... قد كان فى المغرب الاقصى دواعيها
كم من فوائد قد كانت أوابد لم ... تظفر بها به يستدعيك قاصيها
ما شئت من أدب غض ومن ملح ... تشتاقها همم ترحو توافيها
فاعكف عليه ونزه فى بدائعه ... أبصار فكرك تستجنى أمانيها
فانه روضة أشجارها قصص ... أزهارها حكم ان رمت تجنيها
أنهارها من معين ما به كدر ... من كل معنى غدا للنفس شافيها
بل جنة جمعت آمال أنفسنا ... وتستلذ بها أبصار رائيها
لاغرو حيث غدا مفتاح بهجتها ... من فيه يرسل أعط القوس باريها
ذاك الاديب الاريب العالم العلم ا ... لهمام غايته من ذا يجاريها
الناصرى أبو العباس أحمد من ... نال العلا واعتلى أعلى أعاليها
نقاد كل فنون العلم ليس له ... بغيرها شغل دأبا يواليها
فكم أجاد وكم أسدى فوائدها ... فى كل قطر من الاقطار يوليها
أنسى ایاسا بأفكار له وقدت ... ترى شموس الهدى كشفا لباغيها

فهذه قبسة من نور علمه قد ... مدت اليها أقاصى الارض أيديها
نالت أشعتها الايدى على بعد ... كالشمس مع رفعها يبدو تدانيها
تريك سيرة قطر الغرب كيف مضت ... رأى الحقيقة فى أفكار قاريها
ان التواريخ فى أخباره كثرت ... لكن ذا قد حوى أصح ما فيها
بل زاد أنباء قوم لم تكن جمعت ... مما جرى عن قريب فيه تلغيها
مع ما حوى من علوم من مؤلفة ... بدت معالمها هديا لآتيها
أعظم بها منحة قد عم نائلها ... وطاف فى شاسع الاقطار ساقيها
فرقة الطبع قد نمت بها وسرت ... لطبع آياتها كيما تجليها
فعاد منها محياها كما قمر ... يهدى الضليل بها ان جا يماشيها
كمال طبع حلاها جاء وفق منى ... فالحمد لله كم نعماء يسديها
مع منتهى أرب قل كى تؤرخه ... معالم الطبع بالبشرى تناهيها

١٨١ ١١٢ ٥٤٥ ٤٧٢

سنة ١٣١٢

هذا التاريخ يعرف من بين أنواعه بالمذيل وحقيقته أن تكون جمله التاريخ ناقصة فتكمل بحرف أو أكثر مع التنبيه على ذلك باشارة تتضمن تورية وبيان ذلك هنا أن جامع عدد قولى : « معالم الطبع بالبشرى تناهيها » هو عشرة وثلاثمائة وألف فتوقف العدد المؤرخ به على اثنين . أشرت لها بقولى : «مع منتهى أرب» ومنتهى أرب هو الباء التى باثنين فاستوفى عدد التاريخ ، هذا وليعلم من يقف عليه من أدباء أهل المغرب ، أنى حسبت حرف الشين من قولى بالبشرى بثلاثمائة على اصطلاح المشارقة فيها لا بألف كما هو اصطلاحنا ، وهى أحد الحروف الستة التى اختلف فيها اصطلاح الفريقين وقد تمذهبت بمذهبهم فى هذا التاريخ مراعاة لمحل الطبع ، كما يستحسن ذلك منى سالم القريحة والطبع ، والله الهادى الى سواء السبيل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

تقريظ الاديب السيد ابراهيم الازهرى

حمدا لمن اضاء عقول الخلف بأنوار تواريخ السلف، وصلاة وسلاما على من قص عليه احسن القصص فى كتابه المكنون ، وأخبره بسرائر ما كان وما يكون ، وعلى آله وأصحابه الذين أشرقت صحائف التاريخ با ياتهم الباهية الباهرة ، وتزينت المحافل بمحاسن احسانهم الزاهية الزاهرة أما بعد ، فان علم التاريخ كنز يجب التحلى بنفائس فرائده ، وروض لا غنيـة لاحد عن مجانى فوائده ، وكم للعلماء فيه من تصانيف مهمة عادت بالمنافع الجمة على كل أمة ، فلم ترتق أمة الى عرش تمدنها الا بتبحرها فى هذا الفن وتفننها ، وان أجل ما ألف فيه كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، فهـو أول كتاب كشف الغطاء عن هذه الممالك ، وقرب لمن يهمه الوقوف على حقيقة أخبارها جميع المسالك ، وأبان عن أول من دخلها من الصحابة رضى الله عنهم لرفع اعلام الاسلام ، وما هى عليه من المعارف التى لم تطو سجلات نشرها تعاقب الايام لاسيما بلاد الاندلس وما لها من الحضارة والابهة والنضارة ، وما لبلاد الجزائر من كل أثر جليل يشهد برفعة قدرها جيلا بعد جيل مع تحرير التراجم للملوك والاعاظم ، وما دهم هذه البلاد من الوقائع الحربية التى أثارت غبارها يد الدسائس الاجنبية ، وما ثبت لهذه الدول من الاختراعات والاستكشافات ، وما بينها وبين الدول الاخرى من المواصلات والمعاهدات ، كل ذلك بعبارات صادقة ومحررات شائقة

حديث المغرب الاقصى	قد استقصاه الاستقصا
كتاب جل مبدعه	على نسق به اختصا
بدا والناس فى شغف	ليقتنص النهى قنصا
فتاهوا فى محاسنه	فارشدهم بما أوصى
فيالله ما أعلى	وما أغلى وما أحصى
فكيه فى فكاهته	صدوق القول ان قصا
عليه فكن أشد النا	س فى استقصائه حرصا

تجد غررا حوت دررا   عليهـــا تكـــثر الغــوصا

وكيف لا ومؤلفه انسان عين الادب ، وترجمان لسان العرب ، جوهر بحور المعارف وسويداء صدور العوارف ، مـن أجمعت الفضائل على التباهى سيرته ، وتسابقت المحامد الى الاقتباس مـــن مشكاة سريرته ، ألفته الحكمة فسامرها وما سلا ، علامة المشرق والمغرب فضلا عن كونه تـاج مجد سلا ، بحر العلم الخضم الراوى ، شهاب الدين أحمد بن خالد الناصرى السلاوى، ولاجل أن يعم النفع الجزيل بهذا الاثر الجليل ، قام حضرة مؤلفه بطبعه فى احدى مطابع القطر المصرى ، حتى أشرق بدر كماله عـلى الكوكب الدرى بمشاركة كل من صاحب الحسب العـاطر ، والنسب الطاهر ، صاحب الشرف والمجد السنى السيد الحبيب البلغيثى الحسنى ، وحضرة من هو لكـــل كمال مصطفى جناب محمد أفندى مصطفى فهؤلاء السادة هـــم السبب فى تعميـم نفعه ، وتعطير الآفاق بعبير طبعه بمطبعة حضرة الافندى الشهيرة باتقـــان الصناعة وكمال رونق الطباعة جزاهم الله بمنه وفضله أكمل جزاء عن العلم وأهله وكان انتهاء طبعه الانيق واستكمال حسنه الرقيق فـــى أواخر شهر رمضان المعظم سنة اثنتى عشرة بعد الالــف والثلاثمائة مـن هجـرته صـلى الله عليه وسلم .

■

تم الجزء التاسع والاخير من من كتاب الاستقصا

الذى قامت بنشره

شركة دار الكتاب للطبع والنشر والتوزيع

بالدار البيضاء المغرب الاقصى

فهرس الموضوعات

	صحيفة
الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام وأوليته ونشأته .	٣
بيعة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله	٤
اجتماع البربر على بيعة السلطان المولى عبد الرحمن ابن هشام والسبب فى ذلك .	٦
نهوض السلطان المولى عبد الرحمن لتفقد أحوال الرعية ووصوله الى رباط الفتح .	٧
خروج السلطان المولى عبد الرحمن الى مكناسة ونقله آيت يمور الى الحوز ومسيره الى مراكش .	٩
نكبة ابن الغازى الزمورى وما آل اليه أمره .	١١
ولاية الشريف سيدى محمد بن الطيب على تامسنا ودكالة وأعمالها .	١٢
شروع السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله فى غرس أجدال بحضرة مراكش .	١٣
ولاية القائد أبى العلاء ادريس بن حمان الجرارى على وجدة وأعمالها .	١٥
فتح زاوية الشرادى والسبب الداعى الى غزوها .	١٧
هجوم جنس النابريال على ثغر العرائش والسبب فى ذلك	٢٤
استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وماترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان فى بيعة السلطان المولى عبد الرحمن	٢٦
خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن والسبب فى ذلك .	٣٢

ظهور الحاج عبد القادر بـــن محيى الديـــن المختار
بالمغرب الاوسط وبعض أخباره . ٤١
انتقاض الهدنة مـــع الفرنسيس وتمحيص المسلمين
بايسلى قرب وجدة والسبب في ذلك . ٤٩
بقية أخبار الحـــاج عبد القادر وانقراض أمـره وما
آل اليه حاله . ٥٦
ثورة ابراهيم يسمور اليزدكى بالصحراء . ٦٧
بعث السلطان المولى عبـــد الرحمن أولاده الى الحجاز
وما اتفق لهم في ذلك . ٧١
وفاة أمير المؤمنين المـــولى عبد الرحمن بـــن هشام
رحمه الله . ٧٦
بقية أخبار أمير المؤمنين المـــولى عبد الرحمن وسيرته
ومآثره . ٧٨
الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدى محمد بـــن عبد
الرحمن رحمه الله . ٨٠
انتقاض الصلح مـع الاصبنيول واستيلاؤه على تطاوين
ورجوعه عنها والسبب في ذلك . ٨٤
القول في اتخاذ الجيش وترتيبه وبعض آدابه . ١٠٣
ثورة الجيلانى الروكى ومقتله . ١٠٨
ايقاع السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله
بعرب الرحامنة . ١١٠
وفاة أمير المؤمنين سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله ١٢٤
بقية أخبار السلطان سيدى محمد بـــن عبد الرحمن
رحمه الله ومآثره وسيرته . ١٢٥
الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المؤمنين المولى حسن
ابن محمد بن عبد الرحمن خلد الله ملكه . ١٢٨

فهرس الاعلام والقبائل

حرف الالف

آزطوط ـ ٥٣
آل مهاوش ـ ٢٠٠
آل هاشم ـ ٨٢
آيت ادراسن ـ ٧ ـ ١٨
آيت باعمران ـ ٢١ ـ ١٧٦
آيت حديدو ـ ٢٠٠ ـ ٢٠٤
آيت حلى ـ ١٦٩
آيت سخمان ـ ١٩٩ ـ ٢٠٠ ـ ٢٠١ ـ ٢٠٦
آيت شغروشن ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٦٩
آيت عطة ـ ٦٧
آيت عياش ـ ١٣٤ ـ ١٦٩
آيت مرغاد ـ ٢٠٠
آيت والان ـ ١٦٩
آيت ومالو ـ ١٩٩
آيت يزدق ـ ١٦٩
آيت يسرى ـ ١٩٩
آيت يفلمان ـ ٦٧
آيت يمور ـ ١٠ ـ ٨٨
آيت يوسى ـ ١٣٥ ـ ١٦٩
ابراهيم بن احمد الاكحل ـ ٥٦
ابراهيم بن عبد الرحمن ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٥
ابراهيم بن يزيد ـ ٦ ـ ١١
ابراهيم يسمور اليزدكى ـ ٦٧
ابنا يزيد ـ ٣ ـ ٦
ابن الحفيان ـ ٦٣
ابن خلدون ـ ٨٧ ـ ١٤٧ ـ ١٩٥
ابن الزبير ـ ١٨٨
ابن العسال ـ ٥٠
ابن عطاء الله ـ ٢٠٢
ابن الغازى الزمورى ـ ٧
ابو اسحاق ابراهيم بن سعيد الجراوى ـ ٨١ ـ ١٤٦
ابو اسحاق ابراهيم بن عبد القادر الرياحى ـ ٥
ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الجريرى ـ ١٦٥
ابو اسحاق ابراهيم الوراوى ـ ١٠
ابو البقاء خالد بن حماد الناصرى ـ ١٥٨
ابو بكر رضى الله عنه ـ ٧٤ ـ ١١١
ابو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن

عبد الله ـ ٧١ ـ ٧٢
ابو بكر بن محمد عـواد ـ ١٢٠ ـ
١٥٢ ـ ١٦٥
أبو بريح ـ ٩
ابو بكر بن مهاوش ـ ٦
ابو تمام ـ ٦١
ابو جندل ـ ١٨٧
ابو جمعة بن سالم ـ ٧
ابو الحسن بن غالب ـ ٧٤
ابـو الحسن عـلى بـن عبـد السلام
مديدش التسولى ـ ٤٦ ـ ٤٧
ابو الحسن على بن محمد عواد ـ ١٦٦
ابو الحسن على بن الجناوى ـ ٥٠
ابو حفص المتوكى ـ ١٤٨
ابو الربيع سليمان بن محمد ـ ٣ ـ
٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٨ ـ ١٠ ـ ١١ ـ
١٤ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٢٠ ـ ٢٤ ـ ٣٢
ـ ٧٤ ـ ٧٨ ـ ٩٧
ابو زيان بن التناوى الاحلافى ـ ١٦
ابو زيد عبـد الرحمن بـن التهامـى
البريبرى ـ ١٦٠
ابو زيد عبد الرحمن الزرارى ـ ١٤٥
ـ ١٤٦
ابو سلهام ـ ١٠٨
ابو الطيب المتنبى ـ ١٢٢ ـ ١٨٩
ابو العباس احمد بن زيـدوح ـ ٦٥
ابو العبـاس أحمد بن عـاشر ـ ٣٨
ـ ٤٦ ـ ٧٩ ـ ٨٣ ـ ١٢٠
ابو العباس احمد بن عمـر بـن أبى
ستة ـ ٨٠ ـ ١٢٩
ابـو العباس احمد بـن محمد ابـن
شقرون المراكشي ـ ١٣٦ ـ ١٣٨
ابو العباس احمد بن المكى السدراتي
ـ ٤٦
ابو العباس السبتى ـ ٧٩
ابو عبد الله آكنسوس ـ ٨ ـ ١١ ـ
ـ ١٥ ـ ٢١ ـ ٥٥ ـ ٦٠ ـ ٦٨ ـ
٧٤ ـ ٧٩ ـ ٨١ ـ ١١٨ ـ ١٢٥ ـ
١٢٨ ـ ١٦١
ابو عبد الله بن المرابط المراكشي ـ ٢٠
ابو عبد الله الحـاج العربى بن عـلى
الوزانى ـ ٦٢
ابو عبد الله الحاج محمد بن الحـاج
الطاهر الزبدى ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ١٥١
ابو عبـد الله حبيب بـن هاشم ابـن
جلون ـ ١١٥ ـ ١١٦ ـ
ابو عبد الله الدرقـاوى ـ ٦ ـ ٧ ـ
٩ ـ ١١
ابو عبـد الله البوحيمدى ٤٢ ـ ٥٥
٥٦ .
أبو عبد الله عبد القادر العلمى ٦١
ابو عبد الله العربى الجامعى ـ ٦٠ ـ

- ٧٦ - ٨٣ - ١٦٥
ابو عبد الله غريط - ٧٦
ابو عبد الله محمد الباعمراني - ٢١
أبو عبد الله محمد بن ابراهيم ٤ - ١٤٧
أبو عبد الله محمد بن ادريس ٤ - - ١٤ - ١٦ - ٢٠ - ٢٩ - ٣٠ - ٣٨ - ٤٥ - ٤٧ ٥٠ - ٦٠ - ٦٨
ابو عبد الله محمد بن ادريس الجراري - ٩٩ - ١٢٧ - ١٤٩ - ١٥٠
ابو عبد الله محمد بن ادريس الجراري - ٩٩ - ١٢٧ - ١٤٩ - ١٥٠
ابو عبد الله محمد بن حسون - عواد - ٦١
أبو عبد الله محمد بن زروال الرحماني - ١٤٨
ابو عبد الله محمد بن سعيد السلاوي - ١١٦ - ١١٧
أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفيلالي ٧٦
أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبة ١١٢
أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرقي ١١٦ - ١١٧
أبو عبد الله محمد بن علي الحاحي ٤٥
أبو عبد الله محمد بن المدني كنون ١٧٨
أبو عبد الله محمد بن مرزوق ١٧
أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات السلاوي ١٣٩ - ١٥٤
أبو عبد الله محمد بن يشو المالكي ١٠
أبو عبد الله محمد الحراق التطاوني ٧٠
أبو عبد الله محمد الخطيب التطاوني ٧٤ - ٨٤ - ٨٥ - ٩٧
أبو عبد الله محمد الصفار ٦٠ - ٦٦ - ٧٦ - ٨٠ - ١٣٧
أبو عبد الله محمد الطيب البياز الفاسي ١١
أبو عبد الله محمد الطيب التطاوني ٧١
أبو عبد الله محمد الطيب الدرقاوي ١٢٢
أبو عبد الله محمد الطيب اليماني بوعشرين ١٢٢
أبو عبد الله محمد عبد الهادي زنيبر التطاوني ٦٢ - ٦٣
أبو عبد الله محمد ملاح السلاوي ١٩ - ٢٠
أبو عبد الله محمد الهاشمي ٤٦
أبو عبد الله محمد الكتاني ١٤٦ ١٤٧ - ١٤٩
أبو عبد الله محمد الهاشمي الطالبي ٤٦ - ١٧٨
أبو عزة الهبري ١٤٢ ١٤٣

أبو العلاء ادريس الجعيدى السلاوى ١٥١ - ١٧٠
أبو على الحسن بن تيمكيلشت ١٤٩
أبو عمران موسى بن أحمد ١٦٥
أبو عنان ٥٨
أبو محمد صالح ١٩
أبو محمد عبد السلام بن عبد الكريم الحارثى ١٠٠
أبو محمد عبد السلام بن محمد السوسى ١٦٤
أبو محمد عبد السلام البوعنانى ٣١
أبو محمد عبد السلام شقشاق الفاسى ٨
أبو محمد عبد الله بن حسون ٨٣
أبو محمد عبد الله بن عبد الملك بن بيهى الحاحى ١١٩
أبو محمد عبد الله بن الهاشمى بن خضراء ١٥٢ - ١٦٦ - ١٦٩ - ١٧١ ١٧٢
أبو محمد عبد الله الديمانى ٢٣
أبو محمد عبدالله فنيش السلاوى ٧٦
أبو محمد العربى بن محمد الشرقى ١٦٩
أبو محمد الغزوانى ١٢٢
أتراك الجزائر ٢٦ - ٤٩
أجناس الفرنج ١٧٤ - ١٨٢ - ١٩٠ - ٢٠١
أحمد باشا ٢٧
أحمد بن خالد الناصرى ٤٤ - ١٩٩
أحمد بن داود ١٢٣
أحمد بن الطالب ابن سودة ٧١
أحمد بن عبد الرحمن- ٥٧- ٨٩- ٩٠
أحمد بن عبد القادر التستاوتى ٦١
أحمد بن عبد الملك ٤
أحمد بن مالك ١٤٦ - ١٤٧ - ١٦٠
أحمد بن المحجوب البخارى ٣٣- ٣٤
أحمد بن المؤذن ١٢٩
ادريس الاكبر ١٠٩ - ١٣٥
ادريس بن حمان الجرارى ١٥ - ١٦ - ٢٧ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨
ادريس بن عبد الرحمن السراج - ١٣٧ - ١٣٩
ادريس الوديى ٣٤
اردنيل ٨٦ - ٩١ - ٩٤ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠
أرسطاليس ٦٨ - ١٩٦
أسكندر ١٩٦
اسمعيل بن محمد ١٣٤
الاشراف الادارسة ١٠٩
الاصبنيول ٨٥ - ٩٧ - ١٠٠ - ١٦٤ - ١٧٧ - ١٧٨ - ٢٠٦

الاعراب ٧٥ – ٨٨ – ٩٠
أعرا ب بالبادية ١١٨
الياس عليه السلام ١٥٧
الامام العثمانى ٢٧ – ٢٨
الامام المهدى ١١٥
أم سلمى ١٩٤
أمير الجزائر ٢٧
أمير المسلمين ١٠٠
أمير النصارى ١٠٠
الامين بن عبد الرحمن ١٦١
أنس رضى الله عنه ١٩٧
أهل آزمور ١٣٣
أهل الامصار ٤
أهل البادية ٨٧ – ١٠٥
أهل تازا ١٤٣ – ١٥٨
أهل تامسنا ١٢
أهل تطاوين ٨٦ – ٨٨ ٨٩ – ٩٠ – ٩٣ – ٩٨ – ٢٠١
أهل تلمسان ٢٧ – ٢٩ – ٣٠ – ٤١ – ٤٢ – ٤٩
أهل الجبل ٩٠
أهل الجزائر ٢٧
أهل الجزائر وتلمسان ٩١
أهل الحجاز ١٨٨
أهل الحوز ٨١
أهل الديوان ٤
أهل رباط الفتح ٥٤
أهل الريف ٢٠٦
أهل زرهون ١٠ – ٨٨
أهل سبتة النصارى ٨٤
أهل سلا ٦٤
أهل سلا ورباط الفتح ٣٠
أهل السوس ١٨ – ٣٤ – ٣٩ – ٤٠
أهل السوس الاقصى ١٨٢
أهل الشام – ١٨٨
أهل الشرق – ٥
أهل الشقة – ١٤٣
أهل العدوتين – ٢٥ – ١٣٣ – ١٤٢ – ١٤٧ – ١٤٨
أهل العرائش – ٢٥
أهل الغرب – ١٠
أهل غريس – ٣١
أهل فاس – ٥ – ٢٧ – ٥٦ – ٨٨ – ٨٩ – ١٢٩ – ١٣٤ – ١٣٨ – ١٤٢
أهل السلانجرة – المسلمون ٨٤ – ٨٥ – ٨٦
أهل المداشر – ٩٤ – ٩٨
أهل مراكش ٧٦ – ٨٠ – ٨١ – ١١٠ – ١٢٣ – ١٤٨
أهل معسكر – ٣١
أهل المغارب – ٥
أهل المغرب الاوسط – ٥١

أهل المغرب – ٤ – ٨ – ١٣ – ٥٠ –
٨٥ – ٨٧ – ١٤٧ – ١٦٦ – ١٩٠ –
٢٠٦ – ٢٠٨
أهل وجدة – ١٤٥
أولاد حريز – ١٢
أولاد الشيخ – ٦
أولاد نصير – ١٦٨
أولاد أبى السباع – ١٤٨
أولاد يحيى بنى حسن – ١٣٥
اياس – ١٥٤
ابسابيلا الثانية ٨٦

حرف الباء

باشدور الاصبنيول – ١٦٢
باشدور البرتقال – ١٦٢
باشدور الفرنسيس – ١٦٢
باشدور النجليز – ٨٤
البرابرة – ١٣٥
برابرة الجبال – ١٦٢
برابرة الصحراء ٦٧
برابرة فازاز – ١٩٩
البربر – ٦ – ٧ – ١٥ – ٨٠ – ٨٣
– ٨٧ – ١٣٤ – ١٦٨ – ١٩٩
بريم – ٨٦ – ٩٠
بشار بن برد الاعمى – ١٧٩
بلغيث بن الحسن – ٢٠٥
بناصر الحاج أحمد غنام – ١٥١
بنو آمغار – تيط – ١٤٩
بنو أبى قيطون – ١٤٣
بنو أمية – ١٥٥
بنو حسن – ٦ – ٣٧ – ١٦١
بنو زمور – ١٢٣
بنو سادان – ١٤٣
بنو شقران – ٣١
بنو عامر – ٤١ – ٤٢ – ٥٦ –
بنو العباس – ١٥٥
بنو عمير – ١٢٣ – ١٦٤
بنو على – ١٥٤
بنو كلان – ١٤٣
بنو مالك – ١٨ – ٧٠
بنو مطير – ١٣٥ – ١٣٦ – ١٦٢ –
١٦٨ – ١٦٩
بنو مكيلد – ١٣٤ – ١٣٥ – ١٣٦ –
١٦٨ – ١٦٩ – ١٩٩
بنو موسى ٦٥ – ١٢٣ – ١٦٤ –
١٦٨
بنو يزناسن – ١٦ – ٤٩ – ٥٠ – ٥٢
– ١٤٤ – ١٤٦ – ١٥٨ – ١٥٩
بنو ورain – ١٤٣
البوصيرى – ١٩٨

حرف التاء

تامسنا ــ ٣٦ ــ ١٦١
تحليت ــ ٣١
الترك ١٥ ــ ٢٦
تكنة ــ ١٧٦
النوازيط ــ ٦

حرف الجيم

جبير بن مطعم ــ ١٠٣
جروان ــ ٧
جساس ــ ١٥٣
جعفر بن عبد الرحمن ــ ٧١ ــ ٧٢ ــ ٧٥
جنس الاصنيول ــ ٨٤ ــ ٨٥ ــ ١٤٧
جنس الدينمرك ــ ٥٣
جنس السويد ــ ٣٥
جنس الصاردو ــ ١٢
جنس الفرنسيس ــ ٤٩
جنس النابريال ــ ٢٤ ــ ٢٥ ــ ٢٦
الجيانى بن حمو البخارى ــ ١٣٩
جيش آيت عطة ــ ٢٠٤
جيش آيت مرغاد ٢٠٤
الجيش البخارى ــ ٨٠
جيش تلمسان ــ ٣٣
جيش السلطان ــ ٣٢ ــ ٤١ ــ ٤٩ ــ ٥٠ ــ ٢٠٠
الجيش السوسى ٨١ ــ ١٢٧ ١٣٤ ــ ١٦٠
جيش العبيد ــ ١٨
جيش المسلمين ــ ٨٩ ــ ٩٩
جيش المغرب ــ ٩٧
جيش النجليز ــ ١٧٩
جيش الودايا ٣٢ ــ ٣٧ ــ ٤٠
الجيلانى الروكى ــ ١٠٨ ــ ٨٠٩

حرف الحاء

الحاج احمد آبعير ــ ٩١ ــ ٩٢ ــ ٩٧
الحاج احمد بن محمد بن الهاشمى ــ عواد ــ ٤٧
الحاج الحبيب ولد المهدى المعسكرى ٤٣
الحاجة زبيدة ــ ٤٠
الحاج الطالب ابن جلون الفاسى ــ ٣٧ ــ ٤٤
الحاج الطالب ابن سودة ــ ٤
الحاج عبد الرحمن باركاش ــ ٢٥
الحاج عبد الرحمن بريطل ــ ٢٥
الحاج عبد السلام بن العربى الوزانى ــ ٨٤ ــ ٨٥
الحاج عبد القادر بن محيى الدين ٤٢ ــ ٤٣ ــ ٤٤ ٤٥ ــ ٤٦ ــ ٤٩ ــ ٥٠ ــ ٥١ ــ ٥٣ ــ ٥٦ ــ ٥٧ ــ ٥٨ ــ ٥٩ ــ ٩٧
الحاج عبد الكريم بريشة ــ ١٦٤
الحاج عبد الكريم الرزينى ــ ٤٢ ــ ٤٣ ــ ٧١

الحاج عبد الله بن قاسم حصار السلاوى – ١٥٠
الحاج العربى بن على الوزانى – ٣١ – ٣٢
الحاج محمد بن البشير بن مسعود – ١٤٤ – ١٤٥ – ١٤٦ – ١٥٨ – ١٥٩
الحاج محمد بن الحاج محمد السوسى – ٥٤
الحاج محمد بن سعيد السلاوى ١٧٩
الحاج محمد بن الطاهر الزبدى – ٨٥
الحاج محمد بن الطاهر المغفرى العقيلى – ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ – ٣٧ – ٣٨ – ٤٠ – ٤١
الحاج محمد بن عبد الرزاق ابن شقرون – ١٦٤
الحاج محمد بن الغازى الزمورى – ٦ – ١١
الحاج محمد بن فرحون الجرارى – ٣٢ – ٣٤ – ٣٨ – ٤١
الحاج محمد جنان البارودى التلمسانى – ٧١ – ٧٣
الحاج محمد الرزينى التطاونى – ٧١ – ٧٣ – ٧٤
الحاج محمد بن العربى القباج – ١٢١
الحاج محمد العربى الدلائى – ١٢١
الحاج محمد المدنى بنيس – ١٢٩ – ١٣١ – ١٣٦ – ١٣٨
الحاج المكى السدراتى السلاوى – ٤٦
الحاجمنو الحاحى ١٤٤
الحرث بن عوف – ١٨٧
الحسن أبو ريالة – ٨٩
الحسن بن حمو واعزيز – ٧ – ٣٤
الحسن بن محمد – ٢١ – ١١٨ – ١٢٣ – ١٢٨ – ١٢٩ – ١٣٠ – ١٣٣ – ١٣٥ – ١٥٠ – ١٥٤ – ١٨٠ – ١٩١ – ١٩٢ – ١٩٩ – ٢٠١ – ٢٠٦
الحسن الصغير – ١٦١
الحشم – ٣١ – ٤١ – ٤٢ – ٥٦
الحصين بن نمير – ١٨٨
حميان – ٣١

حرف الخاء

الخليل عليه السلام – ١٥٧

حرف الدال

الدباغون – فاس – ١٢٩ – ١٣٧ – ١٣٨
دكالة – ١٢ – ١٨ – ٣٦ – ٨٨
الدوائر – ٣٠ – ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ – ٤٤
دول الاجناس – ٢٦
دول الافرنج – ١٥١
دول البروس – ١٢٢
دواة البلجيك – ١٥١
دولة السلطان سليمان بن محمد ٢٠٠

الدولة الشريفة ٤٩ ـ ٥٣ ـ ١٣٠
دولة الطليان ١٥١
الدولة العثمانية ٢٧
الدولة العلوية ٢٦
دولة فرنسا ١١٦ ـ ١٢٢ ـ ١٥١
الدولة المرينية ٧٩
دولة النجليز ١١٣ ـ ١٥١ ـ ١٩١

حرف « الراء »

الرحـــامنة ٨١ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ ١٢٦ ـ ١٤٨
الرشيد بـــن عبـد الرحمن ٦٠ ـ ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١
روشابيل ١١٣

حرف « الزاى »

زرارة ٢٣
زعير ٦
الزمالـة ٣٠ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٤٣ ـ
زمور الشلـح ٧٦ ـ ٧٧ ـ ١٥٧ ـ ١٦٢
زناتة ٢٠٥

حرف « السين »

سجلماسة ٨
السراغنة ١٢٦
سرور بن ادريس بن سليمان ٢٠٠ ـ ٢٠١
سعد بن عبادة ١٨٧
سعد بن معاذ ١٨٧
سعيد بن احمد الشغروسنى ١٤٢
سفيان ١٨
سليمان بن عبد الرحمن ٦٠

حرف « الشين »

الشاوية ١٠ ـ ١٨
الشبانة ٢٢
الشراردة ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٥٢ ـ ٥٦ ـ ٩٧ ـ ١٠٩
شراقـــة ١٣٤
شقيرين ١٩٩ ـ ٢٠٠
الشياظمة ١٨ ـ ٥٣
الشيخ محيى الدين بن عبد القادر ٤١

حرف « الصاد »

الصفافعة ٦
صنهاجة ١٩٩

حرف « الطاء »

طاغية الفرنسيس ٢٧ ـ ١١٦
الطاهر بـن مسعود المغفرى الحسانى ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٠ ـ ٤١
الطيب بن اليمانى بوعشرين ٥١

الطيب الودينى البخارى ٣٣ ـ ٥٥

حرف « الظـاء »

ظيان ٦ ـ ١٠ ـ ١٩٩

حرف « العـين »

العباس ١٥٤
العباس بن عبد الرحمن ٨٠ ـ ٨٦ ـ ٨٩ ـ ٩٥ ـ ٩٧ ـ ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠
العباس بن مرداس ١٨٩
عبدة ٨٨
عبد الرحمن بـن هشام ٣ ـ ٤ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٧ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٧ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٤٢ ـ ٤٤ ـ ٤٧ ـ ٤٩ ـ ٥٣ ـ ٥٣ ـ ٧١ ـ ٧٦ ـ ٧٨ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٩٧ ـ ١٤٩ ـ ١٥٠
عبد الرحمن بن سليمان بن محمد ٨٣
عبد السلام بن سليمان ٨
عبد السلام بن مشيش ٢٠١
عبد العزيز بن الحسن ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٧
عبد العزيز العثمانى ١٢٢
عبد العزيز محبوبة ٧٠
عبد القادر بن احمد المحروقى ١٣٥
عبد القادر بن عبد الرحمن ٦١
عبد الكبير بـن عبـد الرحمن بن سليمان ١٣٤
عبد الكريم بن عبد السلام بن عودة الحارثى ١٠٨
عبد الله بن بلعيد ١٤٨
عبد الله بن عبد الرحمن ٧١ ـ ٧٢
عبد الملك الضرير ١٣٦
عبد الواحد بن سليمان ٨
العبيد ٩ ـ ٢٩ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ
عبيد البخارى ٩ ـ ٨٣
العبيد السود ١٠٥
عبيد مكناسة ٣٥
عثمان رضى الله عنه ١١١
عثمان بن محمد ١٦١
العجم ١٠٦
العرب ٦ ـ ١٥ ـ ٣٢ ـ ٤٥ ـ ٥١ ـ ٨٧ ـ ١٤٦ ـ ١٦١ ـ ١٦٨ ـ ١٩٧ ـ ١٩٩
عرب آنقاد ١٦ ـ ٥٣ ـ ١٤٥
عرب الاحلاف ١٤٣
عرب بنى حسن ١٨
عرب بنى مالك ١٤٢
عرب تادلا ٦
عرب الحياينة ٩٨ ـ ٩٩
عرب الخلط ٧٠
عرب دخيسة ١٦٨

عرب الرحامنة ١١٠
عرب زعير ٦٠
عرب الزيايدة ١٥٢
عرب سفيان ١٠٨
عرب السهول ١٦٢
عرب عامر ٦٠ – ١١٨ – ١٦٢
عرب معقل ١٨٠ – ١٨١
العربى الرحمانى ١٤٨
عرفة بن محمد ١٥٨
عساكر القبائل ١٣٤
عسكر الاصبنيول ٨٦
عسكر الفرنسيس ٤٣ – ٤٤ – ٥٣
عسكر المسلمين ١٠٦
عسكر النجليز ١٩١
عسكر النصارى ٩٥ – ٩٨ – ١٠٠
عقيل بن أبى طالب ١٠٣
علقمة ١٥٤
علماء فاس ٢٧ – ٤٥
العلويون ٨٣ – ١٠٩
على بن أبى طالب كرم اللهوجهه ١١١
على بن سليمان ٢٩ – ٣٠ – ٣١ – ٤١
على بن عبد الرحمن ٧١ – ٧٢
على بن محمد ١٤٥
على بن المكى ٢٠٠
على بن يحيى المرغادى ٢٠٣
على الشريف ١٢٤ – ٢٠٤
عمر بن أبى ستة ٧
عمر بن عبد العزيز ١٠٧
عمر رضى الله عنه ٧٤– ١٠٣– ١١١
العونات ١٠
عيسى عليه السلام ٢٢ – ١٥٧
عيينة بن حصن ١٨٧

حرف « الغين »

الغزالى ١٩٧
الغزوانى بن زيدوح ١٢٣
غياثة ١٥٨

حرف « الفاء »

فاطمة بنت سليمان ٣٦
فاطمة بنت محمد بن قاسم الحسنى الادريسى ٤٤
فتنة أهل آزمور ١٢٩
فتنة اهل فاس ١١٥ – ١٢٩
فرجى ٤٠ – ٦٠
الفرنج ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – ١١٤ – ١٦٣ – ١٧٢ – ٢٠٨
الفرنسيس ٢٦ – ٤٢ – ٤٣ – ٤٤ – ٤٩ – ٥٠ – ٥٣ – ٥٤ – ٥٥ – ٥٧ – ٥٩– ٦٢ – ٦٣– ٩١ – ١٠١– ١٦٢
فقهاء رباط الفتح ١١٥

فقهاء سلا ١١٥

حرف « القاف »

قبائل آيت باعمران ١٨٠
قبائل البربر ١٦٢ - ٢٠٦
قبائل تادلا ١٢٣
قبائل تامسنا ١٢
قبائل الجبل ٨٦ - ٩٤
قبائل الحوز ٨ - ٦١ - ١٤٨ - ١٥٢
قبائل دكالة ١٠ - ١٢ - ١٦١ - ١٧٤
قبائل الدير ١٦١ -
قبائل الريف ١٦٠
قبائل الشاوية ١٠
قبائل الصحراء ١٨٠
قبائل العرب ٤١ - ١٢٤
قبائل الغرب ٣٦ - ١٦٩
قبائل المغرب ١٦٤
قبيلة آيت زداك ٢٠٢
قبيلة آيت عتاب ١٦٨
قبيلة بنى حكم ١٦٢
قبيلة ذاوتنان ١٨٢
قبيلة زمور ٤٧ - ٦٥
قبيلة سفيان ١٠٨
قبيلة غياثة ١٥٨
قبيلة مجاط ١٦٩
القبيلة اليحيوية ١٣٥

قدور بن الخضر ٣٩
قريش ١٠٣ - ١٩٤
القسطلانى ١٨٩
قيس ١٥٤

حرف « الكاف »

الكبير ٣٩ - ٤٠
كبير الفرنسيس ٤٣
الكرغلية ٣٠ - ٣٢ - ٤١
كعب ١٥٤
كليب ١٥٣

حرف « اللام »

لسان الدين بن الخطيب ٥٨
لقمان ٧٢
اللوندرة ١١٣

حرف « الميم »

المأمون بن الشريف ٥٠
المأمون بن محمد ١٧ - ١٨ - ٢٠
المأمون بن هشام ١٠ - ٢٤
المأمون الزرارى ٥ - ٨
مبارك بن على بن محمد ٨ - ٩ - ١٠
المتنبى ١٨٩
مجاط ١٣٥ - ١٦٢ - ١٦٨
محلة العباس بن عبد الرحمن ٩٩

محلة المسلمين ١٠٠
محمد بن الحاج محمد التازى ١٦٦
محمد بن الحاج محمد بن أبى جمعة ٣٠
محمد بن الحبيب ١٥٨
محمد بن سليمان الفاسى ١٠ – ١١
محمد بن الشاهد البخارى ٢٠
محمد بن الطيب ٧ – ١٢ – ١٣ – ١٥ – ٣٦ – ٣٧ –
محمد بن عبد الرحمن ٣٧ – ٣٨ – ٤٠ – ٤١ – ٤٧ – ٤٩ – ٥١ – ٥٥ – ٥٦ – ٥٩ – ٦١ – ٦٥ – ٦٦ – ٧٠ – ٧٦ – ٨٠ – ٨١ ٨٣ – ٨٥ – ٩٧ – ٩٨ – ٩٩ – ١٠٨ – ١١٠ – ١١٥ – ١١٦ – ١١٧ – ١٢١ – ١٢٣ – ١٢٤ – ١٢٥ – ١٢٦ – ١٢٨ – ١٣٤ – ١٤٩ – ١٥٠ – ١٧٧
محمد بن عبد الكريم الشرفى ٥٦ – ٥٧
محمد بن عبد الله ١٢ – ١٤ – ٢٤ – ١١٥ – ١٣٦ – ١٩٧ – ٢٠٧
محمد بن المؤذن ١٣٣
محمد العربى الناصرى ١٦١
محمود العثمانى ٢٧
المختار بن عبد الملك الجامعى ٣٨ – ٤٥
مخزمة بن نفيل ١٠٣
المخزن ١٩٤ – ١٩٥ – ١٩٩
المرابطون ٣١ – ١١١
مروان ١٥٤
مسفيوة ١٤
المسلمون ٤٣ – ٤٤ – ٩٨ – ١٠٠ – ١٠١ – ١٤٩ – ١٥١ – ١٨٦
المشاشيل ٤١
المصطفى بن اسمعيل ٤٤
المصطفى بن الجيلانى الرباطى ٦١
معاوية ١٨٨
المعتمد بن عباد ١٤٥
معسكر النصارى ٤٣
المغافرة ٣٤ – ٣٩ – ٤٠
المفضل أفيلال ٩٢
مكناسة ٩ – ١٠ – ١٨ – ٢٠ – ٢١ – ٢٦ – ٢٧ – ٣٥ – ٣٦ – ٣٧ – ٦٥ – ٧١ – ٧٧ – ٨٠ – ٨١ – ٨٣ – ٨٥ – ٨٧ – ٨٩ – ١٠٢ – ١١٢ – ١٣٥ – ١٣٦ – ١٣٨ – ١٥٧ – ١٦٠ – ١٦١ – ١٦٢ – ١٦٨ – ١٦٩ –
المكى القباج الفاسى ٦١
سلوك دول المغرب ١٩٩
ملوك المغرب ١٠١
المملكة العلوية ١٣٠
المنصور السعدى ٧٠ – ١٩٤

منويل ٢٥ ـ ٦٣ ـ ٩٩
المهدى ١٧٩
المهدى بن للطالب ابن سودة الفاسى ٧١ ـ ٧٣ ـ ١٣٣ ـ ١٦٣
المهدى بن محمد الشرادى الزرارى ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢
المهدى المنتظر ١٨
مهدى الموحدين ١٤٦
موسى بن محمد ٨
موسى عليه السلام ١٥٧
المولى اسمعيل ٣٠ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ١٩٩

حرف « النون »

نابليون الثالث ٥٩ ـ ١١٧ ـ ١٢١ ـ ١٢٢
النجليز ٢٦ ـ ٥٣ ـ ٦٢ ـ ٧٠ ـ ٧٤ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠ ـ ١٨١ ـ ١٩٥
النصارى ٢٨ ـ ٣٢ ـ ٤٢ ـ ٤٤ ـ ٩٨ ـ ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١١٣ ـ ١٤٩ ـ ١٥١ ـ ١٦٥ ـ ١٨٦ ـ ١٩٥
نصارى الاصبنيول ٢٠٥
نصارى سبتة ٨٤
نصارى مليلية ٢٠٦
نواب الاجناس ٨٥
نوح عليه السلام ١٥٧

حرف « الهاء »

الهاشمى بن العباس الزيانى ١٠
الهاشمى بن ملوك البلغيثى ٩
هشتوكة ١٨

حرف « الواو »

وارياش ٢٠٥
الودايا ٤ ـ ٦ ـ ١٨ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٥١
ورغة ٣١
وقعة ايسلى ٩٧ ـ ١٠١
وقعة البروس ١٢٢
وقعة بنيس ١٣٧
وقعة تطاوين ١٠١ ـ ١١٢
وقعة ظيان ٩٧
ولاة المغرب ٢٠٢

حرف « الياء »

يزيد ١٨٨ ـ
يونس عليه السلام ١٥٧
اليهود ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١٤٩
يهود المراسى ١١٤
يهود مصر ١١٣
يهود المغرب ١١٢ ـ ١١٣ ـ ١١٤

فهرس الاماكن

حرف « الالف »

آزمور ١٢ - ١٨ - ١٩ - ١٥٠
آرضات وزان ١٧
آسفى ١٧ - ١٩
آسمير ٨٨
آصيلا ١٧
آكدال - مراكش - ١٣
آكدال - الرباط - ١١٥ - ١٢٧
آكدير ١٨١
آكراى ١٦٨
آمجوط ١٢٢
آمصال ١٥٥
آمصاو ١٧٦
آنفا ٧١ - ١٤٧ - ١٥٠
أبو الجعد ١٢٣
أبو الجلود ١٣٧
أبو الخصيصات ١٤٩
أبو ريقى ١٢٨
أبو صفيحة ٩٩
أرض زناتة ٢٠٥
أرض المغرب ٥٣
أرض مليلية ٢٠٥
اسبانيا ٩٤
الاسكندرية ٧٤
أشبيلية ١٤٥
الاقطار السوسية ١٧٥
افريقية ٤

حرف« الباء »

باب البجاة ٣٤
باب الحجر ١٠٩
باب حسين ٦٢
باب الخميس - مراكش - ١١
باب الرب - مراكش - ٦٨ - ١٦١
باريس ١١٦ - ١٢١ - ١٢٢
بديع المنصور ١١٥
البرج - تطوان - ٩٢
برج الفنار ١٢٧
البرج الكبير ٥٥
برج مارتيل ٨٩
البروج ١٢٩
البريجة ١٢
بستان آمنة المرينية ٧٩ - ١٤٥ - ١٦٠
بستان أسر الجلود ٣٤

بستيون أبى الجلود ٣٧
بستيو نباب الجيسة ٣٧
بستيون باب الفتوح ٣٧
البستيون الكبير ٨٣
بسيط آزغار ٢١
بسيط سايس ١٦٠
بغداد ١٦٧
بلاد آيت سعادة ١١٠
بلاد آيت مرغاد ٢٠٣
بلاد آيت يوسى ٢٠٢
بلاد الاروام ١٤٥
بلاد بنى حسن ١٣٤
بلاد بنى زروال ١٢٢
بلاد بنى مكيلد ٢٠٢
بلاد تامسنا ١٢٩
بلاد الحبشة والنوبة ١٧٩
بلاد زعير ١٦٤
بلاد زمران ١٢٦
بلاد زمور الشلح ١٦٢
بلاد السراغنة ٨٠ – ١٢٩
بلاد سفيان ٨ – ٧٠
بلاد السوس الاقصى ١٧٤ – ١٨٠
بلاد الشرق – وجدة – ١٦
بلاد الصفافحة ١٣٤
بلاد عرب الصباح ٢٠٤
بلاد غياثة ١٥٨
بلاد الغرب ٣٥– ٦١– ١٥٤– ١٦٨
بلاد كورت ١٠٨
بلاد مسفيوة ١٤
بلاد المغرب ١٠١ – ١١٠ – ١٢٤ – ١٤٩ – ١٧٢ – ١٩٤
بلاد المغرب الاوسط ٤٤ – ٤٩
بلاد وجدة ١٥٨
البليدة ٣٢
بيت الله الحرام ٧٢
البيوت ٨٦

حرف « التاء »

تادارت ١٠
تادغوست ٢٠٣
تادلا ١٦٤ – ١٦٨
تارودانت ٣٣
تازا ١٦ – ٣٣ – ٣٥ – ٥٣ – ١٠٢ – ١٤٣ – ١٤٥ – ١٥٨
تافيلالت ٣– ٨– ٧٢– ١٣٧– ٢٠٤ – ٢٠٦
تطاوين ١٧– ٨٥– ٨٧ – ٨٩– ٩٠ – ٩١– ٩٢– ٩٤– ٩٩– ١٠١– ١٠٨ – ١١٠– ١٧٤– ١٧٧– ٢٠١– ٢٠٦ –
تلمسان ٣٠– ٣١– ٣٢– ٣٣– ٣٥ – ٤١– ٤٢– ٤٤– ٤٩– ٩٧– ٩٨
تيزيكى ١٩

تيفلت ٦٥ – ٦٦

حرف « الثاء »

ثغر الجديدة ١٤٩ – ١٥٠ – ١٥١

ثغر الجزائر ٢٦

ثغر سلا ٦٢ – ٧٦ – ١٧٩

ثغر المغرب ٢٤

ثنية الكلاوى ٢٠٥

حرف «الجيم»

جامع ابن يوسف ١٦٨

جامع الاندلس ١٧٨

جامع الفناء ١٠٩ – ١١٢

جامع الكتبيين ٨٠

جبال غمارة ٢٠١

جبال فازاز ١٩٩ – ٢٠٦

جبل تينملل ١٤٦

جبل زرهون ١٠٩

جبل سلفات ١٠ – ٤٠

الجديدة ١٢ – ١٣ – ١٩ – ١٥٠

الجزائر ٢٧ – ٤٣

جزيرة الصويرة ١١

حرف «الحاء»

الحاجب ١٣٦ – ١٦٨

الحبشة ١٩١

الحجاز ٧١ – ١١٢

الحديبية ١٩٤

الحرم الادريسى– فاس– ٩٧– ١٢٩– ١٣١ – ١٣٦ – ١٣٨

حوز مراكش ١٠

حرف «الخاء»

خزانة الكتب العلمية ١٥٢

الخميسات ٦٥ – ٦٦

حرف « الدال »

دار ابن العامرى ١٣٥

دار ابن الغازى ٦٥

دار ابن المفتى ٩٢

الدار البيضاء ١٢١ – ١٢٧ – ١٥٠ – ١٥١ – ١٥٢

دار الدبيبغ ٣٤

دار الرزينى ٩٢

دار فابريكة البارود ١٢٧

دار فابريكة السكر ١٢٧

دار اللبادى ٩٢

دار المخزن ٩٢

دمشق الشام ٥٩

حرف « الذال »

ذراع اللوز ١٥٨

حرف «الراء»

رأس الماء ٨٣

الرباط ٣٩ – ٥٤ – ٦٦

رباط الفتح ٨– ١٠– ١٨– ٢٠– ٣٨– ٤٠– ٥٠– ٥٣– ٥٥ – ٦٠ – ٦١ – ٦٥– ٦٧– ٧٩– ١٠٨– ١٠٩– ١١٥–

١١٩ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤
١٤٧ـ ١٥٢ـ ١٥٧ـ ١٦١ـ ١٦٤ ـ
٢٠٧
رومة ١١٦
الريف ٤٩

حرف «الزاى»

زاوية ابن ساسى ١١٠ ـ ١٤٨
زاوية ادريس الاكبر ١٠٩
زاوية التستاوتى ٦١
زاوية حنصالة ١٦٠
الزاوية الشرادية ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١
زاوية العياشى ٨٣
زوطة ٧٠

حرف «السين»

سايس ١٦٨
سبتة ٨٥ ـ ٨٧
سجن الجزيرة ١١ ـ ٤١
سلا ٥٥ ـ ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٧ ـ ٧٠ ـ
٧٩ ـ ١١٧ ـ ١١٨ـ ١١٩ـ ١٢٠ ـ
١٥٢ـ ١٥٤ـ ١٥٥ـ ١٦٢ـ ١٦٤ ـ
١٧٨
سلوان ٥٦
سواحل المغرب ٢٥
السوس ١٩ ـ ٢١
سوق الاربعاء ١٠٩
سوق الخميس ـ مراكش ـ ١١٠
سوق دار البلار ـ باريس ـ ١٢١
سوق الدقاقين ٧٩

حرف «الشين»

الشام ٢٨ـ ١٨٨ـ ٢٠٨
الشماعين ـ فاس ـ ٦٧

حرف «الصاد»

صاكة الصويرة ١٧
الصحراء ١٣ ـ ٤٩ ـ ١٦٢
صحراء تافيلالت ٦٧ ـ ٢٠٢
صحراء كليميم ١٨١
الصخيرات ٧٩
الصويرة ٣ ـ ٣٨ ـ ٥٣ ـ ٧٩
الصين ١٦٧

حرف « الضاد »

ضريح أبى عبد الله محمد الصالح بن المعطى الشرقاوى ١٦٠
ضريح أبى عبد الله محمد واعدود ١٥٠
ضريح أبى القاسم السهيلى ١٦١
ضريح السعيدى ٩٤
ضريح الشيخ أبى شعيب ١٥٠
ضريح عبد الله البقال ٩٤
ضريح القاضى عياض ١٢٤
ضريح المولى ادريس ـ فاس ـ ١٣٦

حرف «الطاء»

طرفاية ١٨٠

طريق قبقب ٣٥
طنجة ١٧ - ٥٣ - ٧١- ٧٤- ٨٤ - ٨٥ - ٩١ - ١٨٢ - ٢٠١

حرف «العين»

العدوتين ١٠٢ - ١٠٤
العرائش ٤٠ - ٥٣ - ٧٠ - ٢٠١
عنق الجمل ٣٣
عين أبى عكاز ١٢٦
عين الدالية ٨٦
عين زودة ٦٠
عين قادوس ٣٦

حرف «الغين»

غابة آفقفان ١٦٨
الغرب ١٦٧ - ١٦٩ - ١٧٠
غطفان ١٨٧

حرف «الفاء»

فاس ٣- ٤- ٧ - ٨ - ١١ - ١٨ - ٢١- ٣٣- ٣٥- ٣٧ - ٤٠ - ٤٢ - ٥٣- ٥٥- ٥٧- ٦٠ - ٦١ - ٦٣ - ٦٥- ٦٧- ٧٦- ٨٠- ٨٣- ١٠٤ - ١٢٤- ١٢٩- ١٣٦- ١٣٧- ١٣٩ - ١٤٢- ١٤٣- ١٤٤- ١٤٥- ١٤٦ - ١٤٧- ١٤٨- ١٥٤- ١٥٥- ١٥٧ - ١٥٨- ١٥٩- ١٦٠- ١٦١- ١٦٣ - ١٦٩- ١٧٢- ١٩٢- ١٩٣- ١٩٤ - ٢٠٢ - ٢٠٧
فاس الجديد ٧ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧- ٣٩- ٤٠- ٦٠- ١٣٧- ٢٠١
فرقالة ١٨
فرنسا ١٢١
فم الجزيرة ٨٩ - ٩٠
فم الخنيق ١٣٦
فم العليق ٨٩
الفنيديق ٨٦ - ٨٧ - ١٠٠

حرف «القاف»

قبة المولى ادريس - فاس - ٨
القصبة ٢٠ - ٩١ - ٩٢
قصبة آدخسان ١٩٩
قصبة بوزنيقة ٧٩
قصبة تادلا ١٢٣
قصبة تلمسان ٣٠
قصبة تمارة ٤٠
قصبة سلوان ١٤٣
قصبة الشرادى ٤٠
قصبة شراقة ٣٤
قصبة كريران الحريزى ١٢
قصبة مراكش ٣٩
قصر السوق ٢٠٤
قصر كتامة ٨
القصر ٧٤

قطر المغرب ١٢٢ – ١٣٠ – ١٣٥ – ١٩٩
قطر السوس ٢٤ – ١٧٧ – ١٨١
القعدة الحمراء ٥٦
قنطرة تانسيفت ٧٦
قنطرة عياد ٣٤
القيسارية ٨

حرف «الكاف»

الكدية الاسماعيلية ٨
كليميم ١٨١
كيسر ١٢٩

حرف «اللام»

لوندرة ١١٢

حرف الميم

مادريد ١٦٤ – ٢٠٦
مجاز الحصاء ٨٦
المدرسة العنانية ١٣٧
مدشر القلالين ٨٨ – ٨٩
مدغرة ٢٠٤
مدينة سلا ٨٣
مدينة لوندرة ٧٦
المدينة المنورة ٧٤ – ٧٥ – ١٨٧
مدينة وهران ٣٢
مديونة ١٠
المراسى السوسية ١٧٤
مراسى المغرب ١٦ – ٥٤ – ١٠١ – ١٧٧ – ١٧٨
مراكش ٧ – ٨ – ١٠ – ١١ – ١٣ – ١٤ – ١٧ – ١٨ – ١٩ – ٢١ – ٢٤ – ٢٧ – ٣٧ – ٣٨ – ٤٠ – ٤٢ – ٤٥ – ٥٣ – ٥٥ – ٦٠ – ٦٥ – ٦٧ – ٦٨ – ٧٦ – ٧٩ – ٨٠ – ٨٣ – ١٠٢ – ١٠٤ – ١٠٩ – ١١٢ – ١١٣ – ١١٨ – ١٢٢ – ١٢٣ – ١٢٤ – ١٢٥ – ١١٦ – ١٢٧ – ١٢٨ – ١٢٩ – ١٣٥ – ١٣٩ – ١٤٢ – ١٤٤ – ١٤٨ – ١٤٩ – ١٥٤ – ١٥٥ – ١٦١ – ١٦٣ – ١٦٤ – ١٦٦ – ١٦٨ – ١٧٠ – ١٧٢ – ١٧٤ – ١٧٥ – ١٨٠ – ١٨٢ – ١٩٩ – ٢٠١ – ٢٠٤ – ٢٠٥ – ٢٠٦ – ٢٠٧
مرسى آسكا ١٧٥ – ١٧٦ – ١٨١
مرسى آكلو ١٧٦
مرسى الجديدة ١٧٤
مرسى الدار البيضاء ١٠١ – ١٧٤
مرسى طرفاية ١٨١
مرسى طنجة ١١ – ٧٩ – ١٩٩
مرسى العدوتين ٢٥ – ٦٢
مرسى العرائش ٢٥

مسجد أهل فاس ١٢٧
مسجد الباشا ٩٤
مسجد الشيخ ابى الحسن على بركة ٩٨
مسجد القرويين ٦٧ – ١١٥
مسجد القصبة ٩٤
مسجد المولى ادريس – فاس ٨
مشرع أبى حمى ١٧
مشرع ابى الاعوان ٥٥
مششرع الرحائل ٥٧
مصر ٥ – ٢٨ – ٢٠٨
المضيق ٨٨ – ٨٩
المغرب ٦ – ١٣ – ١٨ – ٤٥ – ٥٦ – ٦٨ – ٧٩ – ١١٦ – ١١٩ – ١٢٥ – ١٣٣ – ١٦٢ – ١٦٦ – ١٨٠ – ١٨١ – ٢٠١ – ٢٠٧
المغرب الاقصى ١١٧
المقصرة ٢٥
مكة ٧٥ – ١١٢
مكناسة الزيتون ١٦ – ٦١ – ٦٥ ... ١٦٨ – ١٧٤ – ١٩٩ – ٢٠١
المنشية ١٢٧
المنصورية ٤٠
المهدومة ١٢
المهدية ٦٠

حرف النون

نهر تاركى ١٢٦
نهر سبو ٥٦
النوبة ١٩١
النيكرو ٨٧

حرف الواو

وادى آزمور ١٢
وادى آسمير ٨٨
وادى آكراى ١٠٠
وادى ايسلى ٥١ – ٥٦
وادى زيز ١٠٣
وادى العبيد ٢٠٧
وادى مكس ٧٠
وادى النجاة ١٣٦ – ١٦٩
وادى نفيس ١٢٦
وادى النفيفيخ ٤٠
وادى نول ١٧٥– ١٧٦– ١٧٧– ١٨١
وادى النيكرو ٨٨
وادى والغاس ١٧٦ – ١٧٧
وجدة ١٣ – ١٥ – ٢٧ – ٣٣ – ٤٩ – ٥٠ – ٥١ – ٦٠ – ١٤٢ – ١٤٥
وطن الجزائر ٥ ٤
وهران ٤٢ – ٤٣

حرف الياء

ينبع ٧٥